

طبعة  
العربية الأصلية

www.Rewity.com  
By Dalvia

# حاج كومبوستيلا

رواية

پاولو كويلو

مؤلف الرائعة العالمية "الخيميائي"

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر



يمثل هذا الكتاب باكورة أعمال كويلو، ويروي قصة سعي روي مميز على طريق مار يعقوب في إسبانيا.

ينطلق الراوي في مسيرة طويلة، بحثاً عن سيفه الذي فقدته لحظة كان يُقدّم إليه. اشترط عليه المعلم لاسترداده أن يقوم بالحج على طريق قديمة، كان يعبرها حجّاج القرون الوسطى، واعتُبرت مزاراً من أهم المزارات الدينية في الغرب.

في الطريق، يقوم المرشد بتروس بتلقين الراوي ياولو تمارين وطقوس «رام» (جمعية روحانية قديمة)، وهي ممارسات بسيطة تساعد الإنسان على اكتشاف طريق خاصة به، وتمدّه بالطاقة والشجاعة، معمّقة حدسه الشخصي الذي يصله بالحقيقة.

يتعرّض الراوي، في مسيرته، لتجارب روحية كثيرة، تتمثل في اكتشاف معانٍ جديدة للحب والورع والموت والألم. والأهم من ذلك كلّهُ، يتبيّن أن التوصل إلى مرحلة المصالحة مع النفس والإشراق ليس نخبوياً، وليس حكراً على الناس المختارين، بل هو أيضاً متاح أمام كل إنسان يسير على طريقه الخاصة به، كما سار الراوي على طريق مار يعقوب: ذلك أن الخارق موجود على طريق الناس العاديين. المهم هو الطريق بحدّ ذاتها، واكتشافنا لأنفسنا من خلال السفر والمغامرة والسعي. وأمام هذا الاكتشاف، يصبح الهدف أمراً ثانوياً. فالراوي، بعد أن سار على درب بغية اكتشاف سرّ سيفه، يكتشف ذلك السر، لكنه لا يعلنه. فالسرّ هو ما يُكتشف، ولا يُعلن.

تعتبر رواية «حاج كومبوستيلا» المحطة الأهم في حياة كويلو التي انطلق منها إلى محطات أخرى. إنها بداية «الجهاد الحسن»، الذي سيدفع بكويلو ليربح معارك الأدب الرفيع.

حاج كومبوستيلا

پاولو كويلو

*www.Rewity.com*  
*By Dalylia*

ترجمة: ماريا طوق

تدقيق لغوي: روي طعمة

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

نُشر في الأصل بالبرتغالية. بعنوان، O Diário de um Mago

نُشرت هذه الطبعة بالاتفاق مع سانت جوردي وشركاه. برشلونة.

اسبانيا. بوكالتهم عن پاولو كويلو

موقع پاولو كويلو على الانترنت،

<http://www.paulocoelho.com.br>

© جميع الحقوق محفوظة لپاولو كويلو

© حقوق النشر بالعربية محفوظة



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص.ب. ٨٣٧٥١ - بيروت - لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢١/٢ (٠١)

تلفون + فاكس: ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ (١ ٩٦١)

e-mail: allprint@cyberia.net.lb

الطبعة الثالثة ٢٠٠٥

تصميم الغلاف: عباس مكي

الاخراج الفني: زاهية عاصي

فقالوا: «يا رب إن ههنا سيفين»  
فقال لهم: «يكفي»

لوقا، الفصل الثاني والعشرون، الآية ٢٨



## مقدمة الكاتب لسلسلة رواياته الصادرة بالعربية

كان أحد كبار متصوفي الإسلام، وسوف ندعوه هنا حسن،  
يحتضر، عندما سأل تلميذ من تلاميذه:

– من كان معلّمك أيها المعلّم؟

أجاب: «بل قل المئات من العلمين. وإذا كان لي أن أسقيهم  
جميعاً، فسوف يستغرق ذلك شهوراً عديدة، وربما سنوات. وسوف  
ينتهي بي الأمر إلى نسيان بعضهم».

– «ولكن، ألم يكن لبعضهم تأثير عليك أكبر من تأثير  
الآخرين؟»

استغرق حسن في التفكير دقيقة كاملة، ثم قال:

«كان هناك ثلاثة في الواقع، تعلّمت منهم أموراً على جانب  
كبير من الأهمية:

«أولهم كان لصاً. فقد حدث يوماً أنني تُهت في الصحراء، ولم  
أتمكن من الوصول إلى البيت إلا في ساعة متأخرة جداً من الليل.  
وكنت قد أودعت جاري مفتاح البيت، ولم أملك الشجاعة لإيقاظه  
في تلك الساعة. وفي النهاية، صادفت رجلاً طلبت منه المساعدة،  
ففتح لي قفل الباب في لمح البصر.

«أثار الأمر إعجابي الشديد، ورجوته أن يعلمني كيف فعل ذلك.

فأخبرني بأنه يعتاش من سرقة الناس. لكنني كنت شديد الامتنان له، فدعوته إلى المبيت في منزلي.

«مكث عندي شهراً واحداً. كان يخرج كل ليلة، وهو يقول: سأذهب إلى العمل. أما أنت، فتدوم على التأمل، وأكثر من الصلاة. وكنت دائماً أسأله عندما يعود، ما إذا كان قد غنم شيئاً. وكان جوابه يتخذ، على الدوام، منوالاً واحداً لا يتغير: 'لم أوفق في اغتنام شيء هذا المساء. لكنني، إذا شاء الله، سأعاود المحاولة في الغد'.

«كان رجلاً سعيداً. لم أره يوماً يستسلم لليأس جزاء عودته صفر اليدين. من بعدها، وخلال القسم الأكبر من حياتي، عندما كنت أستغرق في التأمل يوماً بعد يوم، من دون أن يحدث أي شيء، ومن دون أن أحقق اتصالاً بالله، كنت أستعيد كلمات ذلك اللص: 'لم أوفق بشيء هذا المساء، لكنني، إذا شاء الله، سأعاود المحاولة في الغد'. كان ذلك يمنحني القوة على المتابعة.

– «ومن كان المعلم الثاني؟

– «كان كلباً. فقد حدث أن كنت متوجهاً إلى النهر لأشرب قليلاً من الماء، عندما ظهر هذا الكلب. كان عطشاً أيضاً. لكنه، عندما اقترب من حافة النهر، شاهد كلباً آخر فيه. ولم يكن هذا غير انعكاس لصورته في الماء.

«دب الفزع في الكلب، فتراجع إلى الوراء وراح ينبج. بذل ما بوسعه ليُبعد الكلب الآخر، ولكن شيئاً من هذا لم يحصل بالطبع. وفي النهاية، قزر الكلب، وقد غلبه الظمأ الشديد، أن يواجه الوضع، فالتقى بنفسه في النهر. وكان أن اختفت الصورة هذه المرة.

توقف حسن قليلاً، ثم تابع:

– «أخيراً، كان معلّمي الثالث ولداً. فقد حدث أن رأيته يسير باتجاه الجامع، حاملاً شمعة بيده، فبادرته بالسؤال: هل أضأت هذه الشمعة بنفسك؟ فردّ علي الصبي بالإيجاب. ولما كان يقلقني أن

يلعب الأولاد بالنار، تابعت بإلحاح: اسمع يا صبي: في لحظة من اللحظات كانت هذه الشمعة مطفأة. أتستطيع أن تخبرني من أين جاءت النار التي تشعلها؟

«ضحك الصبي، وأطفأ الشمعة، ثم ردّ يسألني: وأنت يا سيدي، أتستطيع أن تخبرني إلى أين ذهبت النار التي كانت مشتعلة هنا؟

«أدركت حينها كم كنت غيبياً. من ذا الذي يشعل نار الحكمة؟ وإلى أين تذهب؟ أدركت أن الإنسان، على مثال تلك الشمعة، يحمل في قلبه النار المقدسة للحظات معينة، ولكنه لا يعرف إطلاقاً أين أشعلت. وبدأت، منذ ذلك الحين، أسز بمشاعري وأفكاري لكل ما يحيط بي: للشحب والأشجار والأنهار والغابات، للرجال والنساء. كان لي، طوال حياتي، الآلاف من المعلمين. وبث أثق بأن النار سوف تتوهج عندما أحتاج إليها. كنت تلميذ الحياة، وما زلت تلميذها. لقد استقيت المعرفة وتعلمت من أشياء أكثر بساطة، من أشياء غير متوقعة، مثل الحكايات التي يرويها الآباء والأمهات لأولادهم.

تبين لنا هذه القصة الجميلة المقتبسة من موروث التصوف في الإسلام، أن أحد أقدم الطرق التقليدية، التي اعتمدها الإنسان لنقل معرفة جيله، كانت القصص والروايات. وفي ما يتعلق بي، كانت الثقافة العربية إلى جانبي خلال معظم أيام حياتي، تبين لي أموراً لم يستطع العالم، الذي أعيش فيه، أن يفقه معناها. واليوم، أستطيع للمرة الأولى، أن أزد على المكرمة بمثلها، وأنا أرقب كتيبي تنشرها «شركة المطبوعات للتوزيع والنشر – لبنان، في المنطقة نفسها التي كثيراً ما أثارت مخيلتي. وإنني ممتن للناشر السيد تحسين الخياط لما أبداه من حماس لجعل أعمالي في متناول قراء العربية، من خلال ترجمتها، ترجمة اتسمت بالجدية، بعد حصوله مني، وفقاً للأصول المعتمدة، على حقوق النشر.

واوذاً أخيراً، أن أتوجه بالشكر إلى الوكييلة - المشاركة  
والصديقة، سوزان ناصيف، التي جعلت بحماسها، هذا الحلم ممكناً،  
ذلك أنني ما كنت، من دونها، لأستطيع إشراك هؤلاء الناس، الذين  
أحمل لهم الإعجاب الشديد، بمكنونات قلبي.

،پاولو كويلو

## ملاحظات الكاتب

**منذ** عشر سنوات دخلت بيتاً صغيراً في مقاطعة «سان جان بيه  
دو بور»، وأنا مقتنع بأن ما أفعله مضيعة للوقت. كان سعبي  
الروحي مرتبطاً بالفكرة القائلة إن هناك أسراراً وطرائق غامضة  
وأناساً قادرين على فهم الأشياء العسيرة على معظم الفنانين،  
والتحكم بها. وهكذا، فإن عبور «طريق الناس العاديين» بدا لي  
مشروعاً لا فائدة منه.

إن قسماً من جبلي - وأنا بالذات - انقاد لسحر الشيع والجماعات  
الشريية، والاعتقاد القائل إن ما هو صعب ومعقد يقودنا حتماً إلى  
فهم أسرار الحياة. عام ١٩٧٤، دفعت ثمن هذا الاعتقاد غالياً. زال  
الخوف لكن افتتاني بالخفي ظلّ هاجساً في حياتي. لذلك، عندما  
حدّثني معلّمي عن طريق «مار يعقوب»، وجدت فكرة هذا الحجّ  
مضنية وغير مجدية. لا بل أنني اتّخذت قراراً بترك «رام»، وهي  
جمعية دينية صغيرة غير ذات شأن، تستند إلى التبادل الشفوي  
لكلام مُفعّم بالرموز.

وأخيراً، عندما حدّثني الظروف لأنفُذ الرحلة التي طلبها مني  
معلّمي، قررت أن أقوم بها على طريقتي. في بداية الحجّ، سعيت لأن  
أجعل من بتروس، مرشدي خلال الرحلة، شخصاً أشبه بـ «دون  
خوان»، الساحر الذي يلجأ إليه كارلوس كاستانيدا ليفسر اتصاله  
بالخارق. اعتقدت أنه يمكنني، بقليل من الخيال، أن أجعل من  
تجربة طريق «مار يعقوب» تجربة ممتعة، مستبدلاً بالخفي الموحى  
به، وبالعقد البسيط، وبالشري المضى.



لكن بتروس كان يتصنّى لي كلّما سعيت لتحويله إلى بطل،  
مما جعل علاقتنا شاقّة للغاية. وافترقنا أخيراً، ونحن نشعر أن هذه  
الصداقة لم توصلنا إلى أي مكان.

نبذَ أنني أدركت، بعد مرور وقت طويل على افتراقنا، الأهمية  
التي تتّصف بها هذه التجربة. وهذا الإدراك بالذات هو الآن أغلى  
شيء عندي؛ الخارق موجود على طريق الناس العاديين. إن هذا  
الإدراك أتاح لي ألا أحفل بالمخاطر، لكي أصل إلى أقصى ما يؤمن به،  
وقد أمّنتني بالشجاعة لأكتب أول كتاب لي: «حاج كومبوستيلا»،  
وبالقوة لأصارع من أجله، بالرغم مما كان يُقال عن استحالة أن  
يعتاش كاتب برازيلي من أدبه. وأستطيع القول أيضاً إنه ساعدني  
على التحلّي بالكرامة والدأب، وهما زاد «الجهاد الحسن» الذي يجب  
خوضه كل يوم مع النفس، إذا ما أرثت الاستمرار في سلوك  
«طريق الناس العاديين».

لم تتسّن لي رؤية مرشدي مرة ثانية. حاولت الاتصال به حين  
نُشر الكتاب في البرازيل، ولكن لم أتلّق منه جواباً. وعند صدور  
الترجمة الإنكليزية للكتاب، سررت لأنه، عن طريق القراءة، بات  
بإمكانه استعادة الفترة التي عشناها معاً. حاولت أن أوافيه من  
جديد، لكنه غيّر رقم هاتفه.

بعد عشر سنوات، نُشر «حاج كومبوستيلا» في البلاد، حيث  
باشرتُ رحلتي، وحيث رأيت بتروس للمرة الأولى على الأرض  
الفرنسية. وأمل أن ألتقيه يوماً، لأقول له:

«شكراً، أهديك هذا الكتاب»

پاولو كويلو

## تمهيد

«وَأَنْتَ، أَمَامَ وَجْهِ رَامِ الْمُقَدَّسِ، تَلْمَسُ بِيَدَيْكَ «كَلِمَةَ الْحَيَاةِ»،  
وَتَتَلَقَّى قُوَّةَ فَائِزَةٍ تَخُولُكَ أَنْ تَشْهَدَ لِلْكَلِمَةِ حَتَّى أَقْصَى الْأَرْضِ».

رفع المعلم سيفي الجديد دون أن يخرج من غمده. أضرمت  
النار، فتضاربت ألسنتها، واشتدت فرقتها، وهذا بشير خير، ويعني  
الاستمرار في ممارسة الرتبة الدينية التي بدأناها. عندئذٍ، انحنيت  
وظفقت أحضر الأرض. أمامي بيديّ العاريتين.

حدث ذلك ليلة ٢ يناير ١٩٨٦. كنا على إحدى قمم جبل «سيرا  
دومار» بالقرب من الناحية التي تدعى «الرؤوس السوداء». كان هناك،  
بالإضافة إليّ وإلى معلّمي، زوجتي، وأحد تلامذتي، ومرشد محليّ،  
وممثل عن الأخوية الدينية الكبيرة التي تضمّ كافة الجمعيات  
الروحانية في العالم، والمعروفة باسم «الميراث». كنّا نحن الخمسة،  
بمن فيهم المرشد الذي أعلم مسبقاً بالمراسيم التي ستجري، نشارك  
بسيامتي كمعلّم في جمعية «رام»، وهي أخوية مسيحية قديمة  
أنشئت عام ١٤٩٢.

حفرتُ في التراب حفرة قليلة العمق، لكن واسعة، ورحت  
أضرب الأرض بطريقة احتفالية، وأنا أتلو الكلمات الطقوسية.  
عندئذٍ، اقتربت زوجتي، وأعطتني السيف الذي استخدمته عشر  
سنوات، والذي كان معاوني طوال هذا الوقت. وضعت السيف في  
الحفرة، ثم غطيته بالتراب، ومهّدت الأرض فوقه. وفيما كنت أقوم  
بهذه الحركات، عاودتني ذكرى المجن التي مررت بها، وأشياء

تعلمتها، وظواهر كنت قادراً على افتعالها، لا شيء إلا لأن هذا السيف الموغل في القدم كان حليفي ورفيقي الدائم. الآن، سيلتهمه التراب، وسيغذي نضله وخشب مقبضه المكان الذي غرف منه القدرة والنفوذ.

اقترب مني معلّمي، ووضع سيفي الجديد أمامي فوق مدفن سيفي القديم في حين أن جميع من كانوا بقربي بسطوا أذرعهم، وبعث المعلّم حولنا بنور غريب لا يضيء، ولكنه ظاهر، ويضفي على القامات لوناً مختلفاً عن الأصفر الذي تبعته النار. أخرج المعلّم سيفه الخاص من غمده، ولس به كتفي ثم رأسي، وقال:

«بقدرة ومحبة رام، أعينك معلماً وفارساً في الجمعية، اليوم وكل أيام حياتنا؛ حيث الحرف الأول من رام يعني الصرامة، والثاني يعني الحب، والثالث الرحمة. عندما يصبح سيفك بتصرفك، لا تجعله سجين غمده فترة طويلة، لأنه بذلك يصدأ. وعندما تستله من غمده، ترجفه إليه قبل أن تقوم بعمل خير، أو تفتح طريقاً.

وبرأس سيفه، أحدث جرحاً بسيطاً في رأسي. عندئذٍ، لم أعد بحاجة للصمت، ولم يعد ضرورياً إخفاء ما كنت قادراً عليه، أو التستر على الأعمال الخارقة التي تعلمت القيام بها، تبعاً لنهج الميراث. وابتداءً من هذه اللحظة، أصبحت أخاً.

بسطت يدي لأمسك سيفي الجديد المصنوع من الفولاذ الذي لا يصدأ ومن الخشب ذي الترب الذي لا يتآكل، بمقبضه الأسود والأحمر وغمده الأسود. ولكن، ما إن لمست يدي الغمد وتهنأت لاستلّ السيف منه، حتى قام معلّمي بخطوة إلى الأمام وداس أصابعي بعنف، جعلني أزعق ألماً، وأرخي السيف من يدي.

نظرتُ إليه دون أن أفهم ما حصل. اختفى النور الغريب، ومنحت النار وجه المعلّم منظراً شبيحاً.

نظر المعلّم إليّ ببرودة، ونادى زوجتي، وسلّمها السيف الجديد. ثم اتجه ناحيتي، ونطق بهذه الكلمات:

«أبعد يدك التي تخذعك، فطريق الميراث ليست طريق بعض المختارين، بل طريق كل الناس! والقدرة، التي تعتقد نفسك أنك تمتلكها وحدك، لا قيمة لها، لأنك لا تتقاسمها وسائر البشر. كان أولى بك أن ترفض السيف، فيعطى لك لأن قلبك بات نقياً.

ولكن، حصل ما كنت أخشاه؛ زلّك وسقطت. فبسبب طمعك، عليك أن تعاود السير من جديد بحثاً عن سيفك. وبسبب عجرفتك، عليك أن تفتش عنه وسط الناس البسطاء. وبسبب انبهارك بالخارق، عليك أن تصارع كثيراً لتجد ما سوف يعطى لك مجاناً.

بدا لي وكأنّ العالم كلّهُ أغمي عليه تحت قدمي. بقيت راكعاً، أخرس ومجهض الروح. الآن، وقد أودعْتُ سيفي القديم التراب، لا أستطيع استعادته. وبما أن السيف الجديد لم يعط لي، فإنني أجد نفسي من جديد في وضعية المبتدئ، لا قدرة لي ولا دفاع. أرجعني عنف معلّمي الذي سحق أصابعي، في اليوم الأول لسيامتي الكبرى، إلى عالم «الحقد والأرض».

أطفا المرشد النار، فلنث زوجتي مني لتساعدني على النهوض. الآن، سيفي الجديد في عهنتها. أما أنا، بحسب طقوس «الميراث»، فلا أستطيع أبداً إمساكه دون إذن من معلّمي. انحدرنا عبر الغابات بصمت، مقتفين أثر ضوء السراج الذي يحمله المرشد، ووصلنا في النهاية إلى الطريق الترابية الصغيرة، حيث كانت السيارات متوقفة.

لم يُلقي أحد التحية عليّ قبل المغادرة. وضعت زوجتي السيف في صندوق السيارة، وأدارت المحرك. بقينا لوقت طويل صامتين، فيما هي تقود ببطء، لتتجنب حفر الطريق ومطباتها.

قالت على سبيل التشجيع:

— لا تهتم. أنا واثقة أنك سوف تستعيد السيف.

سألتها عما كان المعلّم يقول لها.

قالت:

– ثلاثة أشياء: أولاً، كان عليه أن يجلب معه ملابس دافئة لأن الطقس كان أشد برودة مما توقع. ثانياً، لم يفاجأ بما حصل، لأنه سبق لأناس كثيرين أن وصلوا إلى الرتبة التي وصلت إليها، وتصرفوا كما تصرف. وثالثاً، سيفك ينتظرك في مكان ما من الطريق التي عليك سلوكها. لم يحذد التاريخ ولا الساعة. حثني فقط عن المكان الذي يجب أن أخبئ السيف فيه كي تجده.

سألتها بعصبية:

– وأين هي هذه الطريق؟

– آه! هذا لم يشرحه لي جيداً. قال لي فقط إنه يجب أن تبحث في خارطة إسبانيا عن طريق قديمة قروسطية، تُعرف باسم غريب، هو طريق «مار يعقوب»<sup>(\*)</sup>.



www.rewity.com  
By Dalyia

---

(\*) مار يعقوب هو سانتياغو في اللغة الإسبانية.





## الوصول

**نظر** الجمركي طويلاً إلى السيف الذي تحمله زوجتي، وسألنا ماذا ننوي أن نفعل به. أجبتُه أن أحد أصدقائنا سيعاينه قبل أن نضعه في المزاد العلني. نجحت الكذبة. وأعطانا الجمركي تصريحاً يؤكد فيه أننا دخلنا، عبر مطار «باجاداس» وفي حوزتنا سيف، كما أشار علينا أنه إذا طرأت مشكلة ما عند إخراج السيف من البلاد، فيكفي، والحال هذه، إظهار التصريح للجمارك.

ذهبنا إلى مكتب لتأجير السيارات، لنحجز سيارتين. تسلمنا التذكرتين، وذهبنا لنتناول شيئاً من الطعام في مطعم المطار، قبل أن نفترق.

قضيت ليلة في الطائرة، عانيت فيها الكثير من الأرق، وأنا لا أعرف إن كان الأرق ناجماً عن الخوف من السفر على متن الطائرة، أو مما تخبئه لي الأحداث. شعرت بالإثارة، وبقية متنبهاً طوال الوقت.

رَدَدَت زوجتي للمرة الألف:

— لا تهتم. عليك الذهاب إلى فرنسا. وهناك في مدينة «سان جان بيه دو بور»، تسأل عن السيدة سافان، وهي تدلّك على من يرشدك إلى طريق «مار يعقوب».

وسألت للمرة الألف، مع أنني كنت أعرف الجواب مسبقاً:

— وأنت؟

— أذهب إلى المكان الذي ينبغي أن أنجز فيه ما طلب إليّ القيام به. وأبقى، من ثَمَّ، في مدريد بضعة أيام، أرجع بعدها إلى البرازيل. أنا قادرة على إدارة شؤوننا بشكل جيد، تماماً مثلك أنت.

أجبتُ باختصار، لأنني لم أشأ التعرض، الآن، للموضوع:

— أنا أدرك ذلك.

كنتُ منشغل البال كثيراً على الأعمال التي تركتها في البرازيل. عرفت كل ما تجب معرفته عن طريق «مار يعقوب»، في فترة لا تتعدى الخمسة عشر يوماً بعد وقوع حادثة «الرؤوس السوداء». ولكنني كنت أحتاج إلى سبعة أشهر، لأبث في المسألة، أي لأترك كل شيء وأقوم بالرحلة. وأخيراً، قالت لي زوجتي، ذات صباح، إن الساعة واليوم قد حانا، وإنني، ما لم أأخذ قراراً حاسماً بشأن الرحلة، فسوف يكون عليّ أن أنسى إلى الأبد الجمعية وتعاليم «رام». حاولت أن أشرح لها أن المعلم أوكل إليّ مهمة مستحيلة، لأنني لا أستطيع أن أتبرأ ببساطة من مسؤولية أعمالي اليومية. ضحكك، وقالت إن هذه الحجة ليست مقنعة، لأنني، خلال سبعة أشهر، لم أفعل الشيء الكثير، اللهم إلا قضاء الأيام والليالي، وأنا أتساءل عما إذا كان عليّ الشروع في السفر أم لا. ثم أعطتني، بكل بساطة، التذكرتين اللتين سجل عليهما موعد السفر.

سألتها في كافيتريا المطار:

— لم أأخذت هذا القرار هنا بالذات؟ ولست أدري هل من المستحسن أن أدع أحداً غيري يتخذ القرار بالتفتيش عن السيف. أجابتني زوجتي أن من الأفضل، إذا كان علينا تكرار هذه الأقوال السخيفة، أن نفترق في الحال.

ثم قالت:

– «لن تسمح أبداً لأحد في حياتك أن يتخذ قراراً بدلاً منك. فلنذهب. لقد تأخر الوقت».

أخذت حقائبها، واتجهت إلى وكالة السفر. لم أتحرك، بل بقيت جالساً أراقب بأيّ دأب كانت تتأبط سيفي الذي يوشك، في كل لحظة، أن ينزلق من تحت ذراعها.

توقفت في منتصف الطريق، ثم رجعت إلى جانب الطاولة، حيث كنت جالساً أمامها، وطبعت قبلة صاخبة على فمي، ونظرت إليّ طويلاً دون أن تنطق بكلمة. وفجأة، أدركت أنها إسبانيا، وأني لا أستطيع الرجوع إلى الورا. كان لديّ اليقين المخيف بأن إمكانات الفشل كبيرة، لكنني ها قد قمت بالخطوة الأولى. عانقت زوجتي بشغف كبير، تعبيراً عن الحب الذي كنت أكنّه لها في هذه اللحظة. وفيما كنت أعانقها، رفعت صلاة إلى كل ما أؤمن به، وكل الذين أؤمن بهم، متوسلاً أن أستمذ منهم القوة للرجوع والسيف في حوزتي.

قالت إحدى النسوة الجالسات إلى الطاولة المجاورة، بعد رحيل زوجتي:

– أرايت؟ إنه سيف جميل.

فاجابها صوت رجل:

– لا تهتمي، سأشتري لك واحداً مثله بالضبط. هناك المئات منه في الحال الخاصة بالسياح في إسبانيا.

بعد مرور ساعة على قيادتي السيارة، بدأت أشعر بالتعب الذي تراكم منذ الليلة الفائتة. كان قيظ شهر أغسطس مرتفعاً، بحيث أن جهاز قياس الحرارة سجّل رقماً مرتفعاً، على الرغم من أن الطريق لم تكن مزدحمة كثيراً. فزرت التوقف قليلاً في مدينة صغيرة أشير إليها، في خارطة الطريق، على أنها موقع سياحي. وفيما كنت أتسلق المنحدر الوعر الذي يؤدي إليها، تذكرت مرة أخرى كل ما تعلمته عن طريق «مار يعقوب».

في التقليد الإسلامي، يجب على كل مؤمن أن يقوم بفريضة الحج إلى مكّة، ولو مرة في حياته. وكذلك، شهدت الألفية الأولى من عهد المسيحية طرقاً ثلاثاً مقدسة، تمنح كل من يجتاز إحداها سلسلة من الغفرانات والنعيم. تقود الطريق الأولى إلى قبر القديس بطرس في روما وشعارها الصليب. وقد دعي الذين يسلكونها بـ «حجيج روما». أمّا الطريق الثانية، فتفضي إلى كنيسة القيامة في القدس، ودعي الذين يسلكونها بـ «النخيليين»، لأنّ شعارهم كان أغصان النخيل التي استقبل بها السيد المسيح لدى دخوله القدس. والطريق الثالثة والأخيرة تؤدي إلى زفات يعقوب الرسول الذي يرقد في مكان ما من شبه الجزيرة الإيبيرية، بالضبط، حيث رأى أحد الرعيان نجمة تسطع فوق حقل من الحقول. وتقول الخرافة إن مار يعقوب والعدراء مريم مزا من هناك بعد موت السيد المسيح، وبشراً بكلام الإنجيل داعين الشعوب إلى اعتناق المسيحية. أطلق على المكان اسم «كومبوستيلا»، أي حقل النجمة. ولاحقاً، ارتفعت فوقه مدينة اجتذبت إليها كل الزوّار المسيحيين. كما أطلق على هؤلاء، الذين عبروا الطريق الثالثة، اسم «الحجاج»، واتخذوا الصنفة شعاراً لهم.

خلال العصر الذهبي للمسيحية، إبان القرن السادس عشر، كان أكثر من مليون شخص يفدون من أنحاء أوروبا سنوياً، ليجتازوا طريق «المجرة»، (وقد دُعيت الطريق بهذا الاسم لأن الحجاج كانوا يهتدون أثناء الليل بهذه النجوم). واليوم، لا يزال هناك متصوّفون ورجال دين وبخانة يجتازون، سيراً على الأقدام، مسافة سبع مائة كيلومتر تفصل المدينة الفرنسية «سان جان بيه دوبرور» عن كاتدرائية مار يعقوب في كومبوستيلا الواقعة في أسبانيا.<sup>(١)</sup>

(١) تتفرع من طريق مار يعقوب الواقعة في الأراضي الفرنسية، عدة طرقات تلتقي جميعها في مدينة «بوينتي لارينا، الإسبانية». ومدينة «سان جان بيه دو بور» هي إحدى هذه الطرق، لكنها ليست الوحيدة، ولا الأكثر أهمية.



وبالاستناد إلى ما يقوله الكاهن الفرنسي إيميري بيكو الذي حجَّ إلى كومبوستيلا عام ١١٢٣، فإن الطريق التي يسلكها الحجاج اليوم مشابهة تماماً للدرب التي سلكها، في القرون الوسطى، شارلمان وفرنسيس الأسيزي وإيزابيلا دي كاستيل، وحديثاً البابا يوحنا الثالث والعشرون، والكثيرون غيرهم. ألف بيكو، عن تجربته هذه، خمسة كتب جرى تقديمها على أنها من أعمال البابا كاليكستس الثاني، وهو من أتباع مار يعقوب. وعرفت مجموعة هذه الكتب باسم «مخطوط كاليكستس». في الكتاب الخامس من «مخطوط كاليكستس» وعنوانه «كتاب مار يعقوب»، يعند بيكو المواقع الطبيعية وسبل الماء والمضافات والملاجئ والمدن التي تنتشر على طول الطريق. وارتكزت جماعة تدعى «أصدقاء مار يعقوب» إلى شروح بيكو لتقوم برعاية هذه الأماكن الطبيعية، وإرشاد الحجاج إليها حتى أيامنا هذه.

خلال القرن الثاني عشر، بدأت الأمة الإسبانية تستفيد من قدسية مار يعقوب، في صراعها ضد المغاربة الذين غزوا شبه الجزيرة. وأنشئت فرق عسكرية عدّة على طول الطريق. وأضحى رفات الرسول سوراً روحياً عظيماً لردع المسلمين الذين كانوا يدّعون أنهم يملكون «ذراع محمد». ولكن، بعد أن انحسرت حملات الفتوحات، عظمت قوة التنظيمات العسكرية، بحيث باتت تشكل تهديداً للدولة، ممّا أجبر الملوك الكاثوليكين على التدخل للحؤول دون تمزّد محتمل تقوم به هذه الوحدات ضد النبلاء. وهكذا سقطت الطريق شيئاً فشيئاً في غياهب النسيان. ولولا بعض التجلّيات الفنية النادرة، مثل «المجزة» لـ «بونويل»، «العابر» لـ «خوان مانويل سيرا»، لما تذكر أحد اليوم أن آلاف الناس الذين يقيموا لاحقاً شطر «العالم الجديد»، قد مرّوا من هنا.

كانت القرية، التي وصلت إليها في السيارة، مُقفرة تماماً. وبعد طول تفتيش، عثرت على حانة صغيرة موجودة في عمارة من الطراز القروسطي. ألح لي صاحب الحانة، الذي لم يشح بنظره عن

البرنامج المعروض على شاشة التلفزيون، إلى أن هذا الوقت وقت القيلولة، وأن تنقّلي بالسيارة يُعدّ ضرباً من الجنون.

طلبت شراباً بارداً مستسلماً قليلاً لإغراء مشاهدة التلفزيون. لكنني لم أكن أستطيع التركيز على شيء. كنت أعتقد فقط أنني، في اليومين المقبلين، سأعيش من جديد، سأعيش، في خضمّ القرن العشرين، شيئاً يشبه المغامرة الإنسانية الكبرى التي أعادت عوليس من طروادة، ورافقت دون كيشوت إلى المانش، وقادت نانتي وأورفيوس إلى الجحيم، وكريستوف كولومبوس إلى أميركا. وأعني بها مغامرة السفر نحو المجهول.

حين رجعت لأستقلّ سيارتي، كنت أكثر هدوءاً؛ حتى ولو لم أجد سيفي، فإن الحجّ على طريق «مار يعقوب» سوف يمكنني في جميع الأحوال من اكتشاف ذاتي.

\*\*\*

## «سان جان بيه دو بور»

كان ثمة أشخاص مقنعون وجوقة من البواقين، وكلهم يرتدون الأحمر والأخضر والأبيض وهي ألوان الباسك الفرنسي، يعبرون الشارع الرئيسي لـ «سان جان بيه دو بور». كان اليوم أحداً. كنت قد قضيت يومين وراء مقود السيارة، ولا يمكنني الآن أن أضيع دقيقة واحدة من وقتي في مشاهدة هذا الاحتفال. شققت طريقي وسط الحشد، وسمعت بعض الشتائم بالفرنسية، لكنني استطعت في النهاية، اجتياز الحصون التي تُولف القسم القديم من المدينة، حيث عليّ لقاء السيدة سافان. كان الطقس حاراً خلال النهار، حتى في هذه المنطقة من البيرنيه. وقد خرجت من السيارة والعرق يتصبب من جسمي.

قرعت الباب، وقرعته ثانية، وثالثة. وحده الصمت أجابني. جلست على حافة الجدار الصغير، والقلق ينتابني. قالت لي زوجتي إن عليّ التواجد هنا في هذا اليوم بالذات، لكن لم يتحرك أحد للقائي، ولم يستجب لندائي. لعلّ السيدة سافان خرجت لتشاهد العرض. أو لعلني وصلْتُ متأخراً جداً، فقررت ألا تستقبلني. ها إن طريق مار يعقوب تنتهي قبل أن تبدأ.

وفجأة، فُتح الباب، وقفزت طفلة إلى الشارع. ونهضت أنا أيضاً متوثباً، وسألتها بفرنسية سيئة عن السيدة سافان، فراحَت الفتاة الصغيرة تضحك، وأشارت إلى الداخل. عندئذٍ فقط، فهمت خطئي؛ فالباب يشرف على صحن دار فسيح تحديق به بيوت قديمة

قروسطية مزدانة بالشرفات. وقد تُرك الباب مفتوحاً من أجلي، في حين أنني لم أجروُ على الإمساك بمقبضه!

دخلت راكضاً باتجاه البيت الذي أشارت إليه الفتاة الصغيرة. كانت في الداخل امرأة بدينة متقدمة في السن نسبياً، تزعم بلغة الباسك موجهة الكلام إلى صبي هزيل عيناه كستناويتان حزينتان. انتظرت حتى انتهت المشاجرة، وأرسلت العجوز الصبي إلى المطبخ تحت وابل من الشتائم. عندئذٍ فقط، استدارت نحوي دون أن تسألني ماذا أريد. واقتادتني، تارة ترابعيني وتارة تدفعني، إلى الطابق الثاني من البيت الصغير. كانت هناك غرفة واحدة مفتوحة، فيها مكتب مزدحم بالكتب والأغراض وتماثيل مار يعقوب وتذكارات الطرق. أخذت المرأة كتاباً من المكتبة، وجلست أمام الطاولة الوحيدة في الغرفة، وتركتني واقفاً.

قالت دون مواربة:

— لا بد أنك زائر آخر لطريق مار يعقوب. عليّ تدوين اسمك في سجل الحجاج.

ذكرت لها اسمي. وأرادت أن تعرف إن كنت قد أحضرت معي الأصناف، التي تمثل شعار الحج، وهي تغطي قبر يعقوب الرسول وتسمح للحجاج بأن يتعارفوا فيما بينهم<sup>(١)</sup>. قبل مجيئي إلى إسبانيا، فصلت في البرازيل أحد الأماكن المقدسة هو: «أباريسيدا دو نورتي» واشتريت صورة لسيدة «أباريسيدا» مرسومة فوق ثلاث أصناف. أخرجتها من حقيبتي، وقدمتها للسيدة سافان.

قالت: «جم: إم». ثم عقيبت، وهي تردّ لي الأصناف: «لكنها ليست عملية كثيراً. فقد تنكسر أثناء الطريق».

(١) الأمر الوحيد الذي تركته طريق «مار يعقوب» في الثقافة الفرنسية يتجلى في المطبخ، وهو، في كل حال، يمثل مفخرة هذا البلد: «صنفة مار يعقوب» (الصنفة لون من الطعام يعدّ من لحوم الأسماك ويقدم في صنفة).



قلت:

– لن تنكسر، سأضعها على قبر يعقوب الرسول.

بدا وكأنَّ السيدة سافان لا تملك الكثير من الوقت لتخصّصه لي. قدّمت لي مفكرة صغيرة تسهل عليّ إقامتي في الأديرة الموجودة على الطريق، وألصقت طابعاً يمثل «سان جان بيبه دو بور»، مؤذنة بأنَّ رحلتي قد ابتدأت. ثم قالت لي إنني أستطيع الرحيل الآن بمباركة الرب.

سألتها:

– أين مرشدي؟

أجابت مصطنعة الدهشة، وفي عينيها يلتمع بريق ما:

– عن أي مرشد تتحدث؟

عندئذٍ، أدركتُ أن أمراً أساسياً قد فاتني القيام به، والسبب انشغالي بالوصول، والعثور على أحد يستقبلني. نسيْتُ أن أقول الكلمة القديمة التي تمثل رمز التعارف بين هؤلاء الذين انتموا، أو ينتمون إلى جمعيات «الميراث». أصلحت خطئي في الحال، وتلفّظت بالكلمة. فسارعت السيدة سافان، وانتزعت من يدي، بعنف، المفكرة التي أعطتني إياها منذ دقائق قليلة.

قالت، وهي تنتزع كدسة من الجرائد القديمة الموضوعة في أعلى صندوق مصنوع من الكرتون:

– لن تكون في حاجة إليها. طريقك ومحطاتك مرتبطة بالقرارات التي يتخذها مرشدك.

انتشلت السيدة سافان من الصندوق قبعة ورداء، كانا يبدوان قديمين، ولكن في حالة جيدة. طلبت مني أن أبقى واقفاً في منتصف الغرفة، وبدأت تصلّي بصمت. ثم وضعت الرداء على كتفي والقبعة فوق رأسي. لاحظتُ أن أصدافاً حيكت على القبعة

فضلاً عن كتفيات الرداء. تناولت المرأة، دون أن تكفّ عن الصلاة، عصا حاج مستندة إلى زاوية المكتب، ووضعتها في يدي اليمنى. وقد غُلّق في طرف العصا الطويلة كرنيب صغير للماء. وهكذا وجئتُني وسط الغرفة مرتدياً بنطال جينز قصير وقميصاً كتبت عليها عبارة: "I love Ny"، ومغطى بلباس قروسطي كان يرتديه حجاج كومبوستيلا.

اقتربت العجوز مني. بسطت يديها فوق رأسي، وقد انتابها ما يشبه الرعدة، ثم قالت:

– فليرافقك يعقوب الرسول، ويدلّك على الشيء الوحيد الذي يجدر بك اكتشافه. لا تمش بسرعة ولا تتمهل، بل احترم قوانين الطريق وضروراتها. أطلع مرشدك، حتى ولو أمرك بالقتل، أو بالتجديف، أو بالإقدام على عمل أخرق. عليك أن تقسم متعهداً الطاعة الكاملة لمرشدك.

– أقسمت.

ثم أضافت:

– إن روح الحجاج القدامى إلى كومبوستيلا سترافقك في رحلتك. والقبعة تحميك من الشمس ومن الأفكار الشريرة. والكرنيب يرذ عنك الأعداء والأعمال الشريرة. بركة الرب ومار يعقوب والعذراء مريم تكون معك، وترافقك على مدى الأيام والليالي. آمين.

بعدها، عادت المرأة إلى سابق عهدها. للممت الثياب بسرعة، ووضعتها في الصندوق من جديد، وقد بدت سيئة المزاج. كما أعادت الكرنيب والعصا إلى الركن في الغرفة. لقّنتني كلمات السر، ثم طلبت مني الرحيل سريعاً، لأن مرشدي ينتظرني على بعد كيلومتر أو اثنين من «سان جان بيبه دو بور».



قالت:

— هو يكره الأبواق. لكن بالإمكان سماعها حتى على بعد كيلومترين من الساحة، ذلك أن جبال البيرنيه مخزن لصدى الأصوات.

ومن دون أي تعليق إضافي، نزلت راجعة إلى المطبخ، لتمعن في تعذيب الصبي ذي العينين الحزینتين. عندما خرجت، سألها ماذا علي أن أفعل بسيارتي، فنصحتني بأن أترك المفاتيح عندها، لأن أحداً ما سيأتي لأخذها. ذهبت لأنتشل من صندوق السيارة حقيبة الظهر الزرقاء التي غلّق إليها كيس النوم، ووضعت، في جيبها الأكثر أماناً، صورة سيدة «أباريسيد»، والأصداق. تأبطت الحقيبة، ورجعت لأسلم مفاتيح السيارة للسيدة سافان.

— غادر المدينة سالكاً هذا الشارع حتى تصل إلى الباب الذي هناك عند آخر الأسوار. عندما تصل إلى مار يعقوب كومبوستيلا، أتّل من أجلي «السلام لك يا مريم». لطالما عجزت هذه الطريق. أما الآن، فأكتفي بأن أقرأ في أعين الحجاج الانفصال الذي ما زلت أشعر به، ولا يمكنني أن أعيشه كاملاً من جديد بسبب سني. قلّ هذا لمار يعقوب. قلّ له أيضاً إنني سألتقيه قريباً، ولكن عبر طريق أخرى أكثر استقامة وأقل إرهافاً.

تركّت المدينة الصغيرة مجتازاً الأسوار عبر باب إسبانيا. قديماً، كانت هذه الطريق المعبر المفضّل للغزاة الرومان. ومن هنا أيضاً، مرّت جيوش شارلمان ونابليون. مشيت بصمت مستمعاً إلى جوقة البواقين في البعيد. وفجأة، لدى بلوغي أنقاض إحدى القرى القريبة من «سان جان»، تملّكني انفعال شديد، واغرورقت عيناى بالدموع؛ هنا، فوق هذه الأنقاض، أدركت للمرة الأولى أن قدمي تدوسان الطريق الغريبة لمار يعقوب.

كانت تنبعث من جبال البيرنيه المحيطة بالوادي موسيقى امتزجت ألحانها بألوان الشمس الصباحية. منحني مرآها إحساساً بأنني أشاهد منظرًا طبيعيًا بات منسياً من البشر، لا أستطيع تحديده بأي شكل من الأشكال. ومع ذلك، كان هذا الإحساس غريباً وجارفاً. فزرت أن أسرع الخطى لأصل إلى المكان الذي حددته لي السيدة سافان، وحيث كان ينتظرني مرشدي. أثناء المشي، خلعتُ القميص ووضعتها في حقيبة ظهري، لأن حقالاتها آلت كتفي العاريتين. أما حذائي الرياضي القديم، فكان مناسباً تماماً لقدمي، ولم يشعرني بأي انزعاج. وبعد أربعين دقيقة من السير، وعند منعطف يحاذي صخرة ضخمة، وصلتُ إلى بئر قديمة مهجورة يجلس قربها رجل شارب الخمسين، ذو شعر أسود، وهيئة تشبه هيئة الغجر. كان يبحث عن شيء في حقيبته.

قلت في الإسبانية، وبالخجل الذي أشعر به دوماً عندما ألتقي الغرباء:

— مرحباً. لا بد أنك تنتظرني. أدعى باولو.

توقّف الرجل عن التفتيش في حقيبته، وتفحصني ملياً من رأسي إلى أخمص قدمي. كانت نظرتة باردة، ولم يبدُ مندهشاً لرؤيتي. وقد خالطني شعور غامض مماثل بأنني رأيت من قبل.

قال:

— أجل، كنت بانتظارك، لكنني لم أتوقع أنني سألتقيك بهذه السرعة. ماذا تريد؟

أربكني سؤال من يفترض به أن يرشدني إلى طريق «المجرة»، بحثاً عن سيفي.

قال الرجل:

— الأمر لا يستحقّ العناء. أستطيع أن أجده بدلاً عنك إذا شئت.  
ولكن اتّخذ قراراً، في الحال.

وجنّث هذا الحوار غريباً. ومع ذلك، وبما أنني تعهّنتُ الطاعة التامة، فقد تهيأت للردّ. إذا كان بوسعه أن ينوب عني في العثور على السيف، فهذا سيجعلني أكسب وقتاً هائلاً، وأستطيع، عندئذٍ، العودة سريعاً إلى البرازيل، إلى عائلتي وأعمالي التي شغلت أفكاري طوال الوقت. أو لعلّ في الأمر خدعة. مهما يكن، فلا حرج في الإجابة.

هممتُ أن أجيب بالموافقة. وفجأة. انطلق من ورائي صوت يقول بلغة إسبانية ذات نبرة قوية جداً:

— لا يحتاج المرء إلى تسلّق الجبال، ليعرف أنها عالية.

هذه كلمة السر. استدزّثُ ورأيت رجلاً شارف الأربعين يرتدي بنطالاً قصيراً كاكي اللون، وقميصاً بيضاء مبلّلة بالعرق. كان شعره رمادياً وقد أحرقت الشمس بشرة وجهه. تفزّس الرجل بالغجري. وأدركتُ، عندئذٍ، أنني لفرط استعجالي نسيْتُ القوانين الأكثر بدائية لحماية النفس، ورميت بنفسي، جسداً وروحاً، بين ذراعي أول مجهول صادفته في طريقي.

أجبتُه عن كلمة السر:

— المركب في أمان عندما يكون في الرفأ، لكن ليس لأجل هذا أضعت المراكب. ومع ذلك، فإن الرجل لم يشح بنظره عن الغجري ولا الغجري أشاح بنظره عن الرجل. تفزّس كلّ منهما بوجه الآخر ملياً دون خشية ولا جسارة... إلى أن رمى الغجري حقيبته أرضاً والابتسامة الساخرة تعلو وجهه، ثم رحل باتجاه «سان جان بيه دو بور».

عندما اختفى الغجري خلف الصخرة الضخمة التي انعطفت بمحاذاتها منذ دقائق قليلة، قال الواصل الجديد:

— أدعى بتروس<sup>(١)</sup>. كن أكثر حذراً في المرة المقبلة.

كانت هناك نبرة ودية في صوته لم أعدها في صوت الغجري، ولا في صوت السيدة سافان. التقط حقيبته التي رُسمت فوقها صدفة، ثم انتشل منها زجاجة من النبيذ. احتسى جرعة، ثم قدّمها لي. بعد أن شربت، سألتُه عن هوية الرجل الغجري.  
أوضح بتروس قائلاً:

— هذه الناحية الحدودية يؤمّها الكثير من اللصوص والإرهابيون الملتجئون إلى الباسك الإسباني. إن الشرطة لا تجرؤ على المجيء إلى هنا.

— ليس هذا جواباً مقنعاً. رأيكما تنظران أحكما إلى الآخر وكأنّ هناك معرفة سابقة بينكما. كما شعرت أنا أيضاً بأنني أعرفه. لذا كنت متهوراً إلى هذا الحدّ معه.

ضحك بتروس، ثم قال إن علينا متابعة السير.

أخذتُ أمتعتي ومشينا بصمت. لكن ضحكة بتروس أتاحَت لي أن أدرك أننا، كلينا، نعتقد الشيء نفسه: أننا قابلنا لتونا شيطاناً.

أوغلنا في المسير دون أن ننبس بكلمة. كانت السيدة سافان على حقّ: حتى على بعد ثلاثة كيلومترات، يمكننا دوماً سماع صوت الأبواق التي لا تكفّ عن العزف. أردت أن أطرح على بتروس أسئلة كثيرة تتعلّق بحياته وعمله وسبب وجوده هنا. كنت أعرف، مع ذلك، أن أمامنا سبعمائة كيلومتر علينا اجتيازها معاً، وأن اللحظة المناسبة، لطرح هذه الأسئلة ونيل الأجوبة عنها، لا بدّ ستأتي. لكن الغجري لم يبارح أفكاري. وأخيراً قطعتُ حبل الصمت، وقلت:

(١) في الواقع، أعلمني بتروس باسمه الحقيقي، ولكن بدافع حماية حياته الشخصية، غيّرت اسمه كما غيّرت أسماء الشخصيات الأخرى التي صادفتها على طريق «مار يعقوب».

– بتروس، أعتقد أن الغجري كان الشيطان.

– أجل، كان الشيطان.

عندما أكّد لي بتروس ذلك، أحسست بمزيج من الرهبة والعزاء.  
وأضاف بتروس.

– لكنه ليس الشيطان الذي عرفته من خلال الميراث.

الشيطان، في الميراث، هو روح ليست بالشريرة ولا بالخيرة.  
ويعتبر حارساً على معظم الأسرار التي يستطيع الإنسان فهمها، كما  
أنه مسلّط على الأشياء المادية. وبما أنه ملاك ساقط، فهو يتماهى مع  
الجنس البشري ومستعدّ دوماً لإبرام المعاهدات، وتبادل الخدمات معه.  
سألت بتروس عن الفرق بين الغجر والشياطين، بحسب الميراث،  
فأجابني وهو يضحك:

– ستلتقي شياطين آخر على الطريق وستفهم وحدك. ولكن،  
لإعطائك فكرة، حاول أن تتذكّر حوارك مع الغجري.

استعنت في ذهني الجملتين الوحيدتين اللتين تبادلتها معه. قال  
إنه ينتظرني، وأكّد لي أنه سيذهب للتفتيش عن سيفي بدلاً مني.  
عندئذٍ، أوضح لي بتروس أن هاتين العبارتين تتناسبان، تماماً،  
مع وضع سارق ضُبط بالجرم المشهود. كان يحاول أن يكسب  
الوقت لكي يتحصّر للهرب. من الممكن أن تخفي العبارتان معنى  
مستتراً أكثر عمقاً، أو لعلّهما تعكسان فعلاً أفكار الغجري.

سألته:

– أيّ من الافتراضين هو الصحيح؟

– كلاهما صحيح؛ فهذا اللص المسكين كان يدافع عن نفسه.  
وتلا على الفور الكلمات التي يجب أن تُقال لك. فكّر أنه، بتصرفه  
هذا، سيبدو ذكياً، وسيكون أداة لقوة غلبا. لو أنّه هرب ساعة

وصلتُ لا كنا نتحدث بهذا الشأن الآن. لكنّه واجهني، وقرأت في  
عينيه اسم الشيطان الذي ستلتقيه في طريقك.

كان هذا اللقاء مع الغجري بشير خير لبتروس، لأن الشيطان  
أعلن عن نفسه في وقت مبكر للغاية.

«لكن لا تشغل بالك الآن بالتفكير فيه، لأنه، كما قلّت لك،  
لن يكون الوحيد. لعلّه الأهم لكنه ليس الوحيد».

استأنفنا السير. كان النبات صحراويّاً تشكّله الجنبات المبعثرة  
هنا وهناك. لعلّ من الأفضل اتباع نصائح بتروس والاستسلام للأمور.  
من وقت إلى آخر، كان بتروس يعلّق على حدث تاريخي جرى في  
الأمّاكن التي كنا نمزّ بها؛ رأيت بيتاً نامت فيه إحدى الملكات  
عشية موتها، وكنيسة صغيرة محفورة في الصخر، هي صومعة  
عاش فيها رجل قديس يقول عنه السكان القليلون إنه قادر على  
اجتراح المعجزات.

سأل بتروس:

– المعجزات أمر هام جداً، ألا توافقني؟

شاطرته الرأي، مع أنه لم تنسّق لي في حياتي رؤية معجزة  
كبيرة. كان اكتسابي لـ «الميراث» ذهنياً للغاية. كنت أعتقد  
أنني، حين أسترّد سيفي، سأكون قادراً على تحقيق كل الأشياء  
العظيمة التي كان يقوم بها معلّمي.

«لكنها ليست معجزات بالمعنى الصحيح للكلمة، لأنها لا تغيّر  
قوانين الطبيعة. إن ما يقوم به معلّمي هو استخدام هذه القوى لـ ...»

لم أتمكن من إنهاء جملتي، لأنني لم أجد أي تفسير للأمور التي  
ينجح معلّمي في تحقيقها؛ تجسيد الأرواح، ونقل الأشياء من مكانها  
دون أن يلمسها. كما رأيته، أكثر من مرة، يفتح فسحات زرقاء  
وسط السماء الملبدة بالغيوم، في أوقات بعد الظهيرة.



عقّب بتروس قائلاً:

— لعلّه يفعل ذلك ليقنعك أنه يمسك بزمام القدرة والمعرفة.

وافقت على قوله دون اقتناع:

— ربما.

جلسنا فوق إحدى الصخور، لأن بتروس قال لي إنه يكره التدخين أثناء المشي، وإن الرئتين تتنشقان، والحالة هذه، كمية أكبر من النيكوتين مما يجعله يشعر بالغثيان.

«هذا هو السبب إذن في أن معلمك رفض إعطائك السيف؛ لأنك لا تعرف الغاية التي من أجلها يقوم بأشياء خارقة. ولأنك نسيت أن طريق المعرفة مفتوحة أمام كل الناس، وخاصة الناس العاديين. سأعلمك خلال رحلتنا، بعض التمارين والطقوس المعروفة بـ «ممارسات رام» وأي شخص قادر، في أي لحظة من حياته، أن يمارس أحد هذه التمارين على الأقل. ومن يفتش عنها بتأن ونفاذ بصيرة، يكتشفها، جميعاً ودون استثناء، في الأمثولات التي تقدمها الحياة.

«إن ممارسات رام هي بسيطة للغاية لدرجة أن الناس الذين ألفوا مثلك تعقيد الحياة، لا يولونها أي أهمية.

كان بتروس على حق. فإن يسمح الله للمتقنين وحدهم، أو للذين يمتلكون الوقت والمال لشراء الكتب الثمينة، بالوصول إلى المعرفة، فذلك يبدو ظلاماً إلهياً:

وأضاف بتروس:

— إن الطريق الحقيقية للحكمة تُعرف من أمور ثلاثة: أولاً، تضمّنها الحب الإلهي، وسأحدثك عن ذلك لاحقاً. ثانياً، تجلّيها عبر ممارسة عملية في حياتك، وإلا تسمي الحكمة غير مجدية وتصلنا كسيف لم يُشهر. وأخيراً، توفر الإمكانية لدى الجميع لاجتياز

طريق الحكمة، مثل هذه الطريق الماثلة أمامك، طريق «مار يعقوب».

مشينا طوال بعد الظهر. وعندما همت الشمس بالغروب وراء الجبال، قرّر بتروس التوقف من جديد. وكانت القمم الأكثر ارتفاعاً في جبال البيرنيه الملتفة حولنا قد ودعت آخر أضواء النهار. طلب مني بتروس أن أنظف مساحة صغيرة من التراب، وأن أركع فوقها.

قال:

«الممارسة الأولى لـ «رام» تعلّمك كيف تولد من جديد. عليك تنفيذها لمدة سبعة أيام متتالية، محاولاً أن تعيش، بطريقة مختلفة، لقاءك الأول بالعالم.

«كم كان صعباً عليك التخلّي عن كل شيء، واتخاذ القرار باجتياز طريق مار يعقوب بحثاً عن سيفك. إذا شعرت بهذه الصعوبة، فلأنك كنت أسير الماضي؛ فشلت وأضحيت تخاف من هزيمة جديدة. حصلت على شيء ما، وأمسييت تخاف أن تخسره. ومع ذلك، فإن شعوراً أقوى من كل شيء طفا على السطح؛ رغبت في استعادة سيفك، وقزرت المجازفة.

وافقت على قوله، لكنني لم أتخلص بعد من المشاغل التي ألمح إليها:

«هذا ليس مهماً. التمرين يحزرك تدريجاً من الأوزار التي خلقتها، أنت نفسك، في حياتك.

وعلمني أول ممارسة في «رام»؛ إنه تمرين البذرة.

قال بتروس:

— قم بهذا التمرين الآن.

وضعت رأسي بين ركبتي. تنفست بعمق واسترخيت. استجاب جسدي بسهولة.

## تمرين البذرة

أجث على ركبتيك، واستند إلى كاحليك، ثم انخفض حتى يلامس رأسك ركبتيك. أبسط ذراعيك إلى الخلف. أنت الآن في وضع جنيني، فاسترخ، وانس كل توتر. تنفس عميقاً وبهدوء تشعر تدريجاً أنك بذرة صغيرة يحيط بها سكون الأرض. كل شيء دافئ ولين من حولك، وسوف تستغرق في نوم هادئ.

وفجأة، ترتعش إحدى أصابعك. لا يمكن للبذرة أن تظل كما هي، يجب أن تولد. تحرك ذراعيك ببطء، وتعيد جسدك إلى وضعيته السابقة، مستنداً إلى كاحليك. عندئذ، تنهض. شيئاً فشيئاً، تستند إلى ركبتيك، وتظهرك مستقيم. تخيل، طوال هذا الوقت، أنك بذرة تحولت إلى نبتة صغيرة، تشق أديم التراب رويداً رويداً.

يحين الوقت لتشق التراب. تنهض بتمهل على الساق الأولى ثم على الأخرى، وأنت تسعى جاهداً للحفاظ على توازنك، أشبه بنبتة تصارع لتثبت في مكانها. تخيل الحقل من حولك، والشمس واللاء والرياح والعصافير، أنت بذرة نمت لتصبح نبتة. تنهض ببطء، رافعاً ذراعيك نحو السماء، ثم تمغط جسدك بقدر ما تستطيع، وكأنك تريد أن تمسك بالشمس الهائلة التي تحيط بك. يصبح جسدك أكثر تصلباً وعضلاتك مشدودة، فيما أنت تكبر وتكبر لتصبح عملاقاً. يزداد الضغط بحيث يصبح مؤلماً وغير محتمل. وحين يصير كذلك، تطلق صرخة، وتفتح عينيك.

كرز هذا التمرين سبعة أيام متتالية، ودائماً في الوقت نفسه.

— ربما استجاب لأننا مشينا كثيراً خلال النهار، وكان جسدي متعباً. أخذت أصغي إلى صوت الأرض، إنه صوت صاحب وأجش. شيئاً فشيئاً، تحولت إلى بذرة. لم أفكر بشيء... كان كل شيء قائماً، وأنا نائم في باطن الأرض. ثم فجأة، تحرك جزء مني. أراد جزء مني أن يوقظني ويحثني على الخروج، لأن هناك شيئاً ما آخر «فوق». خلتنني نائماً لكن هذا الجزء أصر، وأخذ يحرك أصابعي التي حرّكت بدورها ذراعي. ومع ذلك، لم تكن تلك أصابع ولا ذراعين، بل بذرة صغيرة تصارع للتحرر من قوة الجاذبية في الأرض، وتتجه إلى «فوق». شعرت أن جسدي استجاب لحركة ذراعي. وكل ثانية مزت بليت لي أبدية. لكن البذرة كانت بحاجة أن تولد وتكتشف ماذا يوجد «فوق». وبصعوبة فائقة، استقام رأسي، ثم جسدي. كان كل شيء بطيئاً للغاية. وكان عليّ أن أجابه القوة التي تجتذبني إلى باطن الأرض، حيث كنت مستغرقاً في نوم أبدي. لكنني نجحت، وتغلّبت، أخيراً، على هذه القوة، ونهضت. اخترقت الأرض، ووجدتني محاصراً بهذا الشيء الذي يمثل «فوق».

إنه الريف. أحسست بحرارة الشمس، وسمعت طنين الحشرات ووشوشة الساقية الجارية في البعيد. نهضت ببطء، وأنا مغمض العينين، معتقلاً، في كل لحظة، أنني سأفقد توازني وأعود إلى الأرض. ومع ذلك، فإنني كنت أنمو باطراد: ذراعي تبتعدان، وجسدي يتصلب. كنت هنا أولد من جديد، متمنياً من هذه الشمس الهائلة الساطعة، التي تطلب مني أن أنمو وأنمذ حتى أعانقها بكل أغصاني، أن تغمرني بنورها من الداخل والخارج. اجتذبت ذراعي إلى أقصى حد فالتني كل عضلات جسدي. شعرت أن ارتفاعي يبلغ ألف متر، وأنني أستطيع أن أحتضن الجبال. تمند



جسدي، تمثّد إلى أن شعرت أن الألم العضلي بات غير محتمل، فصرخت.

فتحت عيني، ورأيت بتروس أمامي يدخن مبتسماً. لم يكن ضوء النهار قد تلاشى بعد. لكنني ذهشت لاكتشافي أن الشمس لم تكن بالإشراق الذي تصوّرته. سألته هل كان يرغب أن أصف له أحاسيسي. فأجاب بالنفي:

— هذه أشياء خاصة جداً. يجب أن تحتفظ بها لنفسك. فكيف يسعني أن أحكم عليها. إنها تعنيك وحدك.

ثم أضاف أننا سننام هنا. أشعلنا ناراً صغيرة، واحتسينا ما تبقى في زجاجة النبيذ. حضّرت بعض الشطائر من «باتيه، الكبد، التي انتهيتها قبل وصولي إلى «سان جان». ذهب بتروس إلى الساقية التي تجري قرب المكان، واصطاد أسماكاً شواها على النار. ثم تمثّد كل منا في كيس النوم.

من مجمل الأحاسيس التي اعترتني في حياتي، لا أستطيع نسيان هذه الليلة الأولى التي قضيتها على طريق «مار يعقوب». كان الطقس بارداً، على الرغم من أننا في فصل الصيف. لكن طعم النبيذ الذي أحضره بتروس لا يزال في فمي. نظرت إلى السماء، ورأيت المجرة التي ترشد إلى الطريق الهائلة التي علينا اجتيازها. في ظروف مختلفة، قد يكون هذا الاتساع حافزاً للشعور بالقلق الشديد والخوف الكبير من الفشل وعدم الجدارة. ولكن، اليوم، كنت بذرة، وولدت من جديد. اكتشفت أن الحياة «فوق» أكثر جمالاً، رغم الراحة التي تمنحني إياها الأرض، ورغم النوم الذي استرسلت فيه. وأستطيع أن أولد قدر ما أشاء، حتى تصبح ذراعاي كبيرتين، لأعانق الأرض التي أتيت منها.

\*\*\*

## الخالق والخلقة

لستة أيام، مشينا عبر البيرنيه، متسلقين الجبال صعوداً ونزولاً. كان بتروس يجعلني أكرز تمرين البذرة، في كل مرة يحتجب فيها نور الشمس عن القمم الأكثر ارتفاعاً. في اليوم الثالث، بلغنا عموداً يشير إلى أن أقدامنا وطأت الأرض الإسبانية. حثّني بتروس، تبعاً، عن بعض الجوانب التي تتعلّق بحياته الخاصة. عرفت أنه إيطالي ورسام صناعي<sup>(١)</sup>. سألته هل كان منشغلاً بالأعمال التي تركها لينصرف إلى إرشاد حاج يفتش عن سيفه.

أجابني:

— أودّ أن تفهم شيئاً. أن أرشدك بهدف العثور على سيفك، فهذا أمر يعود تنفيذه إليك فقط. أنا هنا لأقودك إلى طريق «مار يعقوب»، وأعلّمك قواعد «رام». أما الطريقة التي ستطبّق من خلالها هذه القواعد للعثور على سيفك، فشان يخضك أنت وحدك.

— لم تجبني عن سؤالتي.

(١) يؤكد كولن ويلسون أن ليس هناك ما يسفّ مصادفة في هذا العالم. ومرة أخرى تسنّى لي التأكد من صحة هذا القول، بعد ظهيرة أحد الأيام، كنت أتصفح المجلات في قاعة الفندق حيث نزلت في مدريد عندما لفت انتباهي تحقيق عن جائزة أمير استورياس، لا سيما وأن الصحفي البرازيلي روبرتو مارينهو كان أحد الفائزين. نظرت بتمعن أكثر إلى صورة المادبة التي أقيمت على شرف الجائزة، فصعقتني المفاجأة، على إحدى الطاولات رأيت بتروس متأنقاً في بذلة سموكينغ، وفي أسفل الصورة قرأت التعليق التالي: «أحد أهم المصممين في أوروبا حالياً».



— عندما تسافر، تختبر عملياً فعل الولادة من جديد. تجد نفسك حيال أوضاع جديدة عليك تماماً. فالنهار يمضي ببطء، وأنت غالباً لا تفهم اللغة التي يتكلم بها الناس، كأنك تشبه طفلاً خرج من بطن أمه للتو. في هذه الشروط، تبدي اهتماماً أكبر بما يحيط بك، لأن بقاءك منوط بذلك. وتصبح إنساناً منفتحاً على الآخرين، ومتقبلاً لهم، لأنهم يشكلون عوناً لك في الحالات الصعبة. تتلقى أقل نعمة من الآلهة بفرح عظيم، وكان الأمر يتعلق بفصل من حياتك لن تتمكن من نسيانه ما حييت.

وبما أن كل شيء جديد، فأنت لا ترى في الأشياء إلا جمالها. وتقبل بسعادة أكبر على الحياة. لذلك كان الحج الديني دوماً، إحدى الطرق الأكثر موضوعية لبلوغ حالة الإشراق الروحي. فلكي تتطهر من آثامك، يجب أن تسير قدماً إلى الأمام متكيفاً مع الأوضاع الجديدة، ومتلقياً، بالمقابل، آلاف النعم التي تمنحها الحياة بسخاء لطالبيها.

— أو تعتقد أنه ينبغي لي ألا أخفي قلقي على بضعة مشاريع لم أنجزها، لأكون هنا معك؟

أنا ببتروس وجهه، وتبعث حركة رأسه: كان هناك قطيع ماعز يرعى عند منحدر الجبل. تسلقت إحدى العنزات الجريئات صخرة مرتفعة، ووقفت على طرفها المسنون النائي، تساءلت كيف بإمكانها بلوغ ذلك والرجوع سالمة إلى القطيع. ما كنت أنهي سؤالاً حتى وثبتت العنزة، واستنلت إلى نقطة ما، لم تستطع عيناها رؤيتها، لتوافي رفيقاتها. كان كل شيء في الجوار يعكس سلاماً حياً، سلاماً عالم يمكنه أن ينمو ويبعد ويعرف أنه من أجل ذلك عليه متابعة المسير باطراد. أحياناً، كان حدوث زلزال عنيف، أو هبوب عاصفة هوجاء، يشعرني بأن الطبيعة قاسية متوخشة. والآن بث أفهم أن هذه الأمور تعد من مخاطر الطريق. فالطبيعة تسافر، هي أيضاً، بحثاً عن الإشراق.

قال ببتروس:

— أنا مسرور جداً لوجودي هنا، فالعمل، الذي لم أنجزه، لم تعد له أهمية. أما الأعمال التي سأنجزها لاحقاً، فسوف تكون أفضل.

عندما قرأت مؤلفات كارلوس كاستانيدا، رغبت كثيراً في أن ألتقي الساحر الهندي العجوز دون خوان. وعندما نظرت إلى ببتروس وهو يتأمل الجبال، بدا لي أنني في حضرة أحد يشبهه وكأنه أخ له.

بعد ظهيرة اليوم السابع، وبعد أن اجتزنا غابة من الصنوبر، بلغنا أعلى ربوة. هنا، صلى شارلمان للمرة الأولى على أرض إسبانيا. وفوق نصب قديم، كتبت كلمات باللاتينية تشير إلى أن الاحتفاء بهذا الحدث، يقتضي من الزائر أن يتلو «السلام عليك أيتها الملكة». نفذنا، أنا وببتروس، ما توصي به الكتابة. ثم طلب مني ببتروس أن أقوم بتمرين البذرة للمرة الأخيرة.

كانت هناك ريح قوية، وكان الطقس شديد البرودة. اعترضت على ما طلبه مني ببتروس، متذرعاً بأن الوقت لا يزال مبكراً، إذ كانت الساعة لم تجاوز الثالثة بعد الظهر، لكنه أمرني بالأناقشة، وأن أنفذ التمرين في الحال.

جنثت على التراب وباشرت التمرين. جرى كل شيء كالعادة، إلى أن انبسطت ذراعي، وبدأت أتخيل الشمس. عندما وصلت إلى هذه النقطة، حيث الشمس الهائلة تسطع أمامي، شعرت أنني دخلت في حالة من الانخفاف. كانت مشاعري الإنسانية تنطفئ ببطء، ولم يعد الأمر مقتصر على تمرين أقوم به، بل تحولت إلى شجرة. كنت سعيداً وراضياً بذلك، في حين أن الشمس تسطع وتدور حول نفسها، وهنا ما لم يحصل من قبل. وبقيت هنا، أغصاني ممدودة، وأوراقها تعبت بها الريح. رغبت في ألا أفارق البثّة هذه الحالة...

حتى اللحظة التي مسّني فيها شيء ما، فأظلم كل شيء حولي بأقل من ثانية.

فتحت عيني من جديد. كان بتروس قد صفعني، وأمسكني من كتفي. ثم قال لي بلهجة غاضبة:

– لا تنس الأهداف التي جئت من أجلها. لا تنس أنه ما يزال أمامك الكثير لتتعلمه قبل أن تعثر على سيفك!

جلست على الأرض، وأنا أرتجف من برودة الريح. سألت:

– هل ما حدث لي يحصل دائماً؟

– غالباً، ولا سيما مع الناس الذين تستهويهم مثلك التفاصيل، فينسسون الهدف من سعيهم.

انتشل بتروس سترة من حقيبته وارتماها. وارتميت قميصاً أخرى فوق القميص التي كتب عليها: "I love Ny". لم أكن أتخيل أن الطقس سيكون بارداً إلى هذا الحد، في هذا الصيف الذي وصفته الصحف بأنه «الأكثر حرّاً منذ عقد». ومع أن سماكة القميصين قد عزلت عني بعض الهواء، فقد طلبت من بتروس أن يحث الخطى لكي أشعر بالدفع قليلاً.

كنّا نسلك طريقاً منحدرًا سهل العبور. اعتقد أن ما شعرت به من برد يُعزى إلى الطعام الخفيف جداً الذي كنّا نتناوله، والذي يعتمد، فقط، على الأسماك وثمار الغابات<sup>(١)</sup>. لكن بتروس أوضح لي أن شعورنا بالبرد راجع إلى أننا نتسلق الآن النقطة الأكثر ارتفاعاً في مسيرتنا على الجبال.

لم نكد نجتاز خمسمئة متر، ونبلغ منعطف أحد المسالك حتى تبدّل المنظر كلياً. تراءى أمامنا سهل فسيح متموج. وعلى بعد

(١) ثمار حمراء لا أعرف اسمها، ولكن رؤيتها اليوم تشعرني بالغثيان، لكثرة ما أكلت منها خلال سفري في جبال البيرنيه.

مئتي متر شمال الطريق المنحدر، كانت هناك قرية صغيرة في انتظارنا بمداخلها التي يتصاعد منها الدخان. أردت أن أسرع الخطى، لكن بتروس صنّني، ثم جلس على الأرض مشيراً عليّ بأن أحذو حذوه، وقال:

– أعتقد أن هذه هي اللحظة المثلى لأعلمك التمرين الثاني من «رام».

جلست رغماً عني. كانت رؤية المدينة الصغيرة، بمداخلها التي يتصاعد منها الدخان، قد هيّجت أشجاني. وفجأة، أدركت أن أسبوعاً قد مرّ ونحن في الريف لا نرى أحداً، ننام في العراء ونمشي طوال النهار. نفدت سجائري، وكنت مجبراً على تدخين سجائر بتروس الملفوفة، التي تثير روعي. أما الرقاد في كيس النوم وتناول السمك دون توابل، فقد كانا من أغلى الأمنيات التي راودتني عندما كنت في سن العشرين. لكن، على طريق «مار يعقوب»، بدأ الأمر وكأنه امتثال مبالغ فيه. انتظرت بفارغ الصبر أن ينتهي بتروس من لف سيجارته، ويدخنها بصمت، فيما أنا أحلم بالدفع الذي تبثّه في أوصالي كأس من النبيذ أتناولها في حانة أراها من هنا، ولا يستغرق الوصول إليها أكثر من خمس دقائق. كان بتروس يبدو هادئاً. وهو متدنّر بسترته، يسرح نظره في السهل المترامي الأطراف.

سألني بعد قليل:

– كيف وجدت اجتياز البيرنيه؟

أجبت، دون رغبة في إطالة الحديث:

– جميلاً جداً.

– لا بدّ أنه كان جميلاً جداً، لأننا قضينا ستة أيام نسير على

طريق كنّا نستطيع سلوكها في يوم واحد.

لم أصنّفه. أخذ الخارطة، وأظهر لي المسافة: سبعة كيلومترات.

يمكن سلوك هذه الدرب، بكلّ ما فيها انحدرات وعقبات، وما يستوجبه ذلك من إبطاء في المسير، خلال ست ساعات فقط.



«أنت منشغل للغاية بالعثور على سيفك، لدرجة أنك نسيت الأهم: الطريق التي يجب سلوكها لبلوغه. كنت تنظر فقط إلى شطر مدينة «كومبوستيلا» التي لا تستطيع رؤيتها من هنا، ولم تلاحظ، بالتالي، أننا مررنا بالأماكن نفسها أربع مرات أو خمس، عبر طرق مختلفة».

فيما كان بتروس يتفوه بهذا الكلام، أدركت أن قمة ايتشاشغري، وهي الأكثر ارتفاعاً في المنطقة، كانت، خلال تجوالنا، تظهر تارة إلى يميني وتارة إلى يساري. لكن، حتى ولو لاحظت ذلك، لما استطعت أيضاً التوصل إلى استنتاج أننا، هشيناً الطريق نفسها ذهاباً وإياباً مرات عدة.

«كل ما فعلته، هو أنني سلكت طرقاً مختلفة مستفيداً من المسالك التي افتتحها اللصوص وسط الغابة. رغم ذلك، فإنه كان يفترض بك أن تنتبه للأمر. لكنك سهوت عنه، لأن السير، بحد ذاته، لم يكن يهتك، بل الرغبة في الوصول».

– وافرض أنني انتبعت إلى ذلك، فما الذي كان سيحصل؟

– في جميع الأحوال، لا مفر من مسيرة الأيام السبعة، لأن تمارين «رام» تقتضي ذلك أيضاً. لكن كان باستطاعتك الاستفادة من البيرنيه بطريقة أخرى.

أنستني دهشتي البرد والقرية المائلة أمامي.

وأضاف بتروس:

– عندما نسافر سعياً وراء هدف، من المهم جداً أن نغير الطريق الاهتمام، لأن الطريق هي التي تسهل الوصول إلى الهدف، وهي التي تزيلنا غنى وعمقاً، كلما توغلنا فيها. إذا قارناً الطريق بالعلاقة الجنسية، أستطيع أن أقول لك إن المداعبات التمهيدية، هي التي تحدد قوة النشوة. والجميع يعرفون ذلك.

«وهكذا، عندما نملك هدفاً في الحياة يرجع، لنا وحدنا الأمر في جعله أفضل أو أسوأ، تبعاً للطريق التي نجتازها لبلوغه، والوسيلة التي تمكّننا من اجتيازها أيضاً. لهذا السبب، يغدو التمرين الثاني

هي «رام» مهماً جداً، وهو يقوم على اغتراف الأسرار من الأمور التي ألفنا رؤيتها كل يوم، ولكن رتابة حياتنا حالت بيننا وبين رؤيتها.

ولقّني بتروس تمرين السرعة:

«إذا كنت في المدينة منهمكاً إلى أقصى حدّ بعملك اليومي، فعليك أن تمارس هذا التمرين لمدة عشرين دقيقة فقط. لكن، بما أننا اليوم نجتاز الطريق الغربية لار يعقوب، فإننا نحتاج إلى ساعة من الوقت للوصول إلى القرية».

عاودني الشعور بالبرد الذي نسيته، ونظرْتُ إلى بتروس، وأنا محبط العزيمة. لكنه لم يولني اهتمامه: حمل حقيبته، وطفقنا نجتاز المئتي متر التي تفصلنا عن القرية ببطء مُقنط.

في البداية، لم أنظر إلا إلى الحانة، وهي مبنى قديم مؤلف من طبقتين وتعلو بابه لافتة خشبية. كنا قريبين جداً، بحيث أمكنني قراءة التاريخ الذي مضى على تشييد هذا المبنى، وهو: ١٦٥٢. كنا نتقدم، لكننا نراوح مكاننا، على ما يبدو. كان بتروس يضع قدماً تلو الأخرى ببطء شديد، وكنت أحذو حذوه. أخذت ساعتني من حقيبتي، ووضعتها في معصمي.

قال:

– هنا أسوأ، لأن الوقت لا يجري دوماً على الوتيرة نفسها.

طففت أنظر إلى ساعتني دون توقف، وفهمت أنه كان محقاً. كلما نظرت إلى الساعة، مزت الدقائق ببطء أكبر. فقزرت أن أعمل بنصيحتته، فأعدت ساعتني إلى الحقيبة. حاولت أن أكزس اهتمامي للمنظر والسهل والحجارة التي تدوسها قدماي، لكن نظري ظلّ معلقاً بالحانة المائلة قبالي، تحدوني قناعة بأننا جامدان لم نتحرك قيد أنملة. خطرت لي فكرة أن اخترع قصصاً لأسلي نفسي، لكن هذا التمرين جعلني عصبياً إلى درجة عجزت معها عن التركيز. وعندما عيل صبري، أخرجت الساعة من حقيبتي مجدداً، فوجدت أن إحدى عشرة دقيقة فقط قد مزت.



## تمرين السرعة

امشي لمدة عشرين دقيقة أبداً مرتين مغا تمشي عادة. وانتبه إلى كل التفاصيل التي تحيط بك، الناس والناظر وكل شيء.  
من الأفضل أن تقوم بهذا التمرين بعد تناول الغداء.  
عاود التمرين لمدة سبعة أيام.

www.rewity.com  
By Dalyia

قال بتروس:

— لا تجعل من هذا التمرين عذاباً، لأنه لم يوضع لهذه الغاية.  
حاول أن تستمتع بسرعة لم تألفها من قبل، لأنك، حين تمارس،  
بشكل مختلف، الحركات الروتينية التي تمارسها كل يوم،  
تتيح، بذلك، لإنسان جديد أن ينمو داخلك. والقرار، في النهاية، يعود  
إليك.

إن اللطف الذي تضمنته العبارة الأخيرة، هنا من روعي قليلاً. إذا  
كان الأمر يعود إليّ لأقرر ماذا أفعل بهذه الدقائق، فمن الأفضل أن  
أفقد من الوضع، وأغير مجراه لصالحه. تنفّست بعمق، وتحاشيت  
التفكير، أيقظت في داخلي حالة لنيدة، وكان الوقت بات شيئاً  
بعيداً، خارجاً عن دائرة اهتماماتي. وبدأت، بهدوء متزايد، أنظر إلى ما  
يحيط بي. والخيال، الذي كان مستعصياً عندما كنت متوتراً، بدأ  
يعمل لصالحه. نظرت إلى القرية المقابلة لي، واخترعت لها قصة،  
كيف بُنيت، ما أكثر الحجاج الذين مزوا من هنا، ما أسعد التعرّف  
إلى أناس غرباء، ما ألدّ تنشق هواء جبال البيرنيه القارس... في وقت  
من الأوقات، خُيل إليّ أنني أرى في عمق القرية حضوراً قوياً، غامضاً  
وحكيماً. لقد أخصب منظر السهل خيالي بالمشاهد، فرأيت الفرسان  
يخوضون المعارك، رأيت سيوفهم اللامعة في الشمس، وسمعت  
صرخات الحرب. لم تعد القرية مكاناً فقط لأدفع روحه بالنبيل،  
وجسدي بغطاء، بل صارت حدثاً تاريخياً، صنيع أناس أبطال تركوا  
كل شيء ليقوموا في هذه الأماكن القصية. كان العالم يضح من  
حولي، وأدركت أنني لم أوله من اهتمامي سوى القليل، في أغلب  
الأحيان.

عندما أدركت ذلك، كنّا أمام باب الحانة، وكان بتروس  
يدعوني للدخول، قائلاً:

— أدعوك إلى كأس نبيذ. سننام باكراً، لأنني غداً سأعزفك إلى  
مجوسي كبير.

نمت نوماً عميقاً خالياً من الأحلام. وفيما كان النهار يطلع  
وينتشر عبر الشارعين الوحيديين في قرية «رونسوفو»، قرع بتروس  
باب غرفتي. قضينا ليلتنا في الطابق الثاني من الحانة، التي كانت  
في الوقت نفسه نزلاً.

تناولنا القهوة السوداء والخبز المغمس بزيت الزيتون، وخرجنا.  
كان هناك ضباب كثيف يكتنف المكان. اكتشفت أن  
«رونسوفو» لم تكن قرية كما ظننت. وعرفت أنها كانت تشكّل  
الدير الأكثر نفوذاً في عهود الحج القديمة، وكانت تابعة مباشرة  
لأراضٍ تمتد حتى حدود «نافارا»، وقد احتفظت بخصائص تلك  
المرحلة. أما مبانيها القليلة، فتشكّل جزءاً من مدرسة دينية، في  
حين أن المبنى، ذا الطابع العلماني الوحيد، هو الخانة التي نزلنا فيها.

مشينا عبر الضباب، ودخلنا الكنيسة الجمعية. كان هناك  
عدة كهنة يقيمون رتبة القنّاس الصباحية، وهم يرتدون ثيابهم  
الكهنوتية البيضاء. لم أفهم كلمة واحدة مما يقولونه، لأن القنّاس  
كان يُقدّم في لغة الباسك. جلس بتروس على مقعد في الخلف،  
وطلب منّي أن أبقى إلى جانبه.

كانت الكنيسة ضخمة، وتحوي أعمالاً فنية لا تُقدّر قيمتها  
بثمن. شرح لي بتروس أنها بُنيت، بفضل هبات ملوك وملكات  
البرتغال وإسبانيا وفرنسا وألمانيا، في مكان عيّنه الامبراطور شارلمان  
مسبقاً. كان تمثال عذراء «رونسوفو» يعلو المذبح، وهو منحوت من  
الفضة الثقيلة. أما الوجه، فمن الخشب النفيس، ونحتت باقة الأزهار  
التي تحملها بين يديها، من الأحجار الكريمة. وقد تمكنت رائحة  
البخور والبناء القوطي والكهنة بثيابهم البيضاء وأناشيدهم، من

وضعي في حالة من الذهول تشبه الرعدة التي خبرتها خلال  
ممارسة الطقوس التي كنا نقيمها في «جمعية الميراث».

سالت بتروس متذكراً أقواله البارحة:

— والمجوسي؟

فاشار بحركة من رأسه إلى كاهن نحيل متوسط العمر،  
يرتدي نظارة ويجلس قرب الرهبان الآخرين، على مقعد طويل  
يحيط بالمذبح. إنه مجوسي وكاهن، فهل هذا يُعقل!

بعد انتهاء رتبة القنّاس، تركني بتروس جالساً وحدي على  
المقعد، واتّجه خارجاً عبر الباب نفسه الذي خرج منه الكهنة.  
وبقيت أتأمل الكنيسة. قلت في نفسي إن عليّ أن أصلي، لكنني لم  
أستطع التركيز على شيء. كانت الصور تبدو لي أسيرة ماضٍ  
غابر لن يرجع، حتى يرجع العصر الذهبي لطريق «مار يعقوب».

ظهر بتروس عند الباب، وأومأ لي أن أتبعه.

وصلنا إلى الحديقة الداخلية التي تحيط بالدير. على حافة  
السبيل، كان الكاهن ذو النظارة متأهباً للقائنا.

قال بتروس، معزفاً عني:

— أيها الأخ جوردي، هنا أحد الحجاج.

بسط لي الكاهن يده، فصافحته. وخيّم علينا صمت عميق.  
انتظرت أن يحدث شيء، لكنني لم أسمع إلا صياح الديكة في  
البعيد، وأصوات النورس الباحث عن طرائد يومية. نظر إليّ  
الكاهن، ببرودة، نظرة شبيهة بتلك التي رمقتني بها السيدة سافان  
حين تلفّظت «الكلمة القديمة».

– يا عزيزي، يبدو أنك تسَلَّقت بسرعة المراتب في «جمعية الميراث». أُجبتَه أن عمري ثمانية وثلاثون سنة، وأنني نجحت في جميع التحكيمات<sup>(١)</sup>. تابع الكاهن كلامه، وهو يحدق إليَّ بنظرة خالية من أي تعبير:

– إلّا تحكيماً واحداً، وهو الأهم. من دونه يغدو كل ما تعلمته بلا معنى.

– من أجل هذا، أحج على طريق «مار يعقوب».

– لكن هذا ليس ضماناً. تعال معي.

بقي بتروس في الحديقة، وتبعت الأب جوردي. اجتزنا أروقة اللير، ومررنا بالقرب من المكان الذي دُفن فيه أحد الملوك؛ سانشي الباسل. توقفنا داخل كنيسة صغيرة بُنيت في أقصى الأبنية الرئيسية للير «رونسوفو».

في الداخل، كانت الكنيسة فارغة؛ إلّا من طاولة وكتاب وسيف. لكنه لم يكن سيفي.

جلس الأب جوردي أمام الطاولة، وتركني واقفاً. ثم تناول بعض الأعشاب، وأحرقها ممّا عَطَّر الجو. كان الوضع يذكّرني بلقائي السيدة سافان.

قال الأب جوردي:

– بدايةً، أريد أن أنبّهك: إن طريق «مار يعقوب» هي إحدى الطرق الأربع؛ إنها طريق البستوني. وهي تجلب لك القوة، لكن هذا ليس كافياً.

– وما هي الطرق الثلاث الأخرى؟

– تعرف اثنتين منها: طريق أورشليم، وهي طريق الكُبا، أو

(١) التحكيمات هي اختبارات طقسية لا تستند فقط إلى دأب التلميذ أو إلى اجتهاده، بل تقوم، أيضاً، على العلائم التي تظهر خلال إجرائها. ويعود أصل هذه الكلمة إلى عهد المحاكمات الدينية.

الكأس التي قدّسها المسيح أثناء العشاء السري، وهذه تجلب لك القدرة على اجتراح المعجزات. وطريق روما، وهي طريق السباتي التي تتيح لك الاتصال بالعوالم الأخرى.

قلت مماًزحاً:

– تبقى، إذن، طريق الديناري، لتكتمل ألوان الورق الأربعة.

– تماماً. هذه هي الطريق السريّة التي ستسلكها ذات يوم. لكنك لن تتمكن أن تخبر أحداً عنها. والآن لندع هذا جانباً... أين هي أصدافك؟

فتحت حقيبة ظهري، وأخرجت الأصداف وصورة سيدة «أباريسيا». وضعها على الطاولة، ثمّ بسط يديه فوقها، وركّز طالباً منّي أن أفعل ما فعل. ازداد العطر المنبعث من الأعشاب قوّة. كانت أعيننا، أنا والكاهن، مفتوحة. وفجأة أدركت أن الظاهرة، التي شاهدتها في «إيتاسايا»، تتكرر: كانت الأصداف تلتمع بضوء لا ينير، ثم ازداد البريق حدة، وسمعت صوتاً غامضاً ينبعث من حنجرة الأخ جوردي، قائلاً:

– «حيث يوجد كنزكم، هناك يكون قلبكم».

كانت هذه جملة من الكتاب المقدس. وتابع الصوت:

– وحيث يوجد قلبكم، هناك يكون مهدّ المجيء الثاني للمسيح، وكما هي هذه الأصداف كذلك هو زائر طريق مار يعقوب، ليس إلا ضنفة. وإذا انكسرت الضنفة المصنوعة من الحياة، تظهر «الحياة»، التي هي الحب الإلهي.

سحب الأب جوردي يديه، وكفّت الأصداف عن اللمعان. ثم سجّل اسمي داخل كتاب موضوع على الطاولة. وخلال رحلتي على طريق «مار يعقوب»، سجّل اسمي في كتب ثلاثة هي: كتاب السيدة سافان وكتاب الأخ جوردي، وكتاب «القدرة»، حيث أكتب اسمي بنفسي.



«هذا كل شيء. بإمكانكم الذهاب. فلترافقكم بركة عذراء  
«رونسوفو، ومار يعقوب حامل السيف».

– ثم لا تنسى أنك قلت لي إنني سألتقي أحد المجوس، لكنني  
التقيت كاهناً. ما علاقة هذا بالكنيسة الكاثوليكية؟  
تلفظ بتروس بعبارة واحدة:  
– علاقة مطلقة.

\*\*\*

وأثناء عودتنا إلى المكان الذي ينتظرنا فيه بتروس، قال لي  
الكاهن، على سبيل الإيضاح:

– إن طريق «مار يعقوب» يشار إليها بنقاط صفراء مبعثرة عبر  
إسبانيا. إذا أضعتم الدرب في وقت من الأوقات، فما عليكم إلا أن  
تفتشوا عنها على الأشجار والحجارة واللافتات المنصوبة في الطريق  
ليستدل بها المسافر، وثقوا أنكم قادرون على بلوغ مكان آمن.  
– لديّ مرشد جيد.

– عليك أن تعتمد على نفسك، كي لا تكون مضطراً لقضاء  
سنة أيام ذهاباً وإياباً في وسط البيرنيه.  
كان الكاهن إذن يعرف ما حصل لي.

وافينا بتروس، ثم استأذننا بالانصراف. تركنا «رونسوفو» في  
الصباح، وقد انقشع الضباب تماماً. كانت الطريق تمتد أمامنا  
مستقيمة مستوية. ورحت أفتش عن العلامات الصفراء التي حثّني  
عنها الأب جوردي. كانت حقيبة ظهري أثقل، لأنني اشتريت  
زجاجة خمر من الحانة، مع أن بتروس قال لي إن هذا ليس  
ضرورياً؛ لأننا، ابتلاءً من «رونسوفو»، سنجتاز مئات القرى، ولن  
نضطر إلى النوم في العراء إلا لماماً.

– بتروس، حثّني جوردي عن المجيء الثاني للمسيح، وكأنّ هذا  
الأمر حدث فعلاً.

– ويحدث دائماً. هذا هو سر السيف.

سألت العجوز، إذ لاحظت رغبته في الكلام:

— لماذا اغتيل الحب هنا؟

— منذ قرون، كانت هناك أميرة تحج على طريق «مار يعقوب»، وهي فيليسي داكتيان. قزرت أن تتخلى عن كل شيء، وتقيم هنا لدى رجوعها من كومبوستيلا. كانت تجسداً حياً للحب، لأنها تقاسمت ثروتها مع الفقراء، واعتنت بالمرضى.

أشعل بتروس إحدى سجنائه الفظيعة الملقوفة. لكنني لاحظت أنه كان يولي القصة اهتمامه، رغم مظهره اللامبالي.

أضاف العجوز:

— عنلنذ، أوفد والدها أخاها الدوق غوبرمو لاسترجاعها، فرفضت. ولما ينس الدوق من الأمر، طعنها بخنجر في الكنيسة الصغيرة التي تراها هناك، والتي بنتها بيديها الاثنتين، لتعتني بالفقراء وتمجد الله.

عندما رجع الدوق إلى بلاده أدرك فعلته، فذهب إلى روما ليطلب المغفرة من البابا، الذي أجبره على أن يقوم بالحج إلى كومبوستيلا، تكفيراً عن ذنبه. عنلنذ، حصل أمر غريب: لدى مروره من هنا، أحس بالاندفاع نفسه، وقزر الإقامة في الكنيسة الصغيرة التي بنتها أخته، ليعتني بالفقراء حتى آخر أيام حياته الطويلة.

قال بتروس وهو يضحك:

— إنه قانون العودة.

لم يفهم المزارع تعقيب بتروس. لكنني كنت أدرك تماماً ما كان يرمي إليه. أثناء تجوالنا الطويل، أجرينا نقاشات لاهوتية مطوّلة عن العلاقة التي تربط الله بالبشر، قلت له إن العلاقة بالله موجودة في «جمعية الميراث»، لكنها مختلفة تماماً عن الشكل الذي اتخذته خلال رحلتنا على طريق «مار يعقوب». فالكهنة

## القسوة

هنا، في هذا المكان بالذات، اغتيل الحب، قالها مزارع عجوز، وهو يشير إلى كنيسة صغيرة محفورة في الصخر.

مشينا خمسة أيام متتالية، يقتصر عملنا على الأكل والنوم. بقي بتروس متحفّظاً عن حياته الخاصة، لكنه بدا كثير الاهتمام بالبرازيل وبعملي. قال إنه يحب بلادي كثيراً، لا سيما وأن صورته مرتبطة في ذهنه بصورة المسيح الفادي «كوركو قادو» التي تمثله باسطاً ذراعيه وليس معذباً فوق الصليب. كان يريد أن يعرف كل شيء عن البرازيل. وكان يسألني مع كل خطوة، عما إذا كانت النسوة هناك جميلات كالنساء هنا. كانت الحرارة، خلال النهار، تغدو غير محتملة، وشكا الناس، في كل الحانات والقرى التي كنّا نصل إليها، شدة الحر والجفاف. بدأنا نتوقف عن المشي بين الساعة الثانية والرابعة بعد الظهر، أي في الوقت الذي يرتفع فيه حرّ الهاجرة إلى أوجه، متبعين العادة الإسبانية في الخلود إلى القيلولة.

بعد الظهيرة، وفيما كنا نرتاح في بستان زيتون، أقبل مزارع عجوز باتجاهنا، وقدم إلينا شيئاً من الخمر، رغم الحر الشديد، فتلك عادة متأصلة منذ قرون من عادات السكان في هذه الأصقاع المعزولة من الأرض.



المجوس، والغجر الذين صاروا شياطين، والقديسون الذين يجتريحون المعجزات، بدا لي أنهم يعودون إلى زمن غابر، ويرتبطون ارتباطاً وثيقاً بالمسيحية التقليدية، وأنهم بعيدون من السحر والنشوة التي تثيرهما «طقوس الميراث». كان بتروس يردّ على مداخلاتي، قائلاً: إن طريق مار يعقوب طريق يستطيع الجميع عبورها، وليست حكراً على أحد. وبما أنها كذلك، فهي تقود حتماً إلى الله.

فقال بتروس:

– أنت تؤمن بوجود الله وأنا أيضاً. فאלله، إذن، موجود بنظرنا. لكن إذا كان هناك من لا يؤمن به، فهذا لا يعني أن الله كفّ عن الوجود. كما أن هذا لا يعني أن الإنسان، الذي لا يؤمن، قد أخطأ وضلّ.

– إن حدود الله تنتهي إذن عند رغبة الإنسان وقدرته؟

– كان لديّ صديق يظلّ ثملاً، لكنه كان يتلو كل مساء «السلام عليك يا مريم، ثلاث مرات، لأن أمه عودته منذ الطفولة تلاوتها. كان يعود إلى البيت ثملاً فاقداً وعيه. ورغم ذلك، ورغم انعدام إيمانه، فإنه يتلو صلاته دائماً. بعد وفاته، وخلال طقس كنا نقيم في «الميراث»، سألت روح الأقدمين عن مكان وجوده، فأجابني الروح أنه بخير، وأنه محاط بالنور. لم يكن مؤمناً في حياته، انحصر جهده فقط في تلاوة الصلوات الثلاث بطريقة آلية إذ كان يتلوها على سبيل الواجب. ومع ذلك، فإن هذا الجهد قد خلّصه.

«تجلّى الله في كهوف الأقدمين وفي الرعود. وبعد أن اكتشف الإنسان أن الرعود ظاهرة طبيعية، سكن الله بعض الحيوانات والغابات المقدسة. وفي عصور ما قبل الميلاد، لم يتواجد الله إلا في سراديب الأموات الكائنة داخل المدن الكبيرة. لكن، طوال هذا الوقت، لم يتوان الله عن أن يغمر قلب الإنسان متخذاً شكل الحب.

«في أيامنا هذه، غدا الله، مفهوماً شبه مثبت علمياً. لكن على هذا المستوى أيضاً، تراجعت المفاهيم التاريخية إلى الوراء، وأصبح كل

شيء يبدأ من جديد. إنه قانون العودة. عندما استشهد الأخ جودري بجملة من السيد المسيح تقول: «حيث يكون قلبكم، هناك يكون كنزكم»، كان يشير إلى هنا بالضبط. فحيثما ترغب برؤية وجه الله تزه. وإذا لم تكن تريد رؤيته، فليس لهذا أهمية. المهم أن يكون جهدك صادقاً. عندما بنت فيليسي داكتيان الكنيسة وراحت تساعد الفقراء، نسيّث الله الفاتيكان، وجشنته، على طريقته الأكثر بدائية وحكمة في الوقت نفسه، من خلال الحب. وهنا، كان المزارع محقاً، عندما قال إن الحب قد اغتيل.

كان المزارع غير قادر على متابعة حوارنا، وبنا منزعجاً.

أضاف بتروس:

– رجع قانون العودة إلى الظهور، عندما رأى أخوها نفسه مجبراً على إتمام العمل الذي كان قد عرقله. ذلك أن كل شيء مسموح إلا أن تعرقل تجلياً للحب. وعندما يحدث ذلك، فعلى كل من حاول الهدم، المباشرة بإعادة البناء.

قلت لبتروس إن قانون العودة، الذي يتحدث عنه، يعني في بلادي ظهور التشوهات والأمراض التي تصيب البشر، وهي شكل من أشكال العقاب على أخطاء ارتكبتها الإنسان خلال تجسّسات سابقة.

احتجّ بتروس قائلاً:

– هنا سخف. الله ليس انتقاماً. الله محبة. وعقابه الوحيد يقوم على إرغام من عرقل عمل الحب بإعادة البناء.

اعتذر رارع، قائلاً إن الوقت قد تأخر، وإنه يفترض به العودة إلى عمله. ورأى بتروس أن هذه الحجة جيدة أيضاً لنتابع سيرنا.

قال، أثناء اجتيازنا بستان الزيتون:

– على سبيل الختام، أستطيع القول إن الله موجود في كل ما يحيط بنا. ويجب أن نستشعر وجوده، ونعيشه. أحاول هنا أن أجعل



من وجوده مسألة منطقية لكي تفهم. تابع تميزنك على المشي البطيء وستعي حضوره أكثر فأكثر.

بعد يومين، صعدنا جبلاً يدعى «قمة الغفران». ددنا اجتيازنا الجبل بضع ساعات، وعندما وصلنا إلى القمة، رأيت مشهداً صدمني: كان جماعة من السياح يتسلقون في الشمس، وهم يشربون البيرة، وصوت الراديو ينبعث صاخباً من سياراتهم. كانوا قد سلكوا درباً ضيقة تقود إلى الأعالي.

قال بتروس:

— هكنا إذن. وكنت تعتقد أنك ستلتقي هنا أحد المحاربين في مسرحية «السيد»، متاهباً لصد الهجوم الوشيك للمغاربة؟

أثناء نزولنا، قمت، لآخر مرة، بتمرين السرعة. ووجدنا أنفسنا، من جديد، قبالة سهل فسيح محفوف بالتلال الزرقاء تكسوه النباتات الصغيرة التي أبيضها الجفاف. لم تكن هناك أشجار، بل طريق حجرية وبعض الأشواك.

عند انتهاء التمرين، سألني بتروس عن عملي. وأدركت أنني لم أفكر فيه منذ وقت طويل. تلاشى من ذاكرتي، تماماً، القلق على أعمالي غير المنجزة هناك، وعلى كل ما تخلّيت عنه. تذكرته هذا المساء، ولم أعلق أهمية كبيرة على الأمر. كنت مسروراً لوجودي على طريق «مار يعقوب».

قال بتروس مماًزحاً، بعد أن أعلمته حقيقة مشاعري:

— قليلاً، وتتفوق على فيليسي داكتيان!

ثم توقف، وطلب مني أن أضع حقيبتي أرضاً:

— أنظر من حولك، وثبت نظرك على نقطة تختارها.

فاخترت صليب إحدى الكنائس التي لمحتها في البعيد.

— اجعل نظرك ثابتاً على هذه النقطة، وحاول التركيز على ما

أقوله لك. لا تشرذ، حتى ولم تشعر أن شيئاً ما سيتحول. افعل ما أقوله لك.

وقفت مسترخياً، وثبتت ناظري على قبّة الجرس، فيما كان بتروس واقفاً خلفي، واضعاً إصبعه على أسفل رقبتني.

— إن الطريق، التي تسلكها الآن، هي طريق القدرة، ولن تتلقن إلا تمارين القدرة. والسفر، الذي كان في البداية عذاباً لأنك لا تريد إلا الوصول، بدأ يتحول إلى متعة، متعة السعي والمغامرة. هذا هو الغذاء الحقيقي لأحلامنا.

«لا يستطيع الإنسان أن يكف عن الحلم. الحلم هو غذاء الروح، كما أن الطعام غذاء الجسد. وغالباً ما تخيب أحلامنا، وتحبط رغباتنا خلال مسيرة حياتنا. لكن هذا الأمر يجب ألا يمنعنا من الاستمرار في الحلم، وإلا ماتت الروح فينا، وعجز الحب الإلهي عن اختراقها. لقد أهرق الدم الكثير في الريف الممتد أمام ناظريك. هنا جرت المعارك الأكثر دموية لإحراز النصر في معارك الفتح. وليس مهماً مَنْ كان على حق، أو مَنْ كان يمسك بزمام الحقيقة. المهم أن نعرف أن كلا الطرفين كان يخوض «الجهاد الحسن».

إننا نلتزم «الجهاد الحسن»، لأن قلوبنا تنشد ذلك. في أيام البطولة وفي زمن الفرسان الجوالين، كان الأمر سهلاً: هناك أراضٍ يجب غزوها، وأشياء كثيرة يجب تحقيقها. اليوم، تغيّر العالم، وانتقلت ساحات «الجهاد الحسن» إلى داخل نفوسنا.

إن «الجهاد الحسن» هو الذي نخوضه باسم أحلامنا. عندما نكون شباباً، تتفجر أحلامنا في داخلنا بكلّ عزيمتها، ولا تنقصنا الشجاعة إطلاقاً. لكننا لم نتعلم بعد كيفية النضال. وحين نخلص إلى تعلمها بعد جهود مضنية، نكون قد فقدنا الطاقة على الكفاح. عندئذ، نرتد على أنفسنا، ونصبح ألد أعدائنا. نتذرع قائلين إن أحلامنا طفولية وسهلة التحقيق، أو إنها ثمرة جهلنا لحقائق الحياة. نقتل أحلامنا، لأننا نخاف من خوض «الجهاد الحسن».

كان ضغط إصبع بتروس على رقبتني يزداد حدة. خيل إليّ أنّ قبة جرس الكنيسة أخذت تتغير وأن حدود الصليب تحولت إلى

رجل بأجنحة، إلى ملاك. طرفت بعيني، فرجع الصليب إلى سابق عهده.

أضاف بتروس:

— إن العارض الأول، الذي يتسم به قتل الأحلام، هو التذرع بعدم توفر الوقت. فالناس الأكثر انشغالاً، الذين رأيتهم في حياتي، كانوا يملكون الوقت لكل شيء. وكان الذين لا يفعلون شيئاً تعبين دائماً، غير آبهين للعمل القليل الذي ينجزون، ويتذمرون دائماً من قصر النهار. هذا لأنهم يخافون، في الواقع، من خوض «الجهاد الحسن».

أما العارض الثاني لموت أحلامنا، فهو اليقين الثابت الذي توصلنا إليه أو اعتقدناه. نحن نرفض النظر إلى الحياة بوصفها مغامرة كبرى لا حدود لها، ونقنع أنفسنا أننا متعقلون وعادلون ومستقيمون في القليل الذي ننتظره من الحياة. ننظر أبعد من أسوار حياتنا اليومية، ونكاد نسمع صوت الرماح التي تتكسر، ونشتم رائحة العرق، ونلمح الغبار، ونشاهد السقطات الكبيرة ونظرات المحاربين المتشوقين إلى إحراز النصر. لكننا لا نستطيع أبداً أن نفهم معنى البهجة. تلك البهجة العظيمة التي يحملها المحارب في قلبه، لأن الانتصار لم يعد يهمه، ولا الانكسار. المهم خوض «الجهاد الحسن».

وأخيراً، يتمثل العارض الثالث لموت أحلامنا بالراحة والطمأنينة. تصبح الحياة شبيهة ببعد ظهر يوم أحد؛ لا تطلب منا شيء الكثير، ولا تفرض علينا أكثر مما نستطيع أن نعطيه. نفكر، عندئذ، أننا ناضجون، وأنها وضعنا جانباً نزوات الطفولة، وتوصلنا إلى تحقيق ذواتنا على الصعيد الشخصي والمهني. نصاب بالدهشة إذا سمعنا أحد أترابنا يقول إنه يحب هذا الشيء أو ذاك في الحياة. لكن، في دخيلتنا، ندرك فداحة ما حصل؛ نعرف أننا تخلينا عن النضال من أجل أحلامنا، وعن خوض «الجهاد الحسن».

كانت قبة جرس الكنيسة تتغير في كل لحظة، لتتحول إلى

ملاك باسط جناحيه. عبثاً، طرفت بعيني، لكنّ الشهد لم يتغير. حاولت أن أقول ذلك لبتروس، لكنني شعرت أنه لم ينته بعد من كلامه.

أضاف بتروس، بعد توقف قصير:

— عندما نتخلى عن أحلامنا لصالح السلام والراحة، نبلغ مرحلة قصيرة من السكينة. لكن الأحلام الميتة تواصل تعقنها فينا، وإفساد جونا كله. نصبح قساة حيال هؤلاء الذين يحيطون بنا، ثم ترتد هذه القسوة في النهاية على نفوسنا. عندئذ، تبدأ العنابات والمهانات. ويصبح ما أردنا تجنبه في القتال، أي الخيبة والفشل، الإرث الوحيد لجبانتنا. وذات يوم، تجعل الأحلام الميتة المتعقنة جونا خانقاً، فنتمنى الموت، الموت الذي يحزرننا من قناعاتنا، ومن هذا السلام المرعب الشبيه بسلام ما بعد ظهيرة أيام الأحد.

كنت متأكداً أن ما أراه أمامي ملاك. ولم أعد أستطيع متابعة ما يقوله بتروس، لا بد أنه لاحظ ذلك، فرفع إصبعه عن رقبتني وسكت. بقيت صورة الملاك فترة وجيزة، ثم اختفت ليحل محلها من جليد جرس الكنيسة.

بقينا صامتين بضع دقائق. لفّ بتروس سيجارة وراح يدخن. انتشلت من حقيقتي زجاجة النبيذ، واحتسيت جرعة. كان النبيذ ساخناً، لكنه احتفظ بنكهته.

سألني:

— ماذا رأيت؟

أخبرته قصة الملاك. وقلت له إن الصورة كانت تختفي في البداية ما إن أطرف بعيني.

«أنت أيضاً عليك تعلم خوض «الجهاد الحسن». تعلّمت تقبّل المغامرات والتحذيات التي تواجهنا بها الحياة، لكنك تستمر في إنكار الخارق».

أخذ بتروس من حقيبته شيئاً صغيراً، وأعطاني إياه. كان دبوساً ذهبياً؛

– هنا هدية من جدي. في جمعية «رام»، يمتلك جميع القدامى دبابيس كهنا، ونحن ندعوه «ذروة القسوة». عندما رأيت الملاك يظهر عند قبة الجرس، أدت إنكار ما رأيته، لأن ذلك لم يكن شيئاً تالفه، ولأنه من ضمن مفهومك للعالم. إن الكنائس هي الكنائس، ولا يمكن أن تحدث الرؤى إلا في لحظات الانخراط، إثر ممارسة طقوس «الميراث».

أحبته أن الرؤيا تمت تحت تأثير الضغط الذي يمارسه إصبعه على رقبتني؛

– هنا صحيح، لكنه لا يغير شيئاً. المهم أنك رفضت الرؤيا. لا بد أن فيليسي شاهدت رؤيا مماثلة، وقزرت وضع حياتها على المحك بسبب رؤياها. وكانت النتيجة أنها حوّلت عملها إلى حب. كما حصل الشيء نفسه لأخيها، وهو يحصل للجميع، وكل يوم: نرى دائماً الطريق المثلى التي يجب سلوكها، لكننا نمشي في الطريق التي ألفناها.

تابع بتروس السير، ولحقته به. كانت أشعة الشمس تعكس ذهب الدبوس الذي أحمله في يدي. ثم قال:

– إن الطريقة الوحيدة لإنقاذ أحلامنا هي أن نكون كرماء تجاه أنفسنا؛ يجب التعامل بصرامة مع أي محاولة نقوم بها، لعاقبة ذواتنا مهما تكن بسيطة أو تافهة. ولكي نعرف متى نصبح قساة مع أنفسنا، علينا أن نحول أدنى ظهور لألم روحي، كمثال الشعور بالذنب والندم والتردد، إلى ألم جسدي. وعندما نجعل من الألم الروحي ألماً جسدياً، نستطيع أن نعرف مدى الأذى الذي يلحقه بنا. وعلمني بتروس «تمرين العقاب الأليم». قال:

– في ما مضى، كنّا نستعمل دبوساً من ذهب. أما اليوم، فالأمور تغيرت، كما تتغير المناظر على طريق «مار يعقوب».

## تمرين العقاب الأليم

كلّما خطرت لك فكرة تؤذي: حسد أو شفقة على الذات، عذاب حب أو طمع أو حقد، افعل ما يلي:

اغرز ظفر السبابة في جذر ظفر الإبهام، حتى يصبح الألم حاداً. احصر تفكيرك في الألم، فهو يعكس، في الحقل الجسدي، العذاب الذي تعانيه على الصعيد الروحي. لا توقف ضغط إصبعك، إلا عندما تخرج الفكرة من روحك.

كّرر هذا التمرين مرات عدّة، ما دمت تجد ذلك ضرورياً. لا تتوقف حتى تغادر الفكرة. ربما عاودك الألم على فترات طويلة، لكن سرعان ما يختفي بعدها، شرط ألا تنسى القيام بهذا التمرين، كلّما ألمت الفكرة من جديد.



كان بطروس على حق. إنَّ رؤية السهل من الأسفل تجعله شبيهاً  
بسلسلة من الربوات.

قال:

— فكر بشيء قاس فعلته اليوم ضدَّ نفسك، وقم بالتمارين.  
لم أستطع تذكر أي شيء.

قال بطروس:

— الأمر هكنا دائماً. لا ننجح بأن نكون أسخياء مع أنفسنا، إلا  
في اللحظات النادرة التي نحتاج فيها إلى القسوة فعلاً.

وفجأة، تذكرت أنني استسخت ارتقاء «قمة الغفران»، وتحمل  
مشقة الصعود، فيما وجد هؤلاء السياح طريقاً سهلاً للقيام بذلك.  
أدركت أن ذلك لم يكن صحيحاً، وأنني كنت قاسياً مع نفسي،  
لأن السياح يبحثون عن الشمس، أما أنا، فعن سيفي. لم أكن أبله،  
لكنني شعرت بأنني كذلك. فغرزت عميقاً ظفر سبابتي في جذر  
ظفر إبهامي، وشعرت بالم جسدي حاذ. وفيما كنت أركز على  
الألم، اختفى شعوري بالبلاهة.

قلت ذلك لبطروس، فضحك دون تعليق.

عند المساء، نزلنا في فندق رحب في القرية التي لمحت فيها  
الكنيسة من بعيد. وبعد العشاء، قزرنا القيام برحلة صغيرة لمعالجة  
التخمة التي تعرّض لها جهازنا الهضمي.

قال بطروس:

— بين جميع الوسائل التي وجدها الإنسان لإيذاء نفسه، يبقى  
الحب أسوأ وسيلة. فنحن نتعذب دائماً بسبب واحد لا يحبنا، أو  
هجرنا، أو يهّم بأن يهجرنا. فإذا كنا غير متزوجين، فذلك لأننا لم  
نهتد إلى من يحبنا، وإذا كنا متزوجين، نحول الزواج إلى عبودية.  
هذا أمر فظيع.

وصلنا أمام الساحة الصغيرة، حيث شيدت الكنيسة التي رأيتهما  
من بعيد. حاولت رؤية الملاك لكنني لم أفلح.

أخذ بطروس يراقب الصليب المعلق فوق القبة. اعتقدت أنه رأى  
الملاك هو أيضاً. لكن لا.

تابع كلامه:

— عندما انحدر ابن الآب من السماء إلى الأرض، حمل معه الحب.  
لكن، بما أن البشرية لا تفهم الحب إلا عذاباً وتضحية، فقد انتهى  
الأمر بنا إلى صليبه. لولا ذلك، لما آمن به أحد، لأن الناس ألفوا العذاب  
في كل يوم، بسبب أهوائهم بالذات.

جلسنا على حافة الجدار، وتابعنا النظر إلى الكنيسة.

مرة أخرى، قطع بطروس حبل الصمت:

— هل تعرف ما معنى بار آباء، يا باولو؟ «بار، يعني الابن، وآباء،  
يعني الآب.

حنق بطروس إلى الصليب المائل فوق الجرس. التمعت عيناه،  
وشعرت أن شيئاً ما قد تملّكه، ربّما كان هذا الحب الذي طالما  
تحنّث عنه، والذي لم أكن أتوصل إلى فهمه.

قال متعجباً، وصدى صوته يملأ الساحة الفارغة:

— ما أعمق الحكمة التي تجسدها رسوم المجد الإلهي. عندما  
طلب بيلاطوس من الشعب أن يختار، لم يترك له في الحقيقة أي  
خيار. قدّم إليهم رجلاً مجلّوناً محطّماً، ورأساً آخر مرفوعاً، هو رأس  
الثوري «بار آباء». كان بيلاطوس عارفاً أن الشعب سيحكم على  
الأضعف بالموت، لكي يُثبت حبه.

وختم قائلاً:

— ومع ذلك، وأيّاً يكن الخيار، فإن ابن الآب كان مصيره  
الصلب.

\*\*\*

أن يتسنى له تحقيق رغبته. وحصل الأمر نفسه لي، فقررت أن أغرز ظفر السبابة في جذر ظفر الإبهام، وبقوة. كان جمال تلك اللحظة يحول دون أن نرتكب أقل سوء بحق أنفسنا.

كان العشاء يتألف من حساء الخضر والخبز والسّمك والنبيد. رفع الجميع الصلاة، وشاركنا فيها. وعندما انصرفنا إلى الأكل، تلا أحد الرهبان، بصوت رتيب، مقطعاً من رسالة بولس الرسول:

«اختار الله جهال العالم ليخزي الحكماء، واختار الله ضعفاء العالم ليخزي الأقوياء... نحن جهال من أجل المسيح... صرنا كأقذار العالم ووسخ كل شيء إلى الآن... لأن ملكوت الله ليس بكلام بل بقوة.. ظلّ تانيب مار بولس لأهل كورنثوس مدوياً في أرجاء القاعة ذات الجدران العارية، طوال الوقت الذي استغرقه تناول الطعام.

في صباح اليوم التالي، دخلنا «بوينتي لارينا»، ونحن نتحدث بشأن زيارتنا القصيرة للرهبان مساء أمس. اعترفت لبتروس أنني دخنت بالسر في الغرفة، مع أنني كدت أموت خوفاً من أن يشتّم أحد رائحة التبغ. ضحك، وفهمت أنه كان حرياً به أن يفعل كما فعلت.

قال:

— مار يوحنا العمدان انكفاً إلى الصحراء، لكن يسوع وافى الخطاة ولم يكفّ عن السفر. وأنا أفضل هنا.

أجل، هذا صحيح. فعلى الفترة القصيرة التي قضاها السيد المسيح في الصحراء، فقد عاش وسط البشر.

«إن إحدى عجائبه الأولى لم تقتصر على تخليص روح أو شفاء مريض أو طرد شيطان، بل على تحويل الماء خمراً ممتازة خلال عرس قانا الجليل، لأن رب المنزل لم يعد لديه ما يقدمه من شراب.

## «الرسول»

«هنا، كل الطرق المؤدية إلى «مار يعقوب» تختصرها طريق واحدة..

كانت هذه العبارة مكتوبة على قاعدة تمثال يصور حاجاً في زي قروسطي؛ يعتمر قبعة مثلثة القرون، ويرتدي ثوباً وأصداًفاً، ويحمل في يده العصا التي غلق فيها الكرنيب. كان مرآه يذكر بمرحلة غابرة، نحاول أنا وبتروس إعادة إحيائها.

وصلنا إلى «بوينتي لارينا» في الصباح الباكر، بعد أن قضينا ليلتنا في أحد الأديرة الكثيرة المنتشرة على طول الطريق. استقبلنا الراهب البوّاب، وحذّرنا من التفوّه بكلمة واحدة في حرم الدير. ثم قادنا راهب آخر إلى غرفنا المجهزة فقط بما هو ضروري: سرير خشن وشراشف بالية لكن نظيفة، وجزّة ماء، وطشت للاغتسال. لم يكن هناك لا حنفية ولا ماء ساخن. وكان موعد تناول الطعام مكتوباً خلف الباب.

وفي الموعد المحدد، نزلنا إلى قاعة الطعام. كان الرهبان، الذين نذروا الصمت، يتواصلون، فقط، عبر النظرات. شعرت أن أعينهم أكثر بريقاً من بريق عيون الناس العاديين. قدّم الطعام، في وقت مبكر من المساء، على طاولات مستطيلة، وجلسنا إلى جانب الرهبان الذين يرتدون السّوح. من مكانه، أشار لي بتروس، وفهمت أن لديه رغبة جامحة في إشعال سيجارة. لكن يبدو أن الليل سيمضي دون

وعند هذه الكلمات، جمد بتروس في مكانه. كانت حركته عنيفة جداً لدرجة أنني، أنا أيضاً، توقفت، وقد انشغل بالي. وجدنا أنفسنا أمام الجسر الذي منح اسمه للمدينة الصغيرة. لكن بتروس لم يكن ينظر شطر الطريق التي كان علينا سلوكها، بل يحدق إلى صبيين يلهوان بكرة من الكاوتشوك على ضفة النهر. كانا في حوالى الثامنة أو العاشرة من العمر. لم يكن يبدو عليهما أنهما تنبها لوجودنا. وبدل أن يجتاز بتروس الجسر، انحدر من تلة المرج، واتجه إلى الصبيين. وأنا، كالعادة، تبعته دون أن أطرح أي سؤال.

ظل الصبيان متجاهلين وجودنا. جلس بتروس، وراقبهما، وهما يلعبان، حتى اللحظة التي سقطت فيها الكرة قربهما، فامسكها بحركة عنيفة وقذفها باتجاهي. التقطتها في طيراتها، منتظراً ما سيحدث.

اقترب الصبي الذي بدا أكبر سنّاً مني، وكان أول ما تبادر إلى ذهني أن أعيد له الكرة. لكن تصدّف بتروس كان من الغرابة، بحيث رغبت في أن أعرف إلى ما ستؤول الأمور.

قال الصبي:

– أعطني الكرة يا سيد.

نظرت إلى هذا الوجه الصغير الذي يقف على بعد مترين مني، وشعرت بألفة تنبعث منه، وراودني الشعور نفسه عندما التقيت الغجري.

كزر الصبي طلبه ميزات عدة. وعندما تيقن أنني لا أريد الاستجابة لطلبه، انحنى والتقط حجراً.

أصرّ قائلاً:

– أعطني الكرة، وإلا ضربتك بالحجر.

كان بتروس والصبي الآخر يراقبانني بصمت.

أثارتني عدائية الصبي وأجبت:

– إرم الحجر. إذا رميتني به، فسوف أمسك بك، وأضربك ضرباً مبرحاً.

شعرت أن بتروس يتنهد ارتياحاً. كان شيء ما يريد الخروج من أعماق روحي. كان لدي شعور جارف بأنني عشت هذا المشهد من قبل.

ألقيت الذعر في قلب الصبي، فرمى الحجر أرضاً، وراح يبحث عن وسيلة أخرى:

– هنا في «بوينتي لارينا»، مذخر، كان يملكه حاج ثري جداً. وأنا أرى، من أصدافكما وحقيبتني ظهركما، أنكما، أنتما أيضاً، حاجان. فإذا أعثت لي الكرة، فسوف أعطيك هذا المذخر المدفون في الرمل على ضفة النهر.

أجبت، دون أن أكون على قناعة بما أقوله:

– أريد الكرة.

في الواقع، كنت أريد المذخر. بدا على الطفل، وكأنه يقول الحقيقة. لكن، لعلّ بتروس في حاجة إلى هذه الكرة لسبب أو لآخر، ولا يمكنني أن أخيب أمله. فهو مرشدي.

قال الصبي، وهو على وشك البكاء:

– أيها السيد أنت لست في حاجة إلى هذه الكرة. أنت قوي، تسافر وتعرف العالم كله. أما أنا، فلا أعرف أبعد من حدود هذا النهر، وليس لي ما ألهو به سوى هذه الكرة، أعثها لي من فضلك.

نفذت كلمات الصبي إلى أعماقي. لكن الجوّ الأليف والغريب، في آن، ثم الشعور بأنني عشت هذه الحالة، أو قرأت عنها، قد دفعاني إلى مقاومة الطفل مزّة أخرى.



وقلت:

– لا، أنا في حاجة إلى هذه الكرة، سأعطيك مالاً للتشترى أجمل منها. أمّا هذه، فهي لي.

حين قلت ذلك، بدا لي وكأن الزمن قد توقف. وتحوّل المشهد من حولي دون أن يضطر بتروس إلى الضغط بإصبعه على رقبتني. خُيل إلي أنني انتقلت إلى صحراء شاسعة مخيفة من الرماد. لم يكن هناك لا بتروس ولا الصبي الآخر. فقط أنا، والغلام في مواجهتي، بيد أنه كان يبدو أكبر سناً، وملامحه أليفة وقريبة، لكن في عينيه يلتمع بريق جعلني أخاف.

لم تدم الرؤيا إلا لحظة واحدة؛ رجعت، بعدها، إلى «بوينتي لارينا»، المكان الذي تلتقي عنده جميع الطرقات المتفرعة «من أنحاء أوروبا، والمؤدية إلى «سانتياغو». أمامي يقف صبي يطالب «بكرته»، وهو يلقي نظرات عذبة وحزينة.

اقترب بتروس منّي: أخذ الكرة من يدي، وأعطاهما للطفل.

سأل بتروس الطفل:

– أين المذخر السري؟

أمسك الطفل يد صديقه، وهرول ليرمي بنفسه في الماء، قائلاً:

– عن أي مذخر تتحدث؟

تسلّقنا القلعة من جديد، واجتزنا الجسر أخيراً. أخذت أطرح الأسئلة عما حدث. كلّمته عن رؤيا الصحراء؛ لكن بتروس غيّر الحديث، قائلاً إننا سنتكلّم في هذا الموضوع، ما إن نبتعد قليلاً من هنا.

بعد نصف ساعة من السير، بلغنا مكاناً يحفل بالآثار الرومانية. كان ثمة جسر آخر متهذّم؛ فتوقفنا لتناول الإفطار الذي أعده لنا الرهبان: خبز شعير ولبن وجبنة ماعز.

سألني بتروس:

– لماذا كنت تريد الكرة؟

أجبت أنه لم أكن أريد الكرة، وأنني تصرّفت على هذا النحو بإيعاز منه، لأنه تصرّف بطريقة غريبة، وكأنّ للكرة أهمية كبرى في نظره.

– إنها مهمة في الواقع. فعلت ذلك، لتقوم باتصال مُظفّر مع «شيطانك الشخصي».

قلت في نفسي: «شيطاني الشخصي؟» لم أسمع بمثل هذه السخافة طوال الرحلة. قضيت ستة أيام أروح وأجيء وسط البيرنيه، وتعزّفت إلى كاهن مجوسّي لم يمارس أي سحر، وألني ظفري لأنني، كلما خطرت لي فكرة مؤذية عن نفسي: سويلاء، أو شعور بالذنب، أو عقدة دونيّة، أضطر إلى أن أغرز ظفري في الجرح. وهنا كان بتروس محقّقاً: لقد خفّت حدة الأفكار السلبية بشكل ملحوظ. لكن قصة الشيطان الشخصي هذه أمر جديد عليّ، ويشقّ عليّ تصديقها.

أضاف بتروس:

– اليوم، قبل عبورنا الجسر، شعرت، بقوة، أن هنالك حضوراً ما. لكنّ أحداً يريد إخطارنا. لكن التنبيه لم يكن موجّهاً إلي بل إليك. كان الصراع يهتّأ، وكان عليك أن تخوض الجهاد الحسن.

إذا كنّا لم نتعرّف بعد إلى شيطاننا الشخصي، فبإمكاننا التعرف إليه؛ إنه يتجسّد عادةً في الشخص الأكثر قرباً منّا. نظرت حولي، ورأيت الصبيّين يلعبان، واستنتجت أنّ التنبيه يُعطى لنا من هذا المكان. لكن ظننت أن هذا مجرّد شعور لا أكثر. ولم أتيقّن أن الأمر متعلّق بشيطانك الشخصي، إلا عندما رفضت أن تعيد الكرة.

قلت إنني تصرفت على هذا النحو، ظناً مني، أني أطاوع رغبته.  
— ولم أنا؟ هل قلت شيئاً؟

بدأت أشعر بالدوار. ربّما كان هذا بسبب الطعام الذي التهمته بشراهة، بعد حوالى ساعة من المشي على الريق. وفي الوقت نفسه، عاودني الشعور بأن الصبي كان أليفاً.

— إن شيطانك حاول أن يجزبك بثلاث طرق تقليدية: أولاً، من خلال التهديد، ثانياً، من خلال الوعد، وثالثاً، بالتأثير على الجانب الأضعف فيك. هنيئاً لك، فقد قاومت بشجاعة.

الآن تذكرت أنني سألت الصبي عن المذخر، مع أنني قلت في نفسي إن الصبي يحاول خداعي. لكنني عدت، واقتنعت بحتمية وجود مذخر، لأن الشيطان لا يتفوّه أبداً بوعود كاذبة.

— إذا لم يعد الصبي يتذكر المذخر، فهذا لأن شيطانك الشخصي رحل. وتابع بتروس دون توقف: «حان الوقت لاستدعائه، فأنت ستحتاج إليه».

كنا جالسين على الجسر القديم المهذم. جمع بتروس بقايا الطعام بعناية ووضعتها في كيس من الورق، كان الرهبان قد أعطوه إياه. في الريف المنبسط أمامنا، كان المزارعون يحرقون الحقول، لكنهم كانوا بعيدين جداً، ولم أستطع الإنصات إلى كلماتهم. كانت الطريق متعرجة تماماً، والأراضي المحروثة ترسم أشكالاً غامضة. وعند أقدامنا، يسيل مجرى ماء شبه صامت، لأنه على وشك الجفاف.

ثم قال بتروس:

— قبل أن يطوف السيد المسيح العالم، ذهب إلى الصحراء للتحدث

مع شيطانه الشخصي. أيقن ما عليه أن يعرفه عن الإنسان، لكنه لم يسمح لشيطانه بأن يُملي عليه قواعد اللعبة. وهكذا هزمه.

«قال أحد الشعراء: «لا أحد منا جزيرة. لكي نخوض «الجهاد الحسن، نحتاج إلى العون؛ نحتاج إلى أصدقاء. وعندما يبتعد الأصدقاء، علينا أن نجعل من وحدتنا سلاحنا الرئيسي. كل ما يحيط بنا يجب أن يوازرنا للقيام بالخطوات التي تساعدنا على بلوغ الهدف. كل شيء يجب أن يكون تجسيدا شخصياً لتطلّعنا إلى النصر عند خوض «الجهاد الحسن». فإذا لم نفهم أننا نحتاج إلى الجميع وإلى كل شيء، نكون مجرّد محاربين متبخخين. وهذا التبخج سوف يدمرنا، لأن ثقتنا العظيمة بأنفسنا ستعمينا إلى حدّ لا نرى معه الألغام الموجودة في ساح المعركة».

إن حكاية المحاربين هذه قد ذكرتني، ثانية، بشخصية كارلوس كاستانيديا: «دون خوان». تساءلت عما إذا كان الساحر الهندي العجوز يلقّن تلميذه دروس الصباح قبل أن يتسنى للتلميذ هضم طعام إفطاره.

لكن بتروس تابع، قائلاً:

— بالإضافة إلى القوى المادية التي تحيط بنا وتوازرنا، هناك قوتان روحيتان ترافقاننا: الملاك والشيطان. فالملاك يحمينا دائماً، وهذه نعمة إلهية، وليس ضرورياً استدعاؤه. فأنت ترى وجه ملاكك عندما تنظر إلى العالم نظرة نبيلة؛ إنّه الجدول وعمال الحقول والسماء الزرقاء. وعلى هذا الجسر القديم الذي يسمح لنا بالعبور فوق الماء، والذي بنته الأيدي المجهولة لفيالق الرومان... على هذا الجسر أيضاً، ترى وجه ملاكك. وقد عرفه أبائنا بصفته الملاك الحارس: ملاك الحماية والحراسة.

«والشيطان هو، أيضاً، ملاك، لكنه قوة حزة وعاصية. وأفضل



تسميته «الرسول»<sup>(\*)</sup>، لأنه الصلة الأساسية بينك وبين الوجود. في العصور القديمة، كان متمثلاً بـ «عطارد، و«هرمس»، «رسول الآلهة». بيد أنه لا يتدخل إلا على الصعيد المادي، وهو موجود في ذهب الكنيسة، لأن الذهب يأتي من الأرض، والأرض ميدانه. وهو موجود، أيضاً، في عملنا، وفي علاقتنا بالمال. عندما ندعه حراً، يميل إلى التشبث. وعندما نفرّ منه، نفقد كل ما يستطيع تعليمنا إياه من أشياء جيدة نحتاج إليها، لأنه يعرف العالم والبشر. لكن، عندما نُفتن بقدرته، يملكنا، ويبعدنا عن «الجهاد الحسن».

«بئذ أن الوسيلة الوحيدة لمعرفة «رسولنا»، هي أن نجعل منه صديقنا: أن نستمع إلى نصائحه، وندعوه لمساعدتنا، عندما يكون ذلك ضرورياً، لكن دون أن نجعله يُملي علينا القواعد، كما فعلت مع الصبي. من أجل ذلك، يجب أن تعرف، أولاً، ماذا تريد، ثم تتعزّف إلى اسمه».

سألته:

– وكيف يمكنني ذلك؟

وعلمني بتروس طقس «الرسول»!

قال بتروس:

«مارس هذا التمرين مساءً، يسهل. اليوم، خلال لقائكما الأول، سيكشف لك عن اسمه. وهذا الاسم سري، ويجب ألا يعرفه أحد، حتى أنا. لأن من يعرف اسم رسولك يستطيع تدميره».

نهض بتروس، وأكملنا المسير. خلال فترة وجيزة، وصلنا إلى حقل يحتره بعض العقال. تبادلنا التحيات الصباحية، وتابعنا طريقنا.

(\*) «الرسول» مصطلح ارتأيناه مناسباً للتعبير عن الجملة التي يعطيها كويلو لملك الشيطان. ووضعناها بين مزدوجين كي لا يقع أي التباس بينها وبين أي معانٍ دينية مختلفة لهذا التعبير.

## طقس «الرسول»

أجلس واسترخ تماماً. دغ فكرك يسرح حيثما يريد، ودع الأفكار تتدفق دون رقابة. ردّد للحظات: «الآن، أنا مسترخ، وعيناي تستغرقان في نوم العالم».

حين تشعر أن روحك انعتقت من مشاغلها، تخيل عموداً من نار إلى يمينك، واجعل السنة الذهب متقدة لامعة. عندها، قل بصوت خافت: «أمر عقلي الباطني بأن يتجسد. فليعلن لي عن نفسه، وليكشف أسرار السحرية. انتظر قليلاً، وركّز فقط على عمود النار. فإن انبثقت صورة ما، فاحتفظ بها، لأنها تجلّ لعقلك الباطن».

والآن، وفيما عمود النار إلى يمينك، تخيل عموداً آخر إلى يسارك. عندما تتناول السنة الذهب اللفظ، بصوت خافت، الكلمات التالية: «لنأت قوة الحمل الذي تجلّى في كل شيء، وفي الجميع، ولتجلّ في، فيما أ استدعي «رسولي». وليظهر عليّ «اسم الرسول»».

تحدث إلى «رسولك» الذي سيظهر بين العمودين، وشرح له مشكلتك. أطلب نصيحته، وأصدر إليه الأوامر اللازمة.

بعد انتهاء الحوار، اطلب منه الانصراف، وأنت تقول: «شكر الحمل على المعجزة التي حققتها. وليرجع «الرسول»، كلّمنا استدعيت، حتى وإن كان بعيداً، وليساعديني في تحقيق أعمالي».

ملاحظة: خلال الاستدعاءات الأولى، وتبعاً لقدرة ذلك الذي يمارس الطقس على التركيز، لا يجوز لفظ اسم «الرسول». نقول فقط: «هو». وإذا نُفد الطقس بشكل صحيح، فعلى «الرسول» أن يكشف عن اسمه عن طريق التخاطر. أما إذا حصل العكس، فعليك الإصرار لتعرف هذا الاسم، وانطلاقاً من هنا، باشر الحوار معه. كلّمنا كزرت التمرين، زاد حضور «الرسول» قوة، وتسارعت وتيرة أعماله.



«إذا كان لا بدّ لي أن أستدعي صورة، يمكنني القول إن الملاك هو درعك والرسول سيفك. فالدرع يحمي في كل مناسبة، لكن السيف يمكنه أن يسقط خلال المعركة أو يقتل صديقاً، أو يرتدّ على صاحبه».

ثم ختم بتروس، ضاحكاً:

«في أيّ حال، فإنك تستطيع أن تفعل ما تشاء بالسيف، إلا أن تجلس فوقه».

توقفنا في إحدى القرى لتناول طعام الغداء. كان الصبي الذي قدّم إلينا الطعام سيئ المزاج، على ما يبدو. لم يجب عن أسئلتنا، ووضع الطعام، كيفما اتفق، على الطاولة، لا بل صبّ قليلاً من القهوة على بنطال بتروس. رأيت مرشدي يتحوّل، عندئذ، إلى كائن آخر: غضب واستدعى ربّ العمل، وهو يعترض بشدة. وأخيراً، اتّجه إلى المرحاض ليبدّل بنطاله، فيما كان صاحب المطعم يغسل القهوة عن البنطال.

كنا ننتظر أن تجفّ شمس الظهيرة بنطال بتروس. وفكرت بكلّ ما قلناه هذا الصباح. صحيح أن معظم أفكار بتروس عن الصبي قد تحققت: إذ رأيت صحراء ووجهاً. لكن قصة «الرسول» هذه بدت لي قديمة تخطّأها الزمن. فنحن في القرن العشرين، ومفاهيم الجحيم والخطيئة والشيطان لم تعد تعني شيئاً لأحد. في الميراث الذي أثبتت نهجه لفترة طويلة تفوق المذة التي استغرقتها تعاليم طريق «مار يعقوب»، كان «الرسول»، الذي يدعى أيضاً شيطاناً دون أن تكون التسمية تحقيرية، روحاً طاغياً مهيمناً على قوى الأرض، ويمكنه أن يضع نفسه في خدمة الناس. نحن نلجأ إليه دوماً، لكن لا نعتبره حليفنا أو مرشدنا في الأعمال اليومية. ألح

بتروس إلى أنني أستطيع استغلال صداقة «الرسول» لأتقدّم في عملي، وفي الوجود. لكن بدت لي الفكرة حقيرة، لا بل ساذجة. بيد أنني كنت قد أقسمت بالطاعة أمام السيدة سافان ومزة أخرى، غرزت ظفري في لحم إبهامي حتى الألم.

قال بتروس، بعد رحيلنا من المطعم:

— ما كان يجدر بي أن أغضب. لم يصب الخادم الفنجاني عليّ، بل على العالم الذي يكرهه. فهو يعرف، تماماً، أن ثقة عالماً وراء حدود خياله، في حين أن مشاركته، في هذا العالم، تتلخّص في نهوضه باكراً، وذهابه إلى الفرن، وخدمته الزبون العابر، واستمنائه ليلاً، وهو يحلم بنساء لن يتعرف إليهن أبداً.

حان الوقت للتوقّف من أجل القيلولة. لكن بتروس فضّل أن يتابع المسير. قال إن هذه هي طريقته ليعاقب نفسه على سلوكه المتعنّت. وأنا، الذي لم يفعل شيئاً، كان عليّ مرافقته في هذه الشمس الحارقة. فكّرت بـ «الجهد الحسن»، وبملايين الناس الذين يقومون على هذا الكوكب بأشياء لا يحبونها. صحيح أن تمرين القسوة كان يؤلم لحم ظفري، لكنه يعود عليّ بالفائدة كثيراً. وقد سمح لي أن أدرك إلى أي حد يمكن لفكري أن يخونني ويجرّني إلى أعمال لا أوافق عليها، وإلى مشاعر لا تفيدني بشيء. في هذه اللحظة، تمنّيت أن يكون بتروس على حق: أن يكون هناك «رسول» أتحدّث معه في الأشياء العملية، وأطلب منه المعونة في شؤون هذا العالم. انتظرت الليل بنفاد صبر.

ومع ذلك، فإن بتروس لم يكفّ عن التحدّث بشأن الخادم. واقتنع أخيراً بأنه حسناً فعل، مستنداً في ذلك إلى حجة مسيحية:

— إن السيد المسيح غفر للمرأة الزانية، لكنه لعن التينة التي لا

تثمر. وأنا أيضاً لا يجدر بي أن أكون لطيفاً على الدوام!  
حسناً. فالمسألة خلّت في فكره. ومرة أخرى، أنقذه الكتاب المقدس.

وصلنا إلى إستيليا حوالى التاسعة مساءً. اغتسلت، ثمّ نزلت وإياه لتناول العشاء. وكان إيميري بيكو، وهو أول من كتب دليلاً لطريق «مار يعقوب»، قد وصف «استيليا، بأنها مكان خصب تجد فيه خبزاً شهياً وخمراً ممتازة، ولحماً وسمكاً. ثمّ إن مياه «إيغا، مياه عذبة، سليمة، لذيذة جداً. لم أشرب من ماء النهر، ولكن بيكو كان محقاً بشأن الطعام، حتى بعد مرور ثمانية قرون. قدّموا لنا شرائح من فخذ خروف، وأرضي شوكي، ونبيذاً بلدياً معثقاً. بقينا على المائدة لوقت طويل، نتحدث عن أشياء وأشياء، ونحن نحتمي النبىذ. وأخيراً، أعلن بتروس أن الوقت قد حان لأقيم أول اتصال لي بـ «الرسول».

نهضنا، وجلنا في شوارع المدينة سيراً على الأقدام. كانت بعض الأزقة تطل مباشرة على النهر، كما في مدينة البندقية. وفي إحداها، قزرت الجلوس. كان بتروس يعرف أنني أنا الآن من يقود الاحتفال، لذا فضل الانسحاب قليلاً.

تأملت النهر طويلاً. أبعدتني مياهه وصخبها، تدريجاً، عن العالم، وألهمتني سكوناً عميقة. أغمضت عيني متخيلاً أول عمود نار، فلم يظهر إلا بعد قليل.

تلفّظت بالكلمات الطقسية، فانبثق العمود الآخر إلى يساري. كان المكان، الذي يفصل بينهما والذي تضيئه النار، فارغاً تماماً. بقيت أحنق إلى هذا المكان، محاولاً عدم التفكير بشيء، لكي أسمح لـ «الرسول» بالظهور. ولكن انبثقت، بدلاً منه، مشاهد غريبة جداً: مدخل أحد الأهرامات، امرأة ترتدي الذهب الصافي، ورجال سود يرقصون حول النار. توالى الصور بسرعة، فتركناها تتوالى،

دون توقف، ودون رقابة. وظهرت أمامي مراحل عذّة من الطريق التي سلكتها مع بتروس. وظلت تتجلى، حتى هذه اللحظة ودون سابق إنذار، مناظر ومطاعم وغابات، إلى أن انبسطت صحراء الرماديين عمودي النار. وهناك، وقف الرجل الودود ينظر إليّ، والبريق المخادع يلتمع في عينيه.

ضحك، وابتسمت مرتعداً. أشار إلى كيس نقود مغلق، ثم فتحه ناظراً إلى داخله. لكنني، من المكان الذي وقفت فيه، لم أستطع رؤية شيء. وعندئذ، خطر لي اسم: «استران»<sup>(١)</sup>. تمثّلت ذهنياً هذا الاسم، وتلفّظته بين عمودي النار، فأوما «الرسول» بحركة من رأسه. عرفت أن هذا هو اسمه.

حان الوقت لاختتام التمرين: تلفّظت بالكلمات الطقسية، وأطفأت عمودي النار: أولاً عمود الشمال، ثم عمود اليمين. فتحت عيني من جديد، وبنا أمامي نهر «إيغا».

قلت لبتروس، بعد أن أخبرته بما حدث:

— كان الأمر أسهل مما توقّعت.

— هذا أول اتصال لك به، اتصال تعارف متبادل، وصداقة متبادلة. ويصبح الحوار مع «الرسول» مثمراً، إذا استدعيته كل يوم، تناقشت معه في بعض المسائل، وأنت تعرف كيف تميّز فعلاً العون من الفخ. لا تجعل سيفك يغيب عن بالك عندما تلتقيه. أجبته:

— ليس لديّ سيف الآن!

— لهذا، لا يمكنه أن يؤذيك كثيراً. وفي أيّ حال، فإن من الأفضل ألاّ تسهّل المهمة عليه.

(١) بالطبع، هذا اسم مزيف.

بعد انتهاء التمرين، ألقى تحية المساء على بتروس، وعدت إلى الفندق. تدثرت بالغطاء، مفكراً بالخادم المسكين الذي قدم إلينا الغداء. كانت لدي رغبة أن أرجع لرؤيته، وتعليمه «طقس الرسول»، وأن أقول له إن كل شيء يمكنه أن يتغير، إذا شاء. لكن من العبث السعي إلى إنقاذ العالم. فأنا لم أنجح، حتى الآن، في إنقاذ نفسي<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

## الحب

قال لي بتروس، في صباح اليوم التالي:

إن التحنث إلى «الرسول» لا يتعلق بطرح الأسئلة عن عالم الأرواح. فالمنفعة الوحيدة، التي يقدمها «الرسول»، هي الاستعانة به في العالم المادي. ولن يمتك بهذا العون، إلا إذا عرفت حقاً ما تريد.

توقفنا في إحدى القرى، لتتناول شرباً. طلب بتروس البيرة، وطلبت الصودا. كان الصحن، الموضوع تحت كوبي، مؤلفاً من دارة بلاستيكية تحوي ماءً ملوئاً. رحت ألهي نفسي برسم أشكال مجزدة فوقها.

— قلت لي إن «الرسول» قد تجلّى لي من خلال الصبي، لأنه أراد إبلاغي أمراً ما.

أجاب بتروس مؤكداً:

— أمراً ملخاً.

تحنثنا أيضاً بالرسول والملائكة والشياطين. وصعب عليّ التسليم بهذا الاستخدام العملي لأسرار الميراث. أصرّ بتروس على فكرته القائلة بوجوب البحث الدائم عن مكافأة. وتذكرت كلام السيد المسيح: «الأغنياء لا يدخلون ملكوت السموات».

— لكن السيد المسيح كافأ الرجل الذي عرف كيف يضاعف وزنات سيده. ثمّ إننا لم نؤمن به، لأنه كان خطيباً فصيحاً فقط، بل لأنه حقق المعجزات، وكافأ الذين تبعوه.

قاطعنا صاحب البار، الذي كان يستمع إلى حوارنا:

(١) إن طقس «الرسول» موصوف بشكل مجتزأ. في الواقع، فسر لي بتروس معنى الرؤيا والذكريات والكيس الذي أظهره لي استران. ولكن، بما أن لقاء «الرسول» يختلف باختلاف الأشخاص، فقد يبدو الإلحاح على تجربتي الشخصية ذا أثر سلبي في تجارب الآخرين.



– لا يتكلم أحد بالسوء عن يسوع في حانتي.  
أجابه بطروس:

– لم يتكلم أحد بالسوء عن يسوع. فالكلام بالسوء عنه  
بمثابة ارتكاب للخطايا، تحت ستار التضلع لاسمه، وذلك ما  
فعلتموه هنا في هذه الساحة.

ترد صاحب الحانة قليلاً، ثم أجاب بسرعة:  
– لا دخل لي بذلك. كنت لا أزال صغيراً.  
وغمغم بطروس:

– المذنبون هم، دائماً، الآخرون.

خرج صاحب الحانة من باب المطبخ. وسالت بطروس بما كانا  
يتحدثان، فقال:

– منذ عشرين سنة، وفي منتصف القرن العشرين، أحرق غجري  
هنا في الساحة، لأنه اتهم بالسحر والتجديف على القربان المقدس.  
أجري التعقيم على القضية، بسبب فضائع الحرب الأهلية. ولا أحد  
يتذكر، اليوم، هذه القصة، إلا ساكنو هذه المدينة.

– وكيف علمت بذلك يا بطروس؟

– جزاء عبوري، من قبل، طريق «مار يعقوب».

تابعنا الشرب في الحانة المقفرة. كانت الشمس شديدة السطوع  
عند القيلولة. بعد قليل، رجع صاحب الحانة برفقة كاهن القرية.

سأل الكاهن:

– من أنتم؟

أظهر بطروس الصنفة المرسومة على حقيبة ظهره. منذ ألف  
ومئتي سنة والحجاج يمرون بهذه الحانة. والتقليد يقضي بأن يُحترم  
كل حاج، ويستقبل بشكل حسن، مهما تكن الظروف.

غَيَّر الكاهن لهجته، وسأل بنبرة تعليمية:

– كيف يحدث أن يتكلم حجاج ذاهبون إلى «سانتياغو»، بالسوء  
عن يسوع المسيح؟

– لا أحد يتكلم بالسوء عن يسوع هنا. كنا نذكر بالجرائم  
التي ارتكبت باسمه. وأثرنا، كمثال على ذلك، قصة الغجري الذي  
أحرق في الساحة.

أجبرت الصدفة، الموضوع على حقيبة بطروس، صاحب الحانة أن  
يغير تصرفاته هو أيضاً. توجه إلينا هذه المرة باحترام، وقال، بالرغم  
من نظرة الكاهن المستهجنة:

– إن لعنة الغجري لا تزال جاثمة على القرية.

أصر بطروس على معرفة حيثيات هذه اللعنة. أجاب الكاهن أنها  
مجرد روايات شعبية، لم تثبتها الكنيسة. لكن صاحب الحانة  
أضاف:

– قبل أن يموت الغجري، قال إن شياطينه ستنتقل إلى أصغر  
طفل في القرية وتسكنه. وعندما يكبر هذا الطفل ويصير  
عجوزاً، تنتقل الشياطين إلى طفل آخر، وهكذا دواليك، على مز  
العصور.

قال الكاهن:

– إن الأرض هنا هي نفسها الأرض الموجودة في القرى الأخرى  
المجاورة. عندما تعاني القرى الجفاف، نعاني نحن أيضاً. وعندما  
يهطل المطر هناك ويكون الموسم جيداً، نملاً، نحن أيضاً، بيوت  
مؤننا. لم يحدث شيء لنا، أو للقرى المجاورة. إن كل هذه القصة  
خيال محض.

أوضح صاحب الحانة:

– لم يحدث شيء، لأننا عزلنا اللعنة.

اقترح بطروس:

– فلنذهب، إذن، إلى عقر دارها!

ضحك الكاهن للعبارة اللفاحية، ورسم صاحب الحانة إشارة الصليب، لكن أحداً منهما لم يتحرك.

دفع بتروس الحساب، وأصرَّ على أن يصطحبنا أحدهما إلى الشخص الذي سكنته اللعنة. اعتذر الكاهن قائلاً إنه مضطر للعودة إلى الكنيسة، لأن عملاً مهماً كان ينتظره، ولم ينجزه بعد. ثم رحل قبل أن يتمكن أحد منا التفوه بكلمة واحدة.

رمى صاحب الحانة بتروس بنظرة قلقة.

قال مرشدي:

– لا تهتم. يكفي أن ترشدنا إلى البيت الذي تسكنه اللعنة، وعلينا أن نسعى لتخليص المدينة منها.

قادنا صاحب الحانة إلى الشارع المغبر، والمبهر تحت أشعة شمس بعد الظهيرة الساطعة. بلغنا مخرج القرية، وأشار إلى بيت منعزل على جانب الطريق.

قال، كأنه يعتذر:

– نرسل دائماً طعاماً، وملابس، وكل ما هو ضروري. لكن الكاهن نفسه لا يذهب إلى هناك.

استأذناه بالانصراف. توقف العجوز، ولعلّه اعتقد أننا لن نقصد البيت. قرع بتروس الباب. وعندما استدرت، كان صاحب الحانة قد اختفى.

فتحت لنا الباب امرأة شارفت الستين من عمرها، يرافقها كلب أسود ضخّم يحرك ذنبه، ويبدو مبتهجاً بالزيارة. سألتنا المرأة ماذا نريد، قائلة إنها منشغلة بالغسيل، وإنها تركت القدور على النار. لم تبد مندهشة لرؤيتنا. لعلّ حجاجاً كثيرين، لا يعرفون شيئاً عن اللعنة، قرعوا بابها بحثاً عن ماوى.

قال بتروس:

– نحن حاجان، في طريقنا إلى «كومبوستيل»، ونحتاج إلى ماء ساخن. أعرف أنك لن ترفضى لنا هذا الطلب.

فتحت العجوز الباب رغماً عنها. دخلنا غرفة صغيرة نظيفة، ولكنها فقيرة الأثاث. كانت ثمة أريكة ذات غطاء بلاستيكي ممزّق، وصوان، وطاولة من الفورميكا، وكريسيان. واحتلت الصوان صورة لقلب يسوع وقنيسين، ومصلوب يتوجه إكليل من شوك. كان هناك بابان يؤديان إلى الغرفة الصغيرة: عبر أحدهما، استطعت رؤية الغرفة، وعبر الآخر، قادت المرأة بتروس إلى المطبخ.

قالت:

– لدي القليل من الماء المغلي. سأذهب لأحضر وعاء، بعدها يمكنكما العودة من حيث جئتما.

بقيت وحدي في الغرفة مع الكلب الضخم. كان يحرك ذنبه فرحاً وطاعة. بعد قليل، رجعت المرأة تحمل علبة قديمة، ملأتها مياهاً ساخنة وقدمتها لبتروس:

– خذ هذه، واذهب، وليباركك الله.

لكن بتروس لم يتحرك. انتشل من حقيبته مغلفاً صغيراً من الشاي، ووضع في الماء الساخن، معلناً أنه يرغب في أن يتقاسم القليل الذي يملكه معها، ليشكرها على حسن استقبالها.

ذهبت المرأة لتأتي بكوبين، وقد بدا عليها الانزعاج صراحةً. ثم جلست أمام الطاولة إلى جانب بتروس. تابعت النظر إلى الكلب، وأنا أستمع إلى الحوار.

قال بتروس بلهجة محايدة:

– قالوا لي في القرية إن لعنة جاثمة على هذا البيت.

التمعت عينا الكلب، وبدا وكأنه يفهم هذه الأقوال.

نهضت العجوز متوتبة وقالت:

– كذب! شعوزة قديمة! أسرع، لو سمحت، بتناول الشاي، لأن لديّ أعمالاً كثيرة تنتظرني.

أحسّ الكلب بتغير مزاج المرأة المفاجيء، وبقي جامداً متأهباً.



لكن بتروس ظل محتفظاً ببرودة أعصابه. صبّ، على مهل، الشاي في الكوب، ورفعته إلى شفتيه، ثم أعاده إلى الطاولة، دون أن يحتسي شيئاً.

— إنه ساخن جداً. فلندعه يبرد.

ظلت المرأة واقفة. بدت منزعة جذاً من حضورنا، ونادمة لأنها استقبلتنا. لاحظت أنني أنظر إلى الكلب محدقاً إليه باستمرار، فدعته إلى جانبها. أطاع الحيوان، لكنه استمر، هو أيضاً، في التحديق إليّ.

قال بتروس، وهو يستدير ناحيتي:

— من أجل هذا يا عزيزي، ظهر عليك «الرسول البارحة، على هيئة طفل.

وفجأة، لاحظت أنني لم أكن أنا من ينظر إلى الكلب. فمذ دخلت، وهذا الحيوان يسفر عينيه إلى عيني، كأنه ينؤمنني مغناطيسياً ويجعلني أحقق إرادته. شعرت بتعب كبير، وبرغبة في النوم على هذه الأريكة الممزقة، لأن الطقس كان حاراً في الخارج، ولا رغبة لي في معاودة السير. كل ذلك بدا لي غريباً. وشعرت أنني سقطت في الفخ. كان الكلب يحذق إليّ باستمرار. وكلما نظر إليّ، تعاظمت رغبتني في النوم.

قال بتروس، وهو ينهض ليقدم إليّ كوب الشاي:

— إشرب قليلاً، ولنذهب. إن السيدة تريدنا أن نرحل في أسرع وقت ممكن.

ترنخت، لكنني نجحت في الإمساك بكوب الشاي. احتسيت قليلاً من الشاي الساخن، فأنعشني. أردت أن أقول شيئاً، أن أسأل عن اسم الحيوان، لكنني فقدت صوتي. شيء ما استفاق فيّ، شيء لم يلقني إياه بتروس، ولكنه يزداد تجلياً في داخلي، وكأنها رغبة لا تقاوم بتلفظ كلمات غريبة أجهل، أنا نفسي، معناها. فكّرت أن بتروس دسّ لي شيئاً في الشاي. بدا لي كل شيء بعيداً. شعرت،

بشكل غامض، أن المرأة تقول لبتروس إنه علينا الرحيل. وغمرني إحساس بالغبطة: قررت أن أتفوه بالكلمات الغريبة التي جالت في خاطري.

كان الكلب الشيء الوحيد الذي أستطيع تمييزه في الغرفة. وعندما بدأت أتلفظ بتلك الكلمات الغريبة، أخذ الكلب يحدث دمدمة: لقد كان يفهمها. شعرت بالإثارة، وتابعت الكلام بصوت يعلو باطراد. انتصب الكلب وكشّر عن أنيابه. لم يعد ذلك الكلب المطيع الذي التقيته لدى وصولي، بل تحول بهيمة شذيرة متوغدة، يمكنها أن تهاجمني في أي لحظة. كنت أعرف أن الكلمات تحميني فأصدرتها بصوت أعلى، متجهاً بكل قواي إلى الحيوان. شعرت أن قدرة مختلفة تعمل في داخلي، قدرة تمنع الحيوان من مهاجمتي.

وعندئذ، توالى الأحداث بشكل بطيء. أذكر منها أن المرأة اقتربت مني محاولة أن تدفعني إلى الخارج، وأن بتروس صدها، فيما الكلب لا يولي المشاجرة أدنى اهتمام. كان يحذق إليّ، وراح يدمدم مكشراً عن أنيابه. حاولت أن أفهم اللغة الغريبة التي تكلمت بها، لكنني كلما توقفت قليلاً لأفهم معناها، يتضاءل تأثيرها، فيقترب الكلب مني أكثر، ويزداد عدائية. عندئذ، زعقت بأعلى صوتي، وأخذت المرأة تصرخ، هي أيضاً، والكلاب ينبح ويهتدني. لكنني كلما تابعت الكلام، أصبح أكثر أماناً. سمعت ضحكة مدوية، ولم أدرك حقاً إذا كانت هذه الضحكة حدثت في الحقيقة، أم أنها ثمرة خيالي.

وفجأة، وكان كل شيء يحدث في الوقت نفسه، عصفت الريح في البيت، وقام الكلب بوثة كبيرة، وهجم عليّ. رفعت ذراعي لأحمي وجهي ونطقت بكلمة منتظراً تأثيرها، فانقض الحيوان عليّ بكل ثقله، وسقطت على الأريكة. تفرّس أحداً في الآخر للحظات، ثم خرج الكلب، وهو يركض.



طفقت أبكي بحرارة. فكّرت بعائلتي وزوجتي وأصدقائي، وراودني إحساس جارف من الحب، وانتابني فرح غامض لا حدّ له. لكنني كنت أعني، كلّ هذه القصة مع الكلب، وعياً متزامناً مع حدوثها. أخذني بتروس بذراعي، واصطحبني إلى الخارج، والمرأة تدفعنا كلينا. نظرت من حولي: لا أثر للكلب، بيد أنني احتميت ببتروس، واسترسلت في البكاء، فيما كنّا نمشي تحت أشعة الشمس.

لم أحتفظ بذكرى هذه المرحلة. وعندما رجعت إلى حواسي، رأيتني جالساً قرب سبيل ماء. بلّل بتروس وجهي ورقبتي. أردت أن أشرب، فقال لي إن أي شيء أشربه سأتقيّاه في الحال. ألني وخزّ في قلبي. ومع ذلك، شعرت أنني في حالة جيدة: غمرني حبّ عظيم لكل شيء، وللجميع. نظرت من حولي، فرأيت الأشجار المتراففة على حافة الطريق، وسبيل الماء الصغير، حيث توقفنا. داعبني النسيم المنعش، وسمعت صوت العصافير في الغابات. رأيت وجه ملاكي في كلّ هذا، كما قال لي بتروس من قبل. سألته عمّا إذا كنا ابتعدنا عن بيت المرأة، فأجابني أننا مشينا حوالى ربع ساعة.

قال:

— لا بدّ أنك راغب في معرفة ما جرى.

في الواقع لم يكن لذلك أي أهمية عندي: الكلب والمرأة وصاحب الحانة... كل ذلك بدا لي أشبه بذكريات بعيدة لا علاقة لها بما أشعر به الآن. اقترختُ على بتروس أن نمشي قليلاً، لأنني استعنتُ قواي كاملة.

نهضتُ، وتابعت المسير معه على طريق «مار يعقوب». بقيت شبه صامتة طوال الوقت، مغموراً بهذا الشعور النبيل الذي يملأ كل شيء. في وقت ما، خطر لي أن بتروس قد دسّ لي مخدراً في

الشاي، أو ما شابه. لكن هذا أيضاً لا أهمية له. المهم هو أن أتأمل الجبال والجدول والأزهار على حافة الطريق، وأرى الملامح السامية لوجه ملاكي.

نزلنا في فندق قرابة الثامنة مساءً. وكنت، على الدوام، أشعر أنني في حالٍ من الغبطة، على الرغم من أن حدة الشعور قد خفت. طلب صاحب الفندق جواز سفري، ونظر إليه، ثم أعاده لي، قائلاً:

— أنت آتٍ من البرازيل. سبق لي أن ذهبت إلى هناك، ونزلت في فندق على شاطئ «إيبانيم».

أعادتني هذه الجملة التافهة إلى واقعي: في منتصف طريق «مار يعقوب»، وفي قرية سُيّلت منذ عصور، كان هناك صاحب فندق يعرف شاطئ «إيبانيم».

قلت لبتروس:

— أنا مستعدّ الآن للنقاش، وأريد أن أفهم كل ما حدث لي اليوم فقد اختفى الشعور بالغبطة، وأعيد الاعتبار لأحكام العقل، وتضاعف الخوف من المجهول. شعرت برغبة ملحة في أن أضع قدمي على الأرض من جديد.

أجاب:

— بعد العشاء.

طلب بتروس من صاحب الفندق تشغيل جهاز التلفزيون، لكن دون صوت، موضحاً لي أنها أفضل طريقة لأسمع كلّ شيء دون أن أطرّح الكثير من الأسئلة، لأن جانباً من كياني سيكون منصرفاً إلى مشاهدة التلفزيون. سعى ليعرف إلى أي حدّ كنت أتذكّر ما

حدث لي. قلت إنني أتذكر كل شيء، إلا الفترة التي مشينا خلالها إلى الينبوع.

أجاب:

– ليس لهذا أي أهمية.

على شاشة التلفزيون، يُعرض فيلم تتعلّق قصته بمناجم الفحم، وترتدي شخصياته أزياء تعود إلى بداية القرن.

قال بتروس:

– «البارحة، عندما شعزتُ بإلحاح رسولك عليك، عرفتُ أن معركة ستُخاض على طريق «مار يعقوب». أنت هنا للعثور على سيفك، ولتعلّم ممارسات «رام». لكن، في كل مرة يقود مرشدٌ حاجاً، يحدث أن يخرج أمر طارئ عن سيطرة الإثنين. وهو نوع من اختبار عملي لا جرى تلقينه. وفي حالتك، كان اللقاء مع الكلب.

«أما تفاصيل الصراع ووجود شياطين عدّة في أحد الحيوانات، فهذا أمر سأشرحه لك لاحقاً. المهم الآن هو أن تفهم أن هذه المرأة قد تعودت اللعنة، تقبلتها وكأنها شيء عادي، فعظمت لديها حقارة العالم. وهكذا تعلّمت أن ترضى بالقليل القليل، فيما الحياة سخيّة وتريد دوماً منحنا المزيد.

«عندما طرئت الشياطين من هذه العجوز المسكينة، أخلتُ، أيضاً، بعالمها. كنا قد تحدثنا، في ذلك اليوم، عن القسوة التي يمكن للناس ارتكابها بحق أنفسهم. وعندما نحاول أن نُظهر لهم الخير، وأن الحياة سخيّة معطاء، غالباً ما يرفضون الفكرة، وكأنها من عمل الشيطان؛ لا أحد يودّ طلب الكثير من الحياة، لأنه يخاف الفشل. ولكن مَنْ يتوق إلى خوض «الجهاد الحسن»، فعليه النظر إلى العالم، وكأنه كنز لا ينضب، ينتظر أن يعثر عليه أحد ويمتلكه.

سألني بتروس عما إذا كنت أعرف، فعلاً، الغاية من رحلتي على طريق «مار يعقوب».

أجبت:

– أبحث عن سيفي.

– ولماذا تريد سيفك؟

– لأنه سيحمل لي القدرة وحكمة «الميراث».

شعرت أن جوابي لم يرضه تماماً، فأضاف:

– «أنت هنا بحثاً عن مكافأة. تجرؤ على الحلم وتفعل كل ما في وسعك، لتجعل الحلم حقيقة. عليك أن تعرف، بشكل أفضل، ماذا ستفعل بسيفك. وينبغي أن يكون ذلك واضحاً في ذهنك قبل العثور عليه. إلا أن لديك حسنة هي أنك تسعى إلى مكافأة.

«فأنت لا تجتاز طريق «مار يعقوب»، إلا لأنك راغب في أن تجازي على جهدك. لاحظتُ أنك تسعى إلى تطبيق ما لقّنتك إياه بحثاً عن حل عملي. وهذا إيجابي جداً.

«بقي عليك أن تربط بين ممارسات «رام» وحديثك الخاص بك. هي لغة القلب التي تحذد الوسيلة الصحيحة لاكتشاف سيفك وتوجيهه. وإلا فإن ممارسات «رام» سوف تضيع في حكمة «الميراث» العقيمة.

قال لي بتروس ذلك من قبل، لكن بعبارات مختلفة. كنت متفقاً معه، بيد أن معرفة ذلك لم تكن تهمني. لقد وقع لي أمران لم أتوصل إلى تفسيرهما: اللغة المختلفة التي تكلمتها، والغبطة والحب اللذان شعرت بهما، بعد طرد الكلب...

– إن الشعور بالغبطة تشفع بك، لأن بادرثك قد لامسها الحب الإلهي.

– تتحدث كثيراً بالحب الإلهي، ولم تشرح لي، حتى الآن، ماهيته.

– سيأتي الوقت، ونشعر بهذا الحب العظيم الذي يلتهم مَنْ يُحب. وفي انتظار ذلك، اكتفِ بمعرفتك أنه سيتجلى بحرية في داخلك.

— سبق لي أن عرفت هذا الشعور، لكن بشكل وجيز ومختلف، بعد نجاح مهين أو امتلاك امرأة، أو لدى الإحساس بأن الحظ يحالفني. ومع ذلك، كنت، حين ينبثق هذا الشعور، أنغلق، وأخاف أن أعيشه بحدة. وكأنّ هذه البهجة يمكنها أن تثير حسد الآخرين، أو كأنني كنت غير جدير بها.

اعترف بتروس، وعيناه تحنّان إلى شاشة التلفزيون، قائلاً:

— كلنا نتصرف هكذا، قبل أن نعرف الحب الإلهي.

سألته عن اللغة الغريبة التي تكلمت بها.

— فاجأني الأمر، لأن هذه الممارسة لا تتعلق بطريق «مار يعقوب»، بل هي خطوة تنتمي إلى ممارسات «رام، على طريق روما».

سمعتهم، في السابق، يتحدثون بالخطوة، أو الموهبة اللدنية، لكنني طلبت من بتروس شرحاً أوضح.

— «إن الخطوات هي عطايا الروح القدس، وهي تتجلى في كلّ منّا. قد تكون موهبة الشفاء، أو اجترار المعجزات، أو النبوة... واليوم أنعم الله عليك بموهبة اللغات، التي عرفها الرسل يوم العنصرة.

«إن موهبة التكلم بلغات عديدة هي الاتصال المباشر بالروح، وهي الشرط الأساسي للتأملات النافذة، والتعازيم القوية والحكمة. وفي حالتك أنت، تمكّنت أيام المسير، وممارسات «رام، والخطر الذي مثله الكلب عليك، أن توقظ فيك نعمة اللغة، من طريق المصادفة. ولن تعود هذه الموهبة، إلا إذا وجدت سيفك، وقزرت أن تسلك طريق روما. وفي أي حال فإن هذا قال خير».

على شاشة التلفزيون الأخرس، تحوّلت قصة مناجم الفحم إلى سلسلة من الصور، حيث الرجال والنساء يتكلمون دون توقّف ويتناقشون ويتحاورون. من وقت إلى آخر يتبادل ممثل وممثلة القبل.

قال بتروس:

— هناك شيء آخر: يمكن أن تلتقي الكلب مجدداً. وفي هذه الحالة، لا تسع إلى بعث موهبة اللغات، لأنها لن ترجع أبداً. افعل ما يمليه عليك حدسك. سألقنك ممارسة أخرى في «رام، توقظ فيك هذا الحدس، لتتعرف، شيئاً فشيئاً، إلى اللغة السرية لروحك. وسيفيدك هذا في كلّ أيام حياتك.

أطفا بتروس جهاز التلفزيون في اللحظة التي بدأت فيها أهتم بحبكة الفيلم. ثم اتجه إلى البار، وطلب زجاجة مياه معدنية. احتسى كلّ منا بضع جرعات.

ذهبنا للجلوس في مكان منعش. بقينا صامتين لفترة وجيزة. كانت سكينة الليل تخيم علينا، والمجرة في قبة السماء تذكرني بالغاية التي جئت من أجلها: العثور على سيّفي.

ثم علّمني بتروس تمرين الماء.

ثم قال بتروس:

— أنا متعب وأريد النوم. أما أنت، فمارس التمرين الآن. أيقظ حدسك وجانبك الخفي. لا تهتم بالمنطق، فالماء عنصر سائل، ولن يسمح لشيء بأن يهيمن عليه بسهولة. سيتيح لك الماء بأن تقيم، تدريجاً ودون عنف، صلة جديدة بالكون.

وختم، قبل أن يدخل الفندق:

— لن يكون هناك كلب دوماً لمساعدتنا.

استمتعت قليلاً بنداوة الليل وصمته. كان الفندق بعيداً عن كل مكان مأهول. ما من أحد يعبر الطريق أمامي. تذكرت صاحب الفندق الذي يعرف «إيبانيما»، والذي كان يستغرب وجودي هنا في هذا المكان القاحل، الذي تحرقه الشمس المسعورة كل يوم.



## نقطة الحدس (أو تمرين الماء)

شكل بركة ماء صغيرة فوق مساحة ملساء لا تمتص الماء، وتأملها لبعض الوقت. ثم حاول أن تلهو بالماء، دون أي التزام أو هدف. ارسم أشكالاً لا معنى لها، ومارس هذا التمرين، طوال أسبوع، بحيث يستغرق كل مرة ما لا يقل عن عشر دقائق.

لا تبحث عن نتائج عملية. فهذا التمرين يوقظ حدسك تدريجاً. وعندما يتجلى هذا الحدس في ساعات أخرى من اليوم، ثق به دائماً.

www.rewity.com  
By Dalyia

كنت متناعساً، وحاولت أن أنفذ التمرين دونما إبطاء. صببت بقية الماء في الزجاجاة على الأرض الإسمنتية، فارتسمت بركة ماء في الحال.

لم يكن هناك أي صورة أو شكل. ولم يكن هنا ما أبحث عنه. كانت أصابعي تجول في الماء الباردة، وبدأت أشعر بنوع من الخدر، كمثّل الخدر الذي يسري في أوصالنا لدى مشاهدة النار. ما عدت أفكر بشيء. كنت فقط ألهو وأتسلى ببركة الماء المائلة، وأمامي رسمت بعض الخطوط على الضفاف. بدت وكأنها تتحول إلى شمس مبللة. وللحال، امتزجت الخطوط وتشابكت. بسطت يدي، وضربت صفحة البركة، فتمذنت غامرة الأرض بالنثار الذي بدا كنجوم سوداء فوق خلفية رمادية. استغرقت في هذا التمرين الغريب، هكنا دون هدف، واستمتعت به. أحسست أن أفكاري قد توقفت تماماً، وأن روحي فرغت منها. وهذا ما لم أكن أبلغه إلا بعد ساعات طويلة من التأمل والاسترخاء. وبموازاة ذلك، كان شيء ما في دخيلتي، يقول لي إن هناك قوة تتشكل، وتنتهي للتجلي.

بقيت وقتاً طويلاً، وأنا ألهو ببركة الماء. صعب عليّ أن أضع حداً للتمرين. لو أن بتروس علّمني تمرين الماء في بداية الرحلة، لوجدت هذا مضيعة للوقت بالتأكيد. لكن، الآن، وقد بدأت أتكلم بلغات مختلفة وأطرد الشياطين، فإن هذه البركة الصغيرة كانت تقيم اتصالاً، ولو هشاً، بالمجرة: تعكس نجومها، وترسم أشكالاً لا أتوصل إلى فهمها، وتمنحني الشعور ليس بإضاعة الوقت، بل بخلق «شئ» جديد للتواصل مع العالم. إنه الشئ السري للروح واللغة التي نعرفها، ولكن قليلاً ما نسمعها.

عندما أدركت ذلك، كان الوقت متأخراً: فقد أطفئت الأنوار أمام الباب. دخلت دون ضجة، ثم أويت إلى فراشي، واستدعيت مرة أخرى أستران، فظهر لي بوضوح أكبر. حدثته لبعض الوقت

عن سيفي وأهدافي في الحياة. لم يقل شيئاً. لكن بتروس أنباني  
أن أستران سيصبح، خلال الاستدعاءات، حضوراً حياً، وجباراً إلى  
جانبني.

## الزواج

\*\*\*

تُعدّ «لوغرونيو»، إحدى أكبر المدن التي يجتازها الحجاج، سالكو  
طريق «مار يعقوب». ونحن، إلى الآن، لم نعبر إلا مدينة واحدة  
مهمة، هي «بابمبيلونا»، ولكننا لم نقض ليلتنا فيها. بعد ظهيرة  
ذلك اليوم، وصلنا إلى «لوغرونيو»، وكان ثمة احتفال كبير  
يتحضر فيها. اقترح بتروس أن يمكث هذه الليلة على الأقل.

كنت قد ألفت صمت الريف والحرية، فلم أستسغ الاقتراح. مرّت  
خمسة أيام على حادث الكلب. وكنت، كلّ مساء، أستدعي  
أستران، وأقوم بتمرين الماء. بدأت أشعر أنني أكثر هدوءاً، وأني أعي  
أكثر الأهمية التي ترتديها طريق «مار يعقوب»، حيال ما ساحقّه  
لاحقاً. وبالرغم من قحط المناظر، والغذاء الذي لم يكن جيداً في  
الغالب، والتعب الذي سببته لي أيام المسير الطويلة، فإنني كنت  
أعيش في حلم حقيقي.

اختفى كل ذلك يوم وصولنا إلى «لوغرونيو». فالهواء فيها لم  
يكن الهواء الدافئ والنقي الذي ألفناه في الأرياف الداخلية من البلاد،  
بل هواء مدينة مزدحمة بالسيارات والصحافيين وفرق التلفزيون.

دخل بتروس أول حانة، ليسأل عما يجري.

أجابه أحد الرجال:

— أيعقل أنك لا تعرف؟ إنه يوم زفاف ابنة الكولونيل م. وسوف  
تقام مأدبة شعبية في الساحة، ونحن بهذه المناسبة، نقفل متاجرنا  
قبل الموعد المعتاد.

لم نتمكن من العثور على غرفة في الفندق. لكن عجوزين، عايننا الضدفة المعلقة على حقيبة بتروس، اقترحنا أن نبيت عندهما. قمت بالاستحمام، وكذلك فعل، ولبست البنطال الوحيد الاحتياطي الذي جلبته معي. ثم خرجت وبتروس.

في الساحة، كان عشرات الخدم الذين يضعون لمساتهم الأخيرة على الطاولات الموضوعة في كل جانب، والعرق يتصبب تحت بذلاتهم السموكينغ، أو لباسهم الأسود. كان التلفزيون الإسباني يبث بعض الاستعدادات للزفاف. فولجنا شارعاً يؤدي إلى كنيسة «مار يعقوب الملكي»، حيث سيقام حفل الزفاف.

كان المدعوون في أحسن هندام، وقد خشيت النسوة أن تسيل مساحيق زينتهن بسبب الحز. وكان الأطفال بملابسهم البيضاء يدخلون الكنيسة دون توقف، وقد بدا عليهم الاستياء. انفجرت مفرقات الألعاب النارية، وتوقفت سيارة ليموزين سوداء أمام البوابة الرئيسية: وصل الخطيب، لكننا لم نستطع اختراق الحشد في الكنيسة، فقررنا الرجوع إلى الساحة. ذهب بتروس للقيام بجولة. وجلست فوق أحد المقاعد منتظراً انتهاء حفل الزفاف، وابتداء الوليمة. إلى جانبي، كان بائع فشار ينتظر، هو أيضاً، نهاية الاحتفال، ليزيد مبيعاته.

سألني:

— هل أنت أيضاً مدعو؟

— لا، نحن حجاج في طريقنا إلى «كومبوستيلا».

— هناك قطار ينطلق مباشرة من «مدريد» إلى «كومبوستيلا». وإذا سافرت يوم الجمعة، فلکم الحق في نزول في الفندق مجاناً.

— لكننا نقوم بالحج.

نظر إليّ البائع، ثم أجاب بلهجة رصينة:

— إن الحج أمر خاص بالقديسين.

فضلت السكوت. وراح العجوز يروي أنه زوج ابنته، وأنها تعيش الآن منفصلة عن زوجها.

قال:

— في أيام فرانكو، كان الاحترام أكبر للعائلة. واليوم لا أحد يكثر لهذا الأمر.

لم أستطع أن أجعل هذا الكلام يمر دون تعليق، مع أنني كنت أعرف أن ليس مستحسنًا التحدث بالسياسة على أرض أجنبية. قلت: — فرانكو كان ديكتاتوراً، لا يمكن لشيء من ذلك الزمن أن يتصف بالإيجابية.

احمرّ وجه العجوز غضباً، وقال:

— من أنت لتتكلم هكذا؟

— أعرف قصة بلادك. أعرف أن شعبك ناضل من أجل الحرية. وقرأت الكثير عن جرائم الحرب الأهلية في إسبانيا.

— لقد شاركت في الحرب، ولي الحق في الكلام، لأن دمّ عائلتي أهرق. أما التاريخ الذي قرأته، فلا يهمني. ما يهمني هو ما جرى لعائلتي. حاربث فرانكو، ولكن، بعد انتصاره، تحسّنت حياتي. لست فقيراً، فلديّ عربة فشار، بيد أن هذه الحكومة الاشتراكية لم تساعدني على امتلاكها. وأنا اليوم أعيش في حال أسوأ من حال البارحة.

تذكرت ما قاله بتروس عن أن الناس يكتفون بالقليل القليل في حياتهم. لم أحب. وعمدت إلى تغيير مقعدي.

وافاني بتروس. فأبلغته حديثي مع بائع البوب الفشار.

علق قائلاً:

— أمر عظيم أن نجادل، حين نريد أن نقنع أنفسنا بما نقول. أنا عضو في الحزب الشيوعي الإيطالي، ويفاجئني هذا الجانب الفاشي لديك.



سألت متعجباً ومستنكراً، في آن؛

– عن أي جانب فاشي تتحدث؟

– ساعنتُ هذا العجوز على الاقتناع بأن نظام فرانكو كان النظام الأفضل. ربّما لم يكن يعرف تماماً لما أحسّ بذلك من قبل. إلا أنه الآن عرف بالتأكيد.

– لكن أنا المفاجأ. لم أكن أعرف أن أعضاء الحزب الشيوعي الإيطالي يؤمنون بمواهب الروح القدس.

ضحكنا. ثم انفجرت الألعاب النارية من جديد، وجاءت فرقة موسيقية ووقفت فوق المنصة التي أعلنت في الساحة. دوزن الموسيقيون آلاتهم. فالاحتفال سيبدأ بين لحظة وأخرى.

نظرت إلى السماء، كان الليل يهبط، كما أن بعض النجوم قد تألّلت. اقترب بتروس من أحد الخدم، وعاد حاملاً كوبين من البلاستيك ممتلئين خمرًا.

قال بتروس، وهو يقدم إليّ الكوب؛

– اشرب قليلاً، قبل أن يبدأ الاحتفال. فهذا فال خير، وهو ينسبك أيضاً بائع الفشار العجوز.

– لم أعد أفكر فيه.

– لكن عليك أن تفعل. إن ما حدث هو رسالة رمزية تشير إلى تصرف مغلوط. نحن نحاول دوماً أن نتخذ أتباعاً لنا يوافقون على تصوراتنا عن الكون. ونعتقد أن ازدياد عدد الناس الذين يفكرون مثلنا يجعل من تصوراتنا حقيقة. مع أن الأمر لا علاقة له بذلك.

أنظر من حولك. ثمة احتفال كبير يتحضر. وأشياء كثيرة أخرى سيحتفل بها في الوقت نفسه: حلم الأب الذي كان يريد تزويج ابنته، حلم الفتاة التي كانت تريد أن تتزوج، حلم الخطيب، وهذا جيّد. جيّد أن يؤمنوا بهذا الحلم، ويثبتوا للجميع أنهم بلغوا أهدافهم. ليس هذا احتفالاً لإقناعنا بأي شيء. ولهذا، فهو يرفّه عن

النفس. كل شيء يشير إلى أن هؤلاء الناس خاضوا «الجهاد الحسن» من أجل الحب.

– لكن أنت، أيضاً، يا بتروس تحاول إقناعي؛ تقودني على طريق «مار يعقوب».

نظر إليّ ببرودة، وقال؛

– أعلمك ممارسات «رام». لكنك لن تعثر على سيفك إلا إذا اكتشفت أن في قلبك الطريق والحق والحياة.

وأشار بإصبعه نحو السماء، حيث كانت النجوم ساطعة، ثم قال؛

– المجرة تدل على الطريق حتى «كومبوستيلا». ليس هناك بين قادر على تجميع كل هذه النجوم، فلو كانت الحال كذلك، لأصبح الكون مكاناً هائلاً فارغاً، لفقد معنى وجوده. إنّ كلّ نجمة – كل إنسان – تمتلك مساحتها وميزاتها الخاصة بها. هناك نجوم خضراء وصفراء وزرقاء وبيضاء. هناك منخبات وشهب ونيازك وحلقات وسديم. إن ما يبدو من الأرض أشكالاً هندسية، مكوّنة من نقاط صغيرة متساوية، يتألف، في الحقيقة، من ملايين العناصر المختلفة المبعثرة في فضاء يتجاوز الإدراك البشري.

انفجرت باقة من الألعاب النارية، وغمر نورها الفضاء، حاجباً النجوم لبعض الوقت، ثم انهمر شلال من الجزيئات الخضراء البزاقة.

قال بتروس، على سبيل الاستنتاج؛

– من قبل، سمعنا ضجة الألعاب النارية فقط، لأن الوقت كان نهاريّاً، أما الآن، فنستطيع رؤية نورها. هنا هو التغيير الوحيد الذي يستطيع الإنسان أن يصبو إليه.

خرجت العروس من الكنيسة، وسط هتاف الحشد الذي رماها

بالأرز. كانت العروس فتاة نحيلة في حوالى السابعة عشرة، تتأبط ذراع فتى يرتدي لباس سهرة. اتجه الحشد إلى الساحة. هتفت الفتيات قربنا:

– هاكم الكولونيل م. أنظروا إلى ثوب العروس. ما أجملها!

اقترب المدعوون من الطاولات، وقدم الخدم النبيذ، وعزفت الأوركسترا. تجمع حشد من الصبيان الزاعقين حول البائع، باسطين قطعهم النقدية، ثم سارعوا إلى نشر أكياس الفشار على الأرض. قلت في نفسي: «إن كل ما يجري في سائر أنحاء العالم لا يعني لسكان «لوغرونيو»، هذا المساء على الأقل: لا خطر نشوب حرب نووية، ولا البطالة، ولا الجرائم. كل ذلك لم يعد موجوداً. ففي هذا المساء عيد وطاولات بُسطت في الساحة من أجل الشعب، وكل تتعاضد نفسه أمام ناظره.

اتجه الفريق التلفزيوني ناحيتنا، فأخفى بتروس وجهه. تقدم الفريق باهتمام بالغ باتجاه أحد المدعوين الذي كان واقفاً قربنا، وسرعان ما تعرّفت إليه: إنه مانولو، مدير فريق إسبانيا خلال دورة كأس العالم التي أُجريت في المكسيك. بعد انتهاء المقابلة، ذهبت للقاءه. قلت له إنني برازيلي فتظاهر بالاستياء، معترضاً على هدف سرقه البرازيليون خلال أول مباراة في كأس العالم<sup>(١)</sup>. لكنه صافحني بعد ذلك، مؤكداً أن البرازيل ستقدم من جديد أفضل لاعبي العالم.

سألته، وقد تذكرت شيئاً لفت انتباهي خلال البث المباشر لمباريات كأس العالم:

– كيف يمكنك أن تتابع مجرى المباراة، فيما تركض دون توقف على أرض الملعب لتنشط الفريق؟

(١) خلال مباراة الفريقين الإسباني والبرازيلي التي أُجريت ضمن إطار دورة كأس العالم في المكسيك عام ١٩٨٦، ألقي هدف إسبانيا، لأن الحكم لم يَر أن الكرة لامست خط التماس قبل أن تنحرف وتدخل الرمي. وخرجت البرازيل منتصرة بهدف وحيد.

– يكفي أنني أجد متعتي هنا: في مساعدة الفريق على الإيمان بالنصر.

وختم قائلاً، كما لو أنه كان هو أيضاً مرشداً على طرقات «مار يعقوب».

– إن الفريق، الذي لا يملك الإيمان، يفوت على ناديه فرصة الانتصار.

بعد قليل، احتشد أناس آخرون حول مانولو. رحبت أفكر في أقواله: إن مانولو يعرف كيف يخوض «الجهاد الحسن» حتى ولم يذهب للحج على طريق «مار يعقوب».

عثرت على بتروس مختبئاً في أحد أركان الساحة، وقد بدا عليه الانزعاج من وجود الفرق التلفزيونية. عندما أطفئت الكشافات، ظهر أخيراً من وراء الأشجار، متنهداً بارتياح. طلبنا كأسين آخرين من النبيذ. وفي حين أنني أعددت لي صحناً من الرقاقات، اهتدى بتروس إلى طاولة، فجلسنا إلى جانب المدعوين الآخرين.

اقتطع العروسان قالباً كبيراً من الحلوى، وانطلقت الهتافات.

قلت بصوت عالٍ:

– لا بدّ أنهما يحبّان أحدهما الآخر.

وعمد أحد الرجال الجالسين إلى جانبنا، وكان يرتدي زياً قاتماً، إلى القول، مزائداً:

– بالطبع، يحبّان أحدهما الآخر. هل رأيت أحداً يتزوج لسبب آخر؟

احتفظت بالجواب لنفسي، متذكراً كلمات بتروس بشأن بائع الفشار. لكن مرشدي لم يدع الملاحظة تمر دون تعليق، فقال:

– عن أي نوع من الحب تتحدث: الحب الذي يستجيب للغريزة، أم الحب المختص بالبشر، أم الحب الإلهي؟



نظر إليه الرجل مرتبكاً. نهض بتروس، ملأ كوبه من جديد، واقترح علي أن نقوم بجولة، لنزيل عن أرجلنا ما أصابها من خمول.

قال بتروس:

— في اللغة اليونانية، ثلاث كلمات للإشارة إلى الحب: «إيروس» و«فيلوس» و«أغابي»<sup>(١)</sup>. اليوم تشاهد أمامك تجلياً لـ «إيروس»، ذلك الشعور بالحب الشهواني المحتدم بين شخصين.

ابتسم العروسان للصور، وتقبلاً التهنئات.

أضاف بتروس، وهو يشير إلى العروسين:

— «أجل، يبدو أنهما يحبّان أحدهما الآخر. ويعتقدان أن غرسه حبهما ستواصل نموها.

«قريباً، ويذهبان ليكافحا وحدهما في الحياة، ويبنيا عائلة، ويتشاركا في الغامرة نفسها. في ظل هذا الواقع، يتعاظم حبهما، ويكونان جديرين به. هو سيتابع مهنته في الجيش، وهي عليها أن تتقن الطبخ، وتكون ربّة منزل ممتازة، لأنها نشأت منذ الطفولة على ذلك. ستكون رفيقته، وسينجبان أولاداً. وإذا خاضا «الجهاد الحسن، فلكي يبنيا شيئاً معاً. عندئذ، ورغم كل الأفخاخ، لن يكفأ أبداً عن أن يكونا سعيدين.

«إلا أن القصة، التي أخبرتك إياها للتوّ ربما اتخذت مجرى مختلفاً. فقد يتملّكه شعور بأنه فقد حريته، أو أنه ليس حراً بما يكفي لكي يُظهر كل «الإيروس»، وكل الحب الذي يشعر به، لنساء أخريات. وقد تعي، هي، أنها ضحّت بعملها وبحياة مشرقة

(١) يميّز بتروس بين ثلاثة أنواع من الحب: «إيروس» Eros أو الحب الشهواني المتعلّق بالغريزة، و«فيلوس» أو الصداقة التي تجمع بين البشر، و«أغابي» Agape أو المحبة بمعناها المسيحي الواسع كإعطية إلهية (الترجمة).

لتصير تابعة لزوجها. عندئذ، بدل فعل الخلق المشترك، يشعر كل منهما أنه اغتصب في طريقته للحب. لن يظهر «إيروس»، أي روح الحب الذي جمعهما، إلا جانبه السيئ لهما. ويصبح الحب، الذي قدره الله للإنسان على أنه أنبل شعور على الإطلاق، مصدراً للحقد والدمار.

نظرْتُ من حولي: كان إيروس حاضراً في قلب العديد من الأزواج. إن تمرين الماء أيقظ لغة قلبي، وبدأت أرى الناس بطريقة مختلفة. لعلّ السبب عائد إلى أيام الوحدة الطويلة في الريف، أو لعلّها ممارسات «رام». بيّ استطيع تمييز «الإيروس» الجيد من «الإيروس» السيئ، تماماً كما وصفه لي بتروس.

أضاف مرشدي، الذي أراد لفت انتباهي إلى الشيء نفسه:

— أنظر ما أغرب هذا! سواء أكان «إيروس» جيداً أم سيئاً، فهو يتخذ مظهراً مختلفاً، تبعاً لكل إنسان، تماماً كالنجوم التي حدثتك عنها منذ نصف ساعة. لا أحد يمكنه أن يفلت من قبضة «إيروس». نحن جميعاً في حاجة إلى حضوره، حتى لو دفعنا، في بعض الأحيان، للابتعاد عن العالم، والانكفاء داخل وحدتنا بالذات.

بدأت فرقة الأوركسترا بعزف موسيقى الفالس. اتّجه الناس إلى حلبة إسمنتية أمام المنصة، وأخذوا يرقصون. كان الجميع ثملين، وبدوا سعداء. لاحظت وجود فتاة شابة ترتدي فستاناً أزرق، لا بدّ أنها انتظرت هذا العرس من أجل رقصة الفالس بالذات، لأنها تريد أن ترقص برفقة أحد تحلم بأن يعانقها، منذ بلوغها سن المراهقة. كانت تلاحق بنظراتها حركات فتى أنيق يرتدي لباساً فاتح اللون. وكان هو بصحبة أصدقاء له مسترسلين في حديث طويل، وغير منتبهين إلى أن أمتاراً قليلة تفصلهم عن فتاة ترتدي ثوباً أزرق، وتنظر إلى أحدهم باهتمام بالغ.

فكرت بالمدن الصغيرة، بالزيجات، التي تحلم بها الفتيات منذ نعومة أظفارهن والتي تجمعهن بالفتى المختار.



لاحظت الفتاة ذات الثوب الأزرق أنني أراقبها، فغادرت الحلبة. وبدوره جال الفتى بنظراته بحثاً عنها. وعندما رأى أنها برفقة فتيات أخريات، عاد إلى حديثه الحماسي.

لفت انتباه بتروس إلى الفتى والفتاة. لاحق، لبعض الوقت، لعبة النظرات بينهما، ثم ركز انتباهه، من جديد، على النبيذ الذي يحتسيه.

قال، معلقاً:

— يتصرفان وكأنهما خجلان من إظهار حبهما.

قبالتنا، وقفت صبية تحقّق إلينا. كانت في منتصف سننا. رفع بتروس كأسه ليشرب نخبها، فضحكت، وقد بدا عليها بعض الانزعاج. أومات بحركة منها أن والديها موجودان هنا، وكأنها تعتذر لعدم تمكّنها من الاقتراب أكثر.

قال بتروس:

— هذا هو الجانب الجميل من الحب. الحب الذي يتحدّى، الحب لشخصين غريبين أكبر سناً، جاء من البعيد، وغداً يرحلان. الحب لعالم توذ هي أيضاً اكتشافه.

لاحظت من صوته أن الخمر قد بدأت تؤثر فيه قليلاً.

وأعلن مرشدي، بنبرة أقوى:

— اليوم، سنتحدث عن الحب! الحب الحقيقي الذي ينمو دون توقف، يهزّ العالم، ويجعل الرجل حكيماً.

كانت هناك امرأة على مقربة منا، متأنقة للغاية، ولا يبدو عليها أنها تولي الحفلة أنني اهتمام. كانت تنتقل من طاولة إلى طاولة، وتجمع الأقداح والصحون والشوك.

قال بتروس:

— أنظر إلى هذه المرأة التي لا تكفّ عن أعمال التنظيف. إن هناك عدّة جوانب يتجلى «الإيروس» من خلالها، وها هو أحدها تراه

الآن. إنه الحب المحروم الذي يتحقّق من خلال شقاء الآخرين. ستذهب تلك المرأة لتقبيل العريس والعروس، لكنّها تهمس، في داخلها، أنهما لم يخلقا أحدهما الآخر. وهي تحاول أن تصنع النظام في العالم، لأنها هي نفسها مشوشة.

ثم أشار إلى رجل وزوجته التي بالغت في زينتها، وفي تصفيف شعرها:

— وانظر هناك، إنه الحب المسلّم به: الحب الاجتماعي المجرد من أي انفعال. رضيت المرأة بدورها، وقطعت كل الصلات بالعالم وبـ «الجهاد الحسن».

— انت لاذع جنّاً يا بتروس، هل سينجو أحد هنا من لسانك السليط؟

— أجل، بالتأكيد. الفتاة التي نظرت إلينا. المراهقون الذين يرقصون ولا يعرفون إلا «الإيروس» الجيد. فإذا لم يتأثر هؤلاء بالخبت الذي هيمن على علاقات الحب في الجيل السابق، فسوف يكون العالم مختلفاً تماماً.

ثم أشار إلى زوجين عجوزين يجلسان أمام إحدى الطاولات:

— هذان أيضاً. لم يستسلما للخبت، كما فعل غيرهما. ويبدو من هيئتهما أنهما من المزارعين. أجبرهما الجوع والحاجة على العمل معاً. وتعلّما تعاليم «رام» التي تعرفها، دون أن يكونا قد سمعا بها، لأنهما غرّفا قوّة حبهما من عملهما بالذات. هنا يكشف الحب عن أجمل وجوهه، لأنه متحد بـ «فيلوس».

— وما هو «فيلوس»؟

— إنه الحب الذي يتخذ شكل الصداقة. وهو ما أشعر به تجاهك وتجاه الآخرين، عندما تنطفئ شعلة «إيروس»، وهو الصداقة التي تبقى الناس متحدين.

— وماذا عن «أغابي»؟

– ليس اليوم مناسباً للتحنث عن الحب الإلهي. إن «أغابي» موجود في «إيروس» وفي «فيلوس». لكن هذا مجزء كلام. تعال نتسلّى، ونرفه عن أنفسنا في هذا الاحتفال، بعيداً عن الحب الملتهم.

وصبّ بتروس لنفسه الخمر من جديد.

حولنا، كانت الفرحة تنقل عدواها. كان بتروس سكران. وهذا صدمني قليلاً في البداية. لكنني تذكرت ما قاله لي، بعد ظهيرة أحد الأيام، من أن ممارسات «رام» تفقد معناها إذا لم يستطع الناس العاديون تنفيذها. بدا لي بتروس، هذه الليلة، رجلاً كالآخرين. كان رفيقاً وصديقاً يربّت على أكتاف الناس، ويتحنث إلى كل من يوليه اهتماماً. ثم ثمل تماماً، واضطرت إلى إسعافه، لإرجاعه إلى الفندق.

أثناء المسير، تنبّهت إلى الوضع الذي أنا فيه: كنت أنا أقود مرشدي.

وأدركت أن بتروس، طوال الرحلة التي قمنا بها معاً، لم يبذل أدنى جهد ليبدو أكثر تعقلاً مني أو أظهر أو أفضل. اكتفى بنقل تجربته التي خاضها مع تعاليم «رام» إلّي. كما أصرّ على أن يظهر لي أنه إنسان ككل الناس، قادر على الشعور بـ «إيروس» و«فيلوس» و«أغابي».

وهنا ما عزّز قواي. إن طريق «مار يعقوب» مفتوحة للناس العاديين.

\*\*\*

## الورع

«لو كنت أنطق بالسنة الناس والملائكة، ولو كانت لي النبوة وكان لي الإيمان كله حتى أنقل الجبال، ولم تكن فيّ المحبة، فليشت بشيء».

عاد بتروس يستشهد بمار بولس. ذلك أنه، كان يرى هذا الرسول الوسيط السريّ الأكبر لرسالة المسيح. كنا في فترة بعد الظهر نصطاد السمك، بعد أن مشينا كل الصبيحة. لم تعلق أي سمكة في الصنارة، ولكن مرشدي لم يول ذلك اهتماماً. فهو يرى الصيد رمزاً للعلاقة بين الإنسان والعالم: نعرف ماذا نريد، ونبلغه إذا أصررنا. ولكن الوقت الضروري، الذي يلزمنا لبلوغ الهدف، يتعلق بالمعونة التي يقدمها إلينا الله.

قال:

«من الجيد القيام بنشاط بطيء قبل اتخاذ قرار هام في الحياة. فالرهبان ينصتون إلى الصخور، وهي تكبر. أما أنا، فأفضل الصيد».

في هذه الساعة وفي هذا الحر، تفقد حتى الأسماك الحمراء الكسلى، التي تسبح قرب سطح الماء، قدرتها على مضغ الطعام. وسواء أكانت الصنارة خارج الماء أم داخله، فالنتيجة واحدة، ففضّلت أن أترك الصنارة، وأجول في الضواحي. مشيت حتى وصلت إلى مقبرة قديمة مهجورة، لها باب غير متناسق تماماً. ثم وافيت بتروس، وسألته عن المقبرة.

أجابني:

— إن ذاك الباب بقي من آثار مضافة حجاج قديمة. لكن المضافة هُجرت، فخطر لأحدهم، لاحقاً، أن يستفيد من الواجهة، ويبني المقبرة.

— والمقبرة، أيضاً، هُجرت.

— أجل. فالأشياء لا تدوم كثيراً في هذه الحياة.

قلت له إنه، البارحة، كان قاسياً جداً عندما أصدر أحكامه على الناس في الاحتفال. ذهش بتروس لكلامي. وقال إن ما تحدثنا به البارحة يتعلّق بما عرفناه في حياتنا الشخصية، لا أكثر ولا أقل. كلنا نلاحق «إيروس». وعندما يريد «إيروس» أن يتحوّل إلى «فيلوس»، تجد أن الحب غير ضروري. لكننا نجهل أن الحب المتعلّق بالبشر، أي «فيلوس»، هو الذي يقودنا إلى الشكل الأسمى للحب، أي الحب الإلهي («أغابي»).

قلت له:

— حنّني بالحب الإلهي.

أجابني بتروس إنه لا يستطيع التحدّث به، ذلك أنه شعور يُعاش. وإذا كان الظرف مناسباً، فسيُظهر لي، اليوم، أحد جوانب الحب الإلهي. ولكن، من أجل هذا، يجب على الكون أن يتصرّف كما تصرّفنا خلال الصيد: أن تتضافر كل الجهود لتجري الأمور بشكل جيد.

— إن «الرسول» يساعذك. لكن هناك شيئاً يتخطى ميدان «الرسول» والرغبات، ويتخطاك أنت.

— ما هو؟

— الشرارة الإلهية. وهنا ما يدعو الناس الحظّ.

في طريق «مار يعقوب» كروماً وحقولاً محروثة، مقفرة في هذا الوقت. مرزنا بالطريق الرئيسية التي كانت، هي أيضاً، مقفرة. ثم رجعنا إلى الأجمات. لمُحْتُ، من بعيد، قفّة «سان لورنزو» في مملكة «كاستيليا». إن أشياء كثيرة قد تغيرت في داخلي منذ التقيت بتروس قرب «سان جان بيه دو وبور»، فقد غابت، كلياً، عن ذهني: مشاغلي في البرازيل، أعمالي، ولم يبق سوى الهدف من رحلتي. وكنت أتحدّث بشأنه كلّ ليلة مع أستران الذي كان ظهوره يتّضح أكثر فأكثر. توضّلت أن أراه، على الدوام، جالساً قربي، ولاحظت أن لديه رعشة في عينه اليمنى، وأنه يبتسم، باحتقار، في كلّ مرة أرّد فيها على مسامعه بعض الأشياء، لأنّك أنه فهمها. قبل ذلك بأسابيع، وفي الأيام الأولى لتحليداً، خشيت ألا أصل إلى نهاية المطاف. وحين مررنا بمدينة «رونسوفو»، شعرت بسام عميق حيال هذا كلّ. رغبت في الوصول سريعاً إلى «سانتياغو»، لأستعيد سيفي، وأرجع، من ثمّ، لأخوض ما كان يسمّيه بتروس «الجهاد الحسن»<sup>(١)</sup>. أما الآن، فإن الصلات التي تربطني بالحضارة، والتي قطعناها مرغماً كانت شبه منسية. وبات كل ما يشغلني الآن هو الشمس الساطعة فوق رأسي والحماس، لأتعرّف إلى الحب الإلهي.

انحدرنا داخل أخدود، اجتزنا جدولاً، وبذلنا جهداً مُضنياً لبلوغ الضفة المواجهة. لا بدّ أن هذا الجدول كان، في السابق، يحفر التربة بحثاً عن أعماق الأرض وأسرارها. أما الآن، فلم يعد إلا ساقية يمكن عبورها سيراً على الأقدام. لكن أثر النهر، أي الحفرة الهائلة التي شقّها، بقيت: «كل شيء في هذه الحياة يدوم قليلاً»، كما قال بتروس منذ بضع ساعات.

— بتروس، هل أحببت كثيراً؟

(١) في الواقع، اكتشفت لاحقاً أن التعبير مأخوذ من مار بولس الذي يقول فيه: «وقد جاهدت الجهاد الحسن، وأتممت شوطي وحفظت الإيمان...»

عندما بدأت الشمس بالانحدار، أكملنا طريقنا. كنا نصادف



جاءني السؤال عفو الخاطر حتى أنني، أنا نفسي، فوجئت بجرأتي.  
فإلى الآن، لم أكن أعرف إلا القليل عن حياة مرشدي الخاصة.

— عرفت الكثير من النسوة، إذا كان هذا ما ترمي إليه.  
أحببتهن جميعاً، لكنني لم أشعر بالحب الإلهي إلا مع اثنتين منهن.  
أخبرته أنني، أنا أيضاً، أحببت كثيراً في حياتي، وأني بدأت  
أقلق لعدم قدرتي على الاستقرار مع امرأة واحدة. وإنني، إذا تابعت  
على هذا النحو، فسانتهي عجوزاً وحيداً، وهذا يخيفني.

قال بتروس ضاحكاً:

— استمِل ممرضة. لكنني، في النهاية، لا أعتقد أنك تبحث في  
الحب عن اعتكاف مريح.

كانت الساعة التاسعة مساءً عندما هبط الليل. تجاوزنا حقول  
الكرمة، ووجدنا أنفسنا أمام مشهد شبه صحراوي. نظرت من  
حولي، ولحيت في البعيد كنيسة منحوتة في الصخر، شبيهة  
بكنائس عديدة صادفناها في طريقنا. تقدّمنا قليلاً، مبتعدين عن  
النقاط الصفراء، ومتجهين مباشرة إلى البناء الصغير.

وعندما اقتربنا من الكنيسة، هتف بتروس باسم لم أفهمه،  
وتوقف لسمع الجواب. لكننا لم نسمع شيئاً. نادى بتروس من  
جديد، ولم يجب أحد.

قال:

— لنذهب.

لم يكن هناك إلا أربعة جدران مطلية بالكلس. كان الباب  
مفتوحاً أو، بالأحرى، لم يكن هناك باب، بل بوابة صغيرة يبلغ  
ارتفاعها خمسين سنتيمتراً، وتستند إلى مفصلة واحدة. في الداخل،

كان هناك فرن حجري، وبضع قصعات منصّدة بعناية فوق  
الأرض. احتوت اثنتان منها على قمح وبطاطا.

جلسنا بصمت. أشعل بتروس سيجارة، واقترح أن ننتظر قليلاً.  
شعرت بالتعب يدب في ساقي. لكن شيئاً ما في هذه الكنيسة  
كان يثير أعصابي، بدل أن يهزئ روعي. ولولا وجود بتروس،  
لأخافني.

سألت لأقطع حبل الصمت الذي شقّ علي احتماله:

— أياً يكن الشخص الذي يعيش هنا، هل لي أن أعرف أين ينام؟

أجاب بتروس وهو يشير إلى الأرض العارية:

— هنا حيث تجلس.

أردت أن أغير مكاني لكنه طلب مني البقاء حيث أنا. لا بدّ أن  
الحرارة قد انخفضت قليلاً، لأنني شعرت بالبرد.

انتظرنا قرابة الساعة. بعد ذلك، نادى بتروس مرتين أيضاً ذلك  
الاسم الغريب، ثم سكّت. وفي اللحظة التي اعتقدت فيها أننا سنهم  
بالرحيل، بدأ يتكلّم، وهو يطفئ سيجارته الثالثة:

— «هنا يوجد أحد تجلّيات الحب الإلهي. وهو ليس التجلّي الأوحى،  
بل الأنقى. فالحب الإلهي هو الحب الكلّي، الحب الذي يلتهم ذلك  
الذي يشعر به. إن مَنْ غمره الحب الإلهي يرى أن لا شيء إلا الحب  
يرتدي أهمية في هذه الحياة. إنه الحب الذي شعر به يسوع تجاه  
البشر، وكان حبّاً عظيماً جداً، زلزل النجوم، وغير مجرى التاريخ  
البشري. وقد استطاعت حياته المتوخدة أن تفعل ما عجز الملوك  
والجيوش والإمبراطوريات عن فعله.

«خلال آلاف السنين من تاريخ الحضارة، شغف أناس كثيرون بهذا  
الحب الذي يلتهم كلّ شيء. كان لديهم الكثير ليعطوه، فيما  
الناس لا يطلبون إلا القليل. فرأوا أنفسهم مجبرين على الالتجاء إلى  
الصحارى والأماكن المنعزلة، لأن الحب كان كبيراً إلى درجة أنه  
بذلهم، وأصبحوا النشاك القديسين الذين نعرفهم اليوم.

«أما أنا وأنت، اللذان يشعران بشكل آخر من الحب الإلهي، فإننا قد نرى الحياة على هذه البسيطة تبدو قاسية مرعبة. ومع ذلك، فإن الحب الذي يلتهم، يدفع بملتسميه إلى التهاون بكل شيء، كل شيء على الإطلاق. وهؤلاء لا يعيشون إلا ليفنوا في الحب.

أخبرني بتروس أن رجلاً كان يعيش هنا، يدعى ألفونسو، التقاه خلال زيارته الأولى إلى كومبوستيلا، فيما كان يقطف الثمار. وكان مرشده، وهو رجل أكثر رؤيوية منه، صديقاً لألفونسو. وقد مارس الثلاثة طقس الحب الإلهي، المتمثل بتمرير «الكرة الزرقاء». قال لي بتروس إن هذه التجربة كانت إحدى أهم التجارب في حياته، وإنه حين يمارس هذا التمرين الآن، يفكر في الكنيسة وفي ألفونسو. كان الانفعال واضحاً في صوته، ولأول مرة، لاحظت ذلك.

رَدَدَ قَائلاً:

— «الحب الإلهي هو الحب الذي يلتهم». تلفظ بهذه العبارة، وكأنها أفضل تعريف لهذا النوع الغريب من الحب. وأضاف:

«قال مارتن لوثر كينغ، ذات مرة، أن السيد المسيح لمَّحَ إلى الحب الإلهي، عندما كان يتحدث بمحبة الإنسان لأعدائه. من المستحيل أن نحُب أعداءنا، وأولئك الذين يستببون لنا الأذى، ويحاولون أن يضاعفوا عذابنا كل يوم. لكن الحب الإلهي هو أقوى من الحب بكثير؛ إنه شعور يغمر كل شيء، ويدخل من جميع النوافذ، ويحوّل كل محاولة اعتداء غباراً.

«تعلمت أن تولد من جديد، وألا تكون قاسياً مع نفسك، وأن تتحدث إلى «رسولك». لكن كل ما فعلته إلى الآن، وكل الفائدة التي استخلصتها من سلوك طريق «مار يعقوب»، لن يكون لهما معنى، إلا إذا لامسك الحب الملتهم.

ذكّرت بتروس أنه تحدث عن نوعين من الحب الإلهي. لا يبدو أنه عرف النوع الأول من هذا الحب، لأنه لم يصبح ناسكاً.

— «أنت على حق. أنا وأنت ومعظم الحجاج، الذين سلكوا طريق «مار يعقوب» مستلهمين كلمات «رام»، اختبروا الحب الإلهي بشكل آخر: الحماس.

«كانت كلمة حماس تعني، لدى الأقدمين، رعدة وانخراط وعلاقة بالله. الحماس هو الحب الإلهي متجهاً إلى فكرة أو موضوع. كلنا اختبرناه. فعندما نحُب ونؤمن من أعماق نفسنا بشيء ما، نشعر أننا أقوى من العالم، ويتملّكنا يقين صادق بأن لا شيء يمكنه أن يهزم إيماننا. إن هذه القوة الغريبة تجعلنا دائماً نتخذ القرارات الجيدة في الوقت المناسب. وعندما نبلغ هدفنا، تُفاجأ بمقدرتنا، نحن بالذات، لأننا خلال «الجهاد الحسن» لا شيء يهْمُنَا، ويحملنا الحماس على تحقيق هدفنا.

«في العادة يتجلى الحماس، بكل قدرته، خلال السنوات الأولى من حياتنا. نكون، آنذاك، لا نزال متصلين بالإلهي اتصالاً قوياً، ترانا ننشدُ إلى ألعابنا، فتبعث الحياة في دمانا، وتتمكن الجنود المعدنية من السير. عندما قال يسوع إن للأطفال ملكوت السموات، فقد كان يلمح إلى الحب الإلهي متخذاً شكل الحماس. أتى الأطفال إليه. ولم يهتموا بمعجزاته ولا بحكمته، ولا بالفريسيين ولا بالرسول. جاؤوا إليه فرحين يحدوهم الورع.

أخبرت بتروس أنني اليوم، بالضبط، قد أدركت أنني ملتزم طريق «مار يعقوب». فقد كادت هذه الأيام والليالي، التي قضيتها على أراضي إسبانيا تنسيني سيفي، وتحوّلت إلى تجربة فريدة. وفقد كل ما عداها أهميته في نظري.

قال بتروس:

— «هذا اليوم، ذهبنا لنصطاد، لكن السمك لم يعلق في الصنارة. ونحن، عادةً، نتقبل أن يفوتنا الحماس في ظروف تافهة، لا تجز تبعات لها، قياساً على عظمة الوجود. ونفقد الحماس بسبب هزائمننا الصغيرة والضرورية خلال «الجهاد الحسن». وبما أننا نجهل أن الحماس



قوة عليا متجهة إلى الظفر النهائي، فإننا ندعه يفلت من بين أصابعنا، دون أن نلاحظ أن المعنى الحقيقي لحياتنا يتملص منا، هو أيضاً، فنعمد إلى اتهام العالم بسأمنا وهزيمتنا، وننسى أننا نحن الذين أضعنا هذه القوة الأسيرة التي تبرز كل شيء؛ تجلي الحب الإلهي متخذاً شكل الحب.

تذكرت المقبرة التي رأيتها قرب الجدول. إن هذه البوابة الغريبة، الكبيرة كبراً غير عادي، كانت تجسيدا كاملاً لفقدان المعنى. ف وراء هذا الباب، لا شيء إلا الموتى.

أضاف بتروس، وقد قرأ أفكاره:

«أنا على يقين أنك، منذ بضعة أيام، فوجئت بي، عندما رأيتني أفقد أعصابي في وجه الخادم المسكين الذي صب قليلاً من القهوة على بنطالي المتسخ أصلاً من غبار الطريق. في الواقع، كان مرّد غضبي إلى أنني رأيت الحماس ينلح من عيني هذا الغلام، كما يجري الدم من معصم قطعت شرايينه. رأيت هذا الغلام المفعم بالنشاط والحيوية يموت شيئاً فشيئاً، لأن القليل من الحب الداخلي ينطفئ في داخله، ينطفئ مع مرور كل لحظة. لقد تعلمت أن أعيش هذه الأشياء. لكن هذا الغلام، بهيئته، وبكل الخير الذي شعرت أنه قادر على تقديمه للبشرية، صدمني وأحزنني. كنت واثقاً أن علانيتي جرحت عنفوانه، وكبحت، لوقت قليل، موت الحب الإلهي داخله.

«كذلك، عندما حوّلت الروح في كلب تلك المرأة، أحسست الحب الإلهي في شكله الأنقى. كانت بادرته نبيلة. وشعرت بالسعادة لكوني هنا معك، ولأنني مرشدك. وبالنظر إلى هذا الأمر، سأشارك معك، للمرة الأولى، في هذا التمرين.

وعلمني بتروس طقس الكرة الزرقاء.

## طقس الكرة الزرقاء

اجلس بارتياح، واسترخ، وحاول ألا تفكر بشيء.

واستشعر الجمال في حبك للحياة. دع قلبك حرّاً، صديقاً، فوق كل شيء، وأبعد من الأمور الخسيسة. أنشد بصوت منخفض أغنية تعلمتها في الطفولة. تخيل قلبك يكبر ويملاً غرفتك، ثم بيتك، بنور أزرق حاد براق.

عندما تصل إلى هذه النقطة، استدع الحضور الودّي للقديسين الذين آمنّت بهم وأنت طفل. بثّ بأنهم هنا، وأنهم يقدون من كلّ جانب، ميتسمين، يحملون لك الإيمان والثقة بالحياة. تمثل القديسين وهم يقتربون، واضعين أيديهم فوق رأسك، متمنين لك الحب والسلام والاتحاد بالعالم اتحاد القديسين.

عندما يقوى فيك هذا الانطباع، تخيل النور الأزرق تياراً يدخلك، ويخرج منك، مثل ساقية لامعة دافقة. ثم ينتشر في منزلك وفي حيّك ومدينتك وبلادك، ويغمر العالم أجمع، داخل كرة زرقاء هائلة. هذا هو تجلي الحب الأعظم الذي يتخطى المعارك اليومية، لكنه يقوى عزيمتك، ويمنحك النشاط والطاقة والسلام.

احتفظ، لأطول وقت ممكن، بهذا النور الذي يغمر العالم. فقلبك مفتوح ينشر الحب. إن هذه الرحلة من التمرين يجب أن تدوم خمس دقائق على الأقل.

وشيناً فشيئاً، أخرج من الرعدة، وارجع إلى الواقع. سيبقى القديسون إلى جانبك وسيكون النور الأزرق حاضراً على الدوام. وينبغي أن تقوم بهذا الطقس مع عدّة أشخاص. وفي هذه الحالة ينبغي للمشاركين أن تتشابك أيديهم.



قال بتروس:

— سأساعدك على إيقاظ الورع وخلق القوة التي تتمدد مثل كرة زرقاء حول الكوكب، اعترافاً مني بأنني أحترم سعيك، وأحترم ما أنت عليه.

حتى الآن، لم يُبدِ بتروس قط أي رأي، سواء أكان إيجابياً أم سلبياً، بطريقتي في تنفيذ التمارين. صحيح أنه ساعدني في تفسير أول اتصال لي بالرسول، وجعلني أخرج من الرعدة في تمرين البذرة، لكنه لم يُبدِ أي اهتمام بالنتائج التي توصلت إليها. سألته، أكثر من مرة، لما لا يريد معرفة انطباعاتي ومشاعري. وكان، في كل مرة، يجيبني أن واجبه الوحيد، كمرشد، هو أن يدلّني على الطريق، ويلقّني ممارسات «رام». أما جني الفائدة من هذه التمارين، أو عدم الاكتراث لها، فيعود إليّ وحدي.

عندما أعلن بتروس أنه سيشاركني في التمرين، شعرت فجأة أنني غير جدير بمديحه، فهو يعرف مواطن ضعفي، وقد خامره الشك مرات عدّة في قدرته على مرافقتي في الدرب. أردت أن أقول له ذلك، لكنه قاطعني، قبل أن أنبس بكلمة، وقال:

— لا تكن قاسياً مع نفسك، وإلا فانت لم تتعلّم الدرس الذي لقّنتك إياه، عليك أن تقبل مديحاً تستحقّه.

اغرورقت عينايا بالدموع. أخذ بتروس بيدي، وخرجنا. كان الليل قاتماً بشكل غير مألوف. جلسْتُ قربه، وبدأنا نغني. كانت الموسيقى تنبعث منّي، وكان بتروس يرافقني دون جهد. ثم رحلت أطرق الأرض بيدي طرْقاً خفيفاً، فيما جسدي يتمايل من الأمام إلى الوراء. تضاعفت حدة الطرقات، وانهمرت الموسيقى بطلاقة منّي، لتشكّل نشيداً يمجد السماء القاتمة، والسهل الصحراوي، والصخور التي لا حياة فيها. بعد قليل، رأيْتُ القديسين الذين آمنتم بهم عندما

كنت طفلاً، والذين أبعثتهم الحياة عنّي، لأنّي، أنا نفسي، قتلتُ جزءاً كبيراً من الحب الإلهي فيّ. لكن، الآن، رجع الحب الملتهم دفاقاً، وابتسمت وجوه القديسين كما كنت أراهم في صغري.

فتحت ذراعي حتى يسيل الحب الإلهي. واخترقني شعاع غامض من النور اللامع الأزرق، وخرج مني مطهراً روحي من آثامها، ثم ملأ العالم بأسره. وبكيت، بكيت لأنّي كنت أعيش الحماس من جديد. كنت طفلاً أمام الحياة، ولا شيء في هذه اللحظة يمكنه أن يسبب لي أقل ألم. شعرتُ بحضور يقترب منّي ويجلس إلى يميني. خلّث أنه «رسولي»، وأنه وحده يستطيع تمييز هذا النور المبهّر الذي يخترقني ويخرج مني، لينتشر عبر العالم.

تضاعفت حدة النور، وشعرت أنه يغمر العالم أجمع، مخترقاً جميع الأبواب وكل الأزقة، ويعمّ الكائنات الحية بأكملها في ومضة عين.

شعرت أن أحداً يمسك بيديّ المفتوحتين المبسوطتين نحو السماء. في هذه اللحظة، أصبح شعاع النور الأزرق أقوى، حتى خلّثه سيختفي، لكنني نجحت في الاحتفاظ به بضع دقائق أيضاً، حتى نهاية أغنيتي.

عندئذٍ، استرخيت مرهقاً، لكن حراً وسعيداً بالحياة التي عشّتها. ابتعلت اللتان كانتا تمسكان بيديّ. وعرفت أن إحداها كانت يد بتروس، وأدركت بحدسي صاحب اليد الأخرى.

فتحت عيني من جديد، فإذا بي أرى إلى جانبي الراهب ألفونسو الذي ابتسم وقال: مساء الخير. ابتسمت أيضاً، وأمسكت من جديد بيده، وضممتها بشدة إلى صدري. لم يتركني أفعل، وسحبها برقة.

لم يتفوّه أيّ منّا، نحن الثلاثة، بكلمة. ثم نهض ألفونسو، وانطلق إلى السهل الأمعز. شيعته بنظراتي إلى أن اختفى في الظلمة.

بعد قليل، قطع بتروس حبل الصمت، لكنه لم يتحدث بشيء  
عن ألفونسو.

— قم بهذا التمرين، كلما قدرت على ذلك، فيسكن الحب  
الإلهي قلبك من جديد. مارشه قبل المباشرة بعمل، أو في أول أيام  
السفر، أو حين تشعر أن شيئاً ما قد أثار انفعالك كثيراً. مارشه إن  
أمكن، مع شخص تحبه، لأن هذا التمرين يجب تقاسمه مع  
الآخرين.

عاد بتروس مجدداً إلى صورته القديمة: التقني والمعلم والمرشد  
الذي أعرف عنه أشياء قليلة. اختفى الانفعال الذي أظهره داخل  
الكوخ. ومع ذلك، فإنني شعرت بكبر نفسه، حين ضغط على  
يدي خلال التمرين.

رجعنا إلى الكنيسة البيضاء، حيث تركنا أمتعتنا.

قال بتروس، وهو يتمدد أرضاً:

— إن ساكن هذه الكنيسة لن يرجع اليوم. أعتقد أننا نستطيع  
النوم هنا.

بسطت كيس النوم. شربت جرعة من الخمر، واضطجعت أرضاً.  
كنت مرهقاً من الحب الملتهم إرهاباً لذيذاً. وقبل أن أغمض عيني،  
تذكرت الراهب النحيل الملتحي الذي تمثى لي مساء سعيداً. في  
مكان ما في الخارج، يفنى هذا الرجل في شعلة الحب الإلهي. لعل  
هذا المساء كان قائماً، لأن نور العالم كله تجتمع في ألفونسو.

\*\*\*

## الموت

سألت المرأة العجوز التي قدمت إلينا طعام الإفطار:

— هل أنتما من الحجاج؟

كنا في «أنوفرا»، وهي قرية بيوتها صغيرة، تزين واجهاتها  
تروس من القرون الوسطى. كانت هذه البيوت متحلقة حول سبيل  
ماء، ملأنا منه قربنا قبل قليل.

أجبت العجوز بأننا كذلك، وقرأنا في عيني المرأة الاحترام  
والوقار.

قالت المرأة:

— عندما كنت صغيرة، كنت أحج إلى «كومبوستيل» مرة  
في السنة على الأقل. بعد الحرب وبعد فرانكو، لا أعرف ما جرى.  
ولكن يبدو أن الحج قد توقف. يجب القيام بزيارة إلى هناك، سيراً  
على الأقدام. فالناس، في هذه الأيام، لا يحبون التنقل إلا في  
السيارة.

بقي بتروس صامتاً. كان قد استيقظ بمزاج سيئ. كنت  
متفقاً مع المرأة، وتخيلت طريقاً جديدة إسفلتية تخترق الجبال  
والأودية، وسيارات رسمت فوق أغطيبتها أصداف، ودكاكين،  
وتذكارات عند أبواب الأديرة.

تناولت للثو قهوتي المزوجة بالحليب، والخبز المغس بزيت  
الزيتون. استشرت دليل إيميري بيكو بعد الظهيرة. وتوقعت بلوغنا  
«سانتو دومينغو دولا كالثادا»، وخططت لننام في «الفندق

السياحي<sup>(١)</sup>. كنت قد أنفقت من المال أقل بكثير مما توقعت، بالرغم من الوجبات الثلاث التي كنا نتناولها يومياً. كان الوقت ملائماً للتبذير، وقررت أن أولي جسدي العناية نفسها التي أوليتها لمعدتي.

استيقظت يحدوني شعور غريب بالوصول سريعاً إلى «سانتو دومينغو». وهنا شعور لم يخامرني، حين كنا نسير قبل يومين باتجاه الكنيسة المنحوتة في الصخر. كان بتروس أكثر كآبة وأكثر صمتاً من العادة. فسألته عما إذا كان السبب عائداً إلى لقائه ألفونسو. وشعرت برغبة قوية في استدعاء أستران. لكن لم يسبق لي أن استدعيته في الصباح، وخفت ألا تتحقق تلك الرغبة، فتخلّيت عن الفكرة.

انتهينا من إفطارنا، وأكملنا مسيرتنا. تجاوزنا بيتاً مزداناً بشعار نُسب، وخرائب لنزل حجاج قديم، وحديقة تقع في ضواحي القرية. وفيما كنت أتوغّل من جديد في الحقول، شعرت بحضور قوي إلى يساري. استوقفني بتروس، وقال:

— الركض لا يجدي نفعاً. قف وواجه.

فكرت بالانفصال عن مرشدي، واستئناف السير وحدي. أحسست بالهم وتشنج في المعدة. للوهلة الأولى، ظننت أن الأمر ناجم عن الخبز المغس بالزيت، لكن هذا الألم عرفته من قبل، ولا أستطيع خداع نفسي؛ إنه يؤثر، يؤثر، يؤثر وخوف.

قال بتروس، بنبرة ملحة:

— انظر خلفك. انظر قبل أن يفوت الأوان!

استدزّت بعنف. كان إلى يساري بيت صغير مهجور تكسوه النباتات التي أبيضتها الشمس، وبستان زيتون يبسط نحو السماء

(١) في الإسبانية، «برادور ناسيونال». والفنادق السياحية قصور قديمة، أو أنصاب تاريخية حوّلتها الحكومة الإسبانية فنادق من الدرجة الأولى.

أغصانه الملتوية. وبين بستان الزيتون والبيت، كلب يحنق إلي، الكلب نفسه الذي طرده من منزل المرأة قبل أيام معدودة.

نسيت حضور بتروس، ونظرت بلا وازع إلى عيني الكلب. شيء ما في داخلي، ربما كان صوت أستران أو ملاكي الحارس، كان يقول لي إنه سيهاجمني إن أشحت نظري قليلاً. بقينا على هذه الحال دقائق لامتناهية. فانا، بعد أن عرفت عظمة الحب الملتهم، أراني من جديد أواجه الأخطار اليومية والدائمة للوجود. تساءلت، لم يتبعني الحيوان كل هذه المسافة؟ وماذا يريد، في النهاية، من حاج يبحث عن سيفه، ولا يملك الرغبة ولا الصبر لمواجهة المشاكل التي تعترض سبيله، سواء أكان الأمر متعلقاً بالناس أم بالحيوانات؟ حاولت أن أفهمه ذلك عبر نظراتي، متذكراً الرهبان الذين يتواصلون من خلال النظر، لكن الكلب لم يتحرك. ظلّ يحنق إلي دون أن يبدي انفعالاً، وهو يتأهب لهاجمتي، متى استدرت، أو أظهرت شيئاً من الخوف.

أدركت فجأة أن الخوف قد اختفى. كانت معدتي متشنجة، وشعرت برغبة في التقيؤ، بسبب التوتر، لكنني لم أخف. فقط، كان عليّ ألا أشيح بناظري، حتى عندما لمحت طيفاً يقترب عبر الطريق الصغيرة إلى يميني.

توقّف الطيف بضع لحظات، ثم اتجه مباشرة نحونا. واجه تماماً مجال نظراتنا، وتفوّه بكلمات لم أفهمها. كان الصوت نساءياً، وكان الحضور الذي ينبعث منه قوياً ونيّاً إيجابياً.

في اللحظة التي انتصب فيها طيف المرأة بين عيني وعيني الكلب، استرخت معدتي؛ لديّ الآن صديقة تساعدني في هذا الصراع العبثي العقيم. عندما اختفى الطيف، أخفض الكلب عينيه، وبوثة، قفز وراء البيت المهجور، وغاب عن ناظري.

عند هذه اللحظة فقط، أخذ الخوف يضرب قلبي بشدة، لدرجة أنني شعرت بالدوار، وأحسستني على شفير الإغماء. وفيما كان



كل شيء يدور من حولي، تحزيت الطريق، حيث مررنا أنا وبتروس قبل دقائق قليلة، بحثاً عن الطيف الذي أعطاني القوة لأهزم الكلب.

كانت راهبة، تدبر لنا ظهرها، وتمشي باتجاه «أنوفرا». لم أستطع تمييز وجهها، لكنني تذكرت صوتها، وقدرت عمرها بالعشرين على الأكثر. نظرت إلى الطريق التي وصلت منها: كانت درباً صغيرة لا تؤذي إلى أي مكان. فتمتعت وشعوري بالدوار يتزايد: «إنها هي... هي التي ساعدتني».

قال بتروس، ممسكاً بذراعي،

— لا تزد نزوات جليدة على عالم حافل بكل الغرائب. فالراهبة أنت من دير في «كانياس» الذي يبعد خمسة كيلومترات من هنا، ومن البلديهي أنك لا تستطيع رؤيته.

استمز قلبي في خفقانه كمجنون. كنت مقتنعاً أن وضعي سيكون سيئاً. سيطر عليّ الذعر فمنعني أن أتكلم، أو أطلب شرحاً. جلست أرضاً، وبّل بتروس رأسي ورقبتي بالماء. تذكرت أنه فعل هذا عند خروجنا من منزل المرأة. لكنني في ذلك النهار بكيت وشعرت بأنني في حالة جيدة. أما الآن فشعوري معاكس تماماً.

تركني بتروس أرتاح لوقت طويل. أنعشني الماء، واختفى الغثيان شيئاً فشيئاً. ثم اقترح بتروس أن نعاود المسير، فوافقت. مشينا حوالى ربع ساعة، لكن الإرهاق عاونني. جلسنا عند أسفل عمود يدعى «روليو»، وهو عمود قروسطي يعلوه صليب، ويشير إلى بعض المحطات في طريق مار يعقوب.

قال بتروس، فيما كنت أرتاح:

— خوفك أساء إليك أكثر من الكلب.

أرنت أن أعرف سبب هذه المواجهة العنيفة.  
قال بتروس:

— إن بعض الأحداث، في الحياة وعلى الطريق إلى مار يعقوب، تقع بمعزل عن إرادتنا، فخلال لقائنا الأول، قلّ لك إنني قرأت في نظرات الغجري اسم الشيطان الذي عليك مواجهته. وفوجئت، لدى معرفتي أن هذا الشيطان كلب، لكنني لم أقل شيئاً حينذاك. وعندما دخلنا إلى بيت المرأة، وأحسست للمرة الأولى بالحب الملتهم، عندئذ فقط، رأيت عدوك.

ولما أبعدت الكلب عن هذه السيدة، لم تجد له مكاناً. وإن تعلم أن لا شيء يضيع، إن كل شيء يتحول، أليس كذلك؟ لم تفعل كما فعل المسيح، حين أدخل الشياطين في قطيع من الخنازير، فإذا بالقطيع يثب عن الجرف إلى البحيرة ويختنق. وكل ما فعلته أنت هو أنك أبعدت الكلب. والآن، تهيم هذه القوة خلفك دون هدف. وقبل العثور على سيفك، عليك أن تقرّر إذا كنت ترغب في أن تكون سيد هذه القوة، أو عبداً.

تضاءل شعوري بالتعب. تنفستُ بعمق، متحسناً حجر العمود البارد الذي أسنعت إليه ظهري. قدّم إليّ بتروس القليل من الماء، وأضاف:

— إن الهواجس تبدأ بالظهور، حين يفقد الناس تحكمهم بقوى الأرض. فلعنة الغجري نقلت الخوف إلى هذه المرأة، ففتح ثغرة، دخل منها رسول الميت. ليست هذه حالة عادية، لكنها ليست نادرة أيضاً. هذا يتعلّق، إلى حد بعيد، بالطريقة التي تتصرف بها حيال تهديدات الآخرين.

هذه المرة، كنت أنا من تذكر مقطعاً من الكتاب المقدس، وهو موجود في سفر أيوب: «ما كنت أخشاه قد غشيني وما فزعت منه قد رهقني».

قال بتروس:

— إن التهديد لا يمكن أن يفعل بنا شيئاً، إذا لم نكن قد قبلناه. حين تخوض «الجهاد الحسن»، لا تنس هذا أبداً. كما يفترض بك ألا تنسى أن الهجوم أو الهروب يشكّلان جزءاً من الصراع، بخلاف الخوف الذي يشلّ العزيمة.

لم أخف في الحال. فقد فوجئت، أنا نفسي، بذلك. وتباحثت بالموضوع مع بتروس.

أجاب:

— أعرف ذلك، وإلا لهاجمك الكلب، وربح المعركة بالتأكيد، لأنه لم يكن خائفاً. أما الأمر الأطراف، فهو وصول الراهبة. عندما تراءى لك حضور إيجابي، أنباك خيالك الخصب أن أحداً ما جاء لنجدة. وهذه الثقة أنقذتك، حتى وإن كانت غير مستندة إلى واقع مقبول.

أثناء المشي، أعلن بتروس قائلاً:

— إن ثمة أمراً عليك معرفته، هو أن المبارزة مع الكلب لا يمكن أن تنتهي إلا بانتصار أحدهما. في المرة المقبلة، حين يظهر من جديد، حاول أن تضع حناً للصراع، وإلا استمرّ شبحه يقضّ مضجعتك، حتى آخر أيامك.

بعد لقاء العجري، أوحى إليّ بتروس أنه يعرف اسم هذا الشيطان. سألته من يكون.

أجابني:

— هم جوقة، لأنهم شياطين كثر.

كنّا نمشي على أرضٍ يمهدّها المزارعون لنثر البذار. هنا وهناك فلاحون ينقلون خزانات ماء بدائية، ليواصلوا حربهم الأبلية ضد

قحط الأرض. وعلى جوانب طريق مار يعقوب، حجارة مكسّسة تؤلف جدراناً لا تنتهي، تتصالب وتتماهى مع مناظر الريف. فعلى الرغم من أن هذه الأراضي قد خرّبت لقرون خلت، فإن ثمة حجارة تنبثق على الدوام، وينبغي، انتزاعها، حجارة تكسر نصل المحراث، وتشوّه الحصان، وتقزح يد الفلاح. إنه صراع يعاود كل سنة، ولا ينتهي أبداً.

كان بتروس أكثر هدوءاً من العادة. وتذكّرت أنه، منذ الصباح، لم يقل شيئاً. بعد الحوار قرب العمود القروسطي، أثر الصمت، ولم يجب إلا لماماً عن أسئلتني. أردت أن أعرف أكثر عن قصة «جوقة الشياطين» هذه، لكنه لم يظهر استعداداً لمقاربة الموضوع. وقررت انتظار مناسبة أكثر ملاءمة.

تسلّقنا ربوة صغيرة. ومن عليّ، لمحت قبة الجرس الرئيسية لكنيسة «سانتو دومينغو دولا كالثادا». شجّعني تلك الرؤية، ورحلت أحلم بالراحة والسحر في الفندق السياحي (بارادور ناسيونال). وتفيد قراءتي أن هذا المبنى قد شيّده القديس دومينيك شخصياً ليستقبل الحجاج. كما أن مار فرنسيس الأسير قضى فيه ليلته عندما كان يحجّ إلى «كومبوستيلا»، وكل هذا أثار اهتمامي.

كانت الساعة السابعة مساءً، عندما قرّر بتروس أن يتوقف. تذكّرت «رونسوفو»، والمشي البطيء الذي أمرني به بتروس، تماماً في اللحظة التي كنت أشعر فيها ببرد قارس، وبحاجة ملحة إلى كأس من النبيذ. خفت ألا يقوم، الآن، باقتراح مماثل. لكنه قال:

— لن يساعدك أبداً «رسول» في هزم «رسول» آخر. فـ «الزسل» ليسوا خيّرين ولا أشراراً. سبق لي أن قلّت كل ذلك. وأضيف أنهم مرتبطون ببعضهم ببعض، تربطهم مشاعر أمانة. لا تعتمد على أستران إذا أرثت أن تهزم الكلب.



هذه المرة، أنا الذي لم يكن مستعداً للتحث عن الشياطين.  
كنت أريد الوصول بسرعة إلى «سانتو دومينغو».

إن «رسل الموتى يمكنهم أن يسكنوا جسداً يهيمن عليه الخوف.  
لذا هم كثر في حالة الكلب، اجتذبهم خوف المرأة. ليس وحده  
«رسول الغجري القتل، بل «الرسل» المختلفون الذين يهيمنون مفتشين  
عن وسيلة للاتصال بقوى «الأرض».

الآن، فقط، أجب عن سؤالي. لكن شيئاً ما، في الطريقة التي  
تكلم بها، بدا لي مفتعلاً، كما لو أنه يحيد عن الموضوع الحقيقي  
الذي يؤذ مناقشته معي. وأعلمتني غريزتي، بذلك فوراً.

سألته، وفي لهجتي شيء من الغضب:

– ماذا تريد يا بتروس بالضبط؟

لم يجبني مرشدي. خرج عن الطريق، واتجه إلى شجرة قديمة  
شبه عارية في أحد الحقول، تبعد عشرات الأمتار، وهي الشجرة  
الوحيدة المنتصبة عند الأفق. وبما أن بتروس لم يدعني إلى اللحاق  
به، فقد بقيت مسفراً في مكاني، ورأيت مشهداً غريباً. كان  
بتروس يدور حول الشجرة ويتكلم بصوت عالٍ وعينه مطرقتان.  
ثم أشار إليّ أخيراً بالاقتراب:

– اجلس هنا.

حمل صوته نبرة جديدة. ولم أستطع أن أعرف إذا كانت هذه  
النبرة تعبر عن الحنان، أم عن الحسرة.

– ستبقى هنا. أفاك غداً في «سانتو دومينغو» دولا كالنادا.

وقبل أن أتمكن من التفوه بكلمة، تابع بتروس:

– سيأتي يوم، وأضمن لك أنك لن، تواجهه، يوماً، عدوك اللدود أي  
الكلب على طريق مار يعقوب. وعندما يأتي هذا اليوم، كن  
مطمئناً، لأنني ساكون قربك، وأمدك بالقوة اللازمة للصراع. لكن

اليوم ستواجه نوعاً آخر من الأعداء، عدواً وهمياً يمكنه أن يدمرك،  
كما يمكنه أن يكون صديقك المفضل، وهو الموت.

إن «الإنسان هو الكائن الوحيد في الطبيعة الذي يعي موته  
المقبل. ولهذا السبب، لهذا السبب فقط، أكن احتراماً للجنس  
البشري، وأتصور أن مستقبله سيكون أفضل من حاضره. حتى  
عندما يعرف الإنسان أن أيامه معدودة، وأن كل شيء سينتهي في  
الوقت الذي يتوقع فيه النهاية، فهو يجعل من الحياة صراعاً جديراً  
بكائن أبدي. وما يدعو الناس باطلاً، كترك الآثار بعد الموت، أو  
إنجاب الأولاد، أو العمل على تخليد الذكرى، أرى فيه التعبير الأسمى  
عن الكرامة الإنسانية.

إن الإنسان، وهو مخلوق هش، يحاول دوماً أن يتستر على اليقين  
الأسمي لموته. ذلك أنه لا يعرف أن الموت هو الذي يدفعه لتحقيق  
أفضل الأشياء في حياته. تراه يخاف العبور في الظلمة، ويرعبه  
المجهول إلى أقصى حد. وتتمثل الوسيلة الوحيدة للتخلص من هذا  
الخوف بأن ينسى أن أيامه معدودة. هو لا يعرف أنه لو وعى الموت،  
لصار أقدر على مواجهته بجرأة أكبر، فيمضي قدماً في انتصاراته  
اليومية، لأن ليس لديه ما يخسره منذ اللحظة التي يصبح فيها الموت  
أمراً محتوماً.

بذلت لي فكرة قضاء الليل في «سانتو دومينغو» ذكرى بعيدة.  
تابعت باهتمام متزايد أقوال بتروس. وعلى الأفق المقابل لنا، بدأت  
الشمس بالغروب. لعلها سمعت أيضاً هذه الكلمات.

«الموت هو رفيقنا الأكبر، لأنه هو الذي يجعل لحياتنا معنى.  
ولكن، لكي نتأمل الوجه الحقيقي لموتنا، علينا أن نتذكر، أولاً،  
كل الرغبات والأهوال التي يستطيع اسمه إيقاظها فينا، وفي أي  
كائن حي».

جلس بتروس تحت الشجرة، ودعاني لأفعل مثله. قال لي إنه دار



حول جذع الشجرة منذ قليل، لأنه تذكر ما حدث، عندما كان حائلاً في طريقه إلى «مار يعقوب». ثم أخرج من حقيبته شطيرتين كان قد اشتراهما وقت الغداء.

قال، وهو يقدمهما إليّ:

– إن المكان الذي تجلس فيه لا يشكّل أي خطر. ليس هناك أفاعٍ سامة، ولن يرجع الكلب لمهاجمتك، إلا عندما ينسى فشله هذا الصباح. وليس في الجوار صعاليك ولا مجرمون. أنت، إذن، في مكان آمن بشكل مطلق، إلا من خطر واحد: خوفك.

قال لي إنّي خبرت، منذ يومين، شعوراً حاداً وعنيفاً، وهو الحب الملتهم، ولم أتردد في أي لحظة، ولم أخف، لأنني لم أكن أملك أحكاماً مسبقة عن الحب الكوني. أما الموت، فلدينا جميعاً، بشأنه، أحكام مسبقة، ولا نعرف أنه تجلّ آخر للحب الإلهي، ليس إلا. أحببت بتروس أنني، بعد كل هذه السنوات من الاكتساب والتعلم قد انتصرت على الخوف من الموت عملياً. في الواقع، كنت أخاف الطريقة التي ساموت بها، أكثر من خوفاي الموت نفسه.

– قم، إذن، هذا المساء بالتجربة الأكثر رعباً للموت.

وعلمني بتروس تمرين «المدفون حياً».

ثم قال لي بتروس، فيما كنت أتذكر تمريناً مسرحياً مشابهاً:

– يجب ألا تمارسه إلا مرة واحدة. يجب أن توظف كل الحقيقة داخلك، كل الخوف الضروري لكي يتيح لك التمرين الانبثاق من أعماق نفسك، فيمزق قناع الرعب الذي يغطي الوجه المحب للموت.

نهض بتروس، ورأيت طيفه منتصباً وسط السماء التي اصطبغت بألوان الشمس الغاربة. وبما أنني بقيت جالساً، فقد بدت قامة عملاقة تبعث على الرهبة.

## تمرين «المدفون حياً»

اجلس على الأرض واسترخ. اشبك يديك فوق صدرك، واستلق في وضعية الميت.

تخيل كل تفاصيل دفنك وكأنه سيحدث غداً. بيد أن الفرق الوحيد هو أنك مدفون حياً. وبمقدار ما تتوالى الأحداث، الكنيسة، المسيرة حتى القبر، إنزال النعش في الحفرة، ينبغي لك أن تشدّ كل عضلاتك في جهد أخير يائس، لتتحرك، ولكن لا تتحرك. لا تتحرك حتى اللحظة التي تفقد فيها قدرتك على الاحتمال. وبحركة واحدة، ادفع بكل جسمك ألواح النعش. تنفّس بعمق، وكن حراً. ويتضاعف تأثير هذه الحركة، إذا رافقتها صرخة، صرخة نابغة من أعماق جسدك.

– بتروس، لدي سؤال آخر.

– ما هو؟

– هذا الصباح، كنت صامتاً وغريباً، وكأنك حدثت قبلي  
مجيء الكلب. كيف كان ذلك ممكناً؟

– عندما اخترنا معاً الحب الملتهم، تشاركنا في المطلق. فالمطلق  
يُظهر كل الناس على حقيقتهم، بوصفهم شبكة هائلة من  
الأسباب والنتائج. ويغدو لكل حركة، يقوم بها أحدها، انعكاسها  
في حياة الآخر. هذا الصباح، كان ذلك الجزء من المطلق حياً متوقفاً  
في داخلي؛ فتمكنت من فهمك، ليس بمفردك، بل فهمت كل ما  
هو موجود في العالم. دون أن يحده زمان أو مكان. لقد تضاعل  
التأثير. ولن يرجع إلا في المرة المقبلة، حين أقوم بتمرين الحب  
الملتهم.

تذكرت المزاج السيئ لبترس هذا الصباح. فإذا كان يقول  
الحقيقة، فالعالم، إذن، في صدد اجتياز مرحلة صعبة جداً.

قال، وهو يبتعد:

– سانتظرك في الفندق. سأسجل اسمك في مكتب الاستقبال.

تبعته بنظراتي إلى أن اختفى. إلى يساري في الحقول، كان  
العمال قد أنهوا أعمالهم، ورجعوا إلى بيوتهم. قزرت القيام بالتمرين،  
عند هبوط الليل.

كنت هائلاً. كانت هذه هي المرة الأولى التي أبقى فيها وحدي،  
منذ أن شرعت في الرحلة الغريبة لطريق مار يعقوب. نهضت،  
وقمت ببعض الخطوات في الجوار، لكن الليل هبط سريعاً، فرجعت  
إلى حيث الشجرة، مخافة أن أضيع. وقبل أن يصبح الليل دامساً،  
دوّنت في ذهني المسافة التي تفصل الشجرة عن الطريق. وبالنظر

إلى عدم وجود ضوء يزعجني، فقد شعرتني قادراً تماماً على رؤية  
الدرب، والوصول إلى «سانتو دومينغو»، بفضل البريق الوحيد للهِلال  
الصغير الذي ظهر في السماء.

حتى الآن، لم أشعر بالخوف. قلت في نفسي إنني في حاجة إلى  
الكثير من الخيال لأوقف في داخلي كل المخاوف التي تحدثها ميتة  
فضيحة. لكن قلماً يهم عدد السنوات التي بلغناها. عندما يهبط  
الليل، يرجع معه كل المخاوف المختبئة في حنايا أنفسنا منذ  
الطفولة. وكلما اسودَّ الليل، أشعر بالاستياء.

كنت هنا وحيداً وسط الريف. حتى وإن صرخت، فلن يسمعني  
أحد. تذكرت الهجوم الذي تهددني هذا الصباح، فشعرت بخوف  
عظيم، لم أشهد له مثيلاً في حياتي.

ماذا لو مث؟ عنلخذ، ينتهي كل شيء. إلا أنني، أثناء مسيرتي  
تبعاً لنهج «الميراث»، تحلّثت إلى أرواح عديدة، وكان لديّ اليقين  
الكامل بأن هناك حياة بعد الموت. لكنني لم أتساءل كيف سيتم  
هذا الانتقال. لا بدّ أن الانتقال من بُعد إلى آخر مُخيف، مهما نكن  
مستعدين. لو مث هذا الصباح، مثلاً، لفقنت طريق مار يعقوب،  
وسنوات دراستي، وحسرات عائلتي، والمال المخبأ في حزامي، كل  
معنى. تذكرت نبتة وضعتها على مكتبي في البرازيل. النبتة لا  
تزال موجودة، وكذلك الباص، وبائع الخضر القابع على الناصية  
والذي يبيع بضاعته بسعر أغلى من الجميع، وعاملة الهاتف التي  
تعطيني سراً الأرقام على لائحة حمراء. كل هذه الأشياء الصغيرة  
التي بإمكانها الاختفاء، فيما لو حدث لي سداد مفاجئ، هي التي  
تؤكد لي أنني لا أزال على قيد الحياة، لا النجوم ولا الحكمة...

كان الليل مظلماً تماماً. وعند الأفق، استطعت أن أميز الأضواء  
الخافتة للمدينة. تمددت أيضاً، ونظرت إلى أغصان الشجرة المخيمة  
فوق رأسي. بعد قليل، سمعت أصواتاً غريبة من كل نوع. كانت  
تصدر عن حيوانات الليل التي خرجت لتصطاد. وبما أن بتروس لا



يمكنه معرفة كل شيء لأنه بشر مثلي، فمن يضمن لي أن ليست هناك أفاع سامة؟ ثم ماذا عن الذئب؟ الذئب الأبدية لأوروبا؟ لعلها قررت، وقد اشتهت رائحتي، أن تمر هذه الليلة من هنا. ثم سمعت صوتاً قوياً يشبه غصناً يُكسر، فانتفضت، وبدأ قلبي يخفق في صدري خفقات جنونية.

كنت متشنجاً للغاية. وكان من الأفضل أن أقوم بالتمارين، وأذهب إلى الفندق. هدأت قليلاً، وشبكْتُ يديَّ فوق صدري في وضعية الميت. شيء ما قريب مني تحرك. نهضت متوثباً.

لم يكن من خطب. كان الليل قد غمر كل شيء، وأيقظ بظلامه كل المخاوف البشرية. تمذنت من جديد، مصفماً هذه المرة على جعل كل خوف حافظاً للتمرين. ولاحظت أنني كنت أتصبب عرقاً، بالرغم من برودة الطقس.

تخلّلت النعش مسقراً، والناس واقفين حولي. كنت جامداً، لكنني ما زلت حياً. وودت لو أستطيع أن أبلغ عائلتي، التي ترى كل شيء، أنني أحبها، لكن الصوت احتبس في حنجرتي. كان أمي وأبي يبكيان، وأصدقائي يلتفون حولي، وكنت وحيداً! كل تلك الكائنات العزيزة كانت هنا، وليس بمقدور أحد الحس بأنني حي برزق، أو بأنني لم أحقق ما كنت راغباً في تحقيقه أثناء وجودي في هذا العالم! حاولت يائساً أن أفتح عيني، أن أقوم بإشارة، أن أقرع غطاء التابوت، لكن لا شيء في جسدي يتحرك.

كنت أشعر أن النعش يتمايل. كانوا ينقلونني إلى المقبرة. استطعت سماع صوت الحلقات التي تحتك بحمالات الحديد، وخطوات الناس في الموكب، وأصواتاً تتسامر. قال أحدهم إنه مدعو إلى العشاء لاحقاً وعقب آخر أنني ماث شائباً. كانت رائحة الأزهار حول رأسي تشعرني بالاختناق.

تذكرت أنني لم أغازل امرأتين، أو ثلاثاً، مخافة أن ينبذني. وتذكرت بعض المناسبات التي تخلّيت فيها عن رغباتي، معتقداً

أنني أستطيع تأجيل تنفيذها إلى وقت لاحق. وشعرت بحزن عميق، ليس فقط لأنني كنت ميتاً حياً، بل لأنني خفت من الحياة فيما مضى. ماذا يعني الخوف من أن ينبذني الآخرون، أو أن أُؤجل عملاً إلى وقت لاحق، إذا كان الأهم هو أن نستمتع بالحياة ونحياها بكل قوانا؟ كنت أسير نفسي وكان الأوان قد فات للرجوع إلى الوراء، وامتلاك الشجاعة التي كان عليّ التحلي بها.

كنت يهوذا نفسي، خائن نفسي. كنت هنا، ولا أستطيع تحريك عضلة واحدة لأنادي من يهب لنجّتي، فيما الناس في الخارج غارقون في الحياة، منشغلون بما سيفعلونه هذا المساء، ناظرون إلى تماثيل ومبانٍ لن أراها أبداً. واجتاحني شعور جارف بالظلم، ظلم أن أدفن، فيما الآخرون يتابعون حياتهم. كان من الأفضل أن تحدث كارثة هائلة، وأن يكونوا جميعاً في المركب نفسه المتجه إلى النقطة السوداء نفسها، التي يقلّونني إليها. النجدة! أنا حي! لم أمت. ذهني لا يزال يعمل.

وضعوا النعش على حافة القبر. سيدفنونني! زوجتي ستنساني، وتتزوج من جديد، وستنفق المال الذي جهلنا لادخاره طوال هذه السنوات... لكن أي أهمية لذلك! أريد أن أكون معها الآن، لأنني حي!

سمعت بكاء. أحسست أن الدموع تنهمر أيضاً من عيني. لو أنهم يفتحون النعش في هذه اللحظة، فسيدركون حقيقة الأمر، ويتم إنقاذي. لكن النعش كان ينحدر داخل الأرض دون رحمة. وفجأة، صار كل شيء ظلاماً. حتى الآن، كان هناك بصيص نور يتسرب من جوانب النعش. أما الآن، فظلام مُطبق. رفوش حفاري القبور تسد منافذ القبر. وأنا حي! مدفون حياً! أصبح الهواء ثقيلًا، ورائحة الأزهار خانقة. وسمعت خطوات الناس، وهم يبتعدون. حلّ رعب مطلق. لم أستطع الحراك، لقد غادروا الآن. قليلاً، ويهبط الليل، ولا أحد يسمعني أقرع غطاء النعش.



لم يسمع أحد الصرخات التي أصدرها فكري. أنا وحيد.  
والظلمة والهواء الخانق وعطر الأزهار... كل ذلك جعلني مجنوناً.  
وفجأة، سمعت صوتاً صاخباً: إنها الديان، الديان التي تقترب  
لتلتهمني حياً. أحاول بكل قواي أن أحرك عضواً فيّ لكنني لا  
أفلح. الديان تتسلق جسدي. إنها مكتنزة وباردة. تمر فوق وجهي،  
وتدخل في بنطالي. اخترقت إحداها إستي، واندست أخرى في  
فجوة أنفي. النجدة! أنا مثلهم حياً، ولا أحد يسمعي، ولا أحد يقول  
شيئاً. إن الدودة، التي دخلت عبر منخري، نزلت إلى حنجرتي، في  
حين أن دودة أخرى اخترقت أنفي. يجب أن أخرج من هنا! أين الله  
الذي لا يستجيب لي؟ بدأت الديان تلتهم حنجرتي، ولم أعد  
أستطيع الصراخ! إنها تنفذ من كل ناحية، من الأذن، من زاوية  
الفم، من ثقب الإحليل... أشعر بهذه الأشياء الدسمة التي يسيل لعابها  
في داخلي. يجب أن أخرج، أن أتحرراً! أنا محشور في هذا التابوت  
المظلم والبارد، وحيد، ملتهم حي. الهواء ينفذ، والديان تأكلني!  
يجب أن أغادر هذا النعش وأحطمه. يا إلهي! استجمع كل قواي، لأن  
عليّ أن أتحرّك وأخرج من هنا. سأتحرك. سأتحرك.

لقد نجحت!

تطايرت ألواح النعش شظايا، واختفى القبر. ملأث صدري بهواء  
طريق مار يعقوب النعش. كان جسدي يرتجف من الرأس حتى  
أخمص القدمين، وقد ابتل بالعرق. تحزكت قليلاً، ولاحظت أنني  
تقيأت. لكن لا شيء من هذا كان مهماً. المهم أنني حي.

سرت الرعشة فيّ، ولم أقم بأي جهد لأضبطها. اجتاحني شعور  
هائل بالهدوء الداخلي، وبحضور إلى جانبي. نظرت، فرأيت وجه  
موتي. لم يكن الموت، الذي اختبرته منذ قليل، بل موتي الحقيقي،  
رفيقي ومرشدي الذي، بفضل له لن أعود جباناً أبداً في حياتي. الآن

سيساندني موتي أكثر من يد بتروس، ونصائحه. لن يسمح لي بأن  
أرجىء إلى وقت لاحق ما أستطيع إنجازه الآن. لن يجعلني أهرب من  
صراعات الوجود، وسيؤازرنني أثناء «الجهاد الحسن». ولن أخاف من  
تادية الأعمال، متذرعاً بأنني لا أريد أن أثير سخرية الآخرين. كان  
الموت هنا يوصيني بأنه لا يجدر بي، حين يأخذني بيدي لنسافر إلى  
عوالم أخرى، أن أصطحب أكبر الخطايا جمعاء: الندم. استأنشت  
بحضوره، ونظرت إلى وجهه العطوف. تيقنت أنني سأشرب من  
ينبوع الحياة الحني، الذي هو هذا الوجود.

لم يعد لليل أسرار ولا رعب. كان الليل بهيجاً، ساكناً. عندما  
اختفت الرجفة من جسدي، نهضت وتوجهت إلى مخازن العمال في  
الحقول. نظفت بنطالي القصير واستبدلت به بنطالاً حملته في  
حقيبة ظهري. ثم رجعت إلى الشجرة، وأكلت الشطيرتين اللتين  
تركهما بتروس. كان ألد طعام تناولته في حياتي، لأنني كنت  
حياً، والموت لم يعد يخيفني.

قررت أن أنام في هذا المكان. ولم تكن الظلمة بهذه الوداعة.

\*\*\*

## العيوب الشخصية

**وجدنا** أنفسنا في حقل هائل مترامي الأطراف، غرس بالقمح الأملس، يمتد برتابة على طول الأفق. قطع رتابة المنظر عموداً قروسطي يعلوه صليب يشير إلى طريق الحجاج. رمى بتروس حقيبته أرضاً أمام العمود، وجثا على ركبتيه. ودعاني لأفعل ما فعل.

«سنصلّي، سنصلّي من أجل الشيء الوحيد، الذي يجعل حاجاً يفشل عندما يجد سيفه، وهو عيوبه الشخصية. يلقّنه العلمون الكبار أن يوجه النصلة، لكن يده ستكون دوماً ألدّ عدوّ له. سنصلّي حتى إذا وجئت سيفك، أمسكته، دائماً، باليد التي لن تؤذيك.

كانت الساعة الثانية بعد الظهر، وكل شيء ساكن حولنا، فبدأ بتروس صلاته:

«رحمتك يا رب، لأننا حجاج في الطريق إلى كومبوستيلا. وهذا يمكنه أن يكون عيباً. رحمتك اللامتناهية يا رب. ساعدنا حتى لا نجعل المعرفة ترتدّ علينا.

«الرحمة لهؤلاء الذين يشفقون على أنفسهم، ويعتبرون أنفسهم صالحين، ويظنون أن الحياة مُحجفة بحقهم، ولا يستحقّون ما يحصلون عليه، إن هؤلاء لن ينجحوا أبداً في خوض «الجهد الحسن». الرحمة لهؤلاء القساة على أنفسهم، ولا يرون الشرّ إلا في أعمالهم، ويعتبرون أنفسهم مسؤولين عن مظالم العالم، لأنهم لا يعرفون شريعتك التي تقول: «شعور رؤوسكم كلّها مُخصّاة».

«الرحمة لهؤلاء الذين يأمرون، ويقضون ساعات طويلة في العمل، ويضخون بأيام الأحاد، حيث كلّ شيء مقفل، وحيث لا مكان يذهبون إليه. لكن الرحمة لهؤلاء الذين يقنّسون عملك، ويذهبون أبعد من جنونك بالذات، وينتهون مدينين أو مسقرين على الصليب بأيدي إخوانهم بالذات، لأن هؤلاء لا يعرفون شريعتك التي تقول: «كونوا حكماء كالحيات، وودعاء كالحمائم».

«الرحمة لأن الإنسان يمكنه أن يهزم العالم، دون أن يخوض «الجهد الحسن، مع نفسه لكن الرحمة لهؤلاء الذين ربحوا «الجهد الحسن»، وهم الآن على مفترق طرق الحياة وفي حاناتها، لأنهم لم ينجحوا في إلحاق الهزيمة بالعالم، لأن هؤلاء لا يعرفون شريعتك التي تقول: «من يسمع كلامي ويعمل به يشبه رجلاً بنى بيته على الصخر».

«الرحمة لهؤلاء الذين يخافون إمساك القلم والريشة والأداة والآلة، معتبرين أن الذين جاؤوا قبلهم صنعوا الأفضل، وهم غير جديرين بدخول عالم الفن المذهل. لكن زد رحمتك يا رب على هؤلاء الذين أمسكوا بالقلم والريشة والأداة والآلة، وحولوا الإلهام شعوراً حقيراً، واعتبروا أنفسهم أفضل من الآخرين. فهم لا يعرفون شريعتك التي تقول: «لا خفي إلا سيظهر، ولا مكتوم إلا سيُعلم».

«الرحمة لهؤلاء الذين يأكلون ويشربون ويتخمون، لكنهم تعساء ووحيدون، وسط الوفرة التي يعيشونها، والرحمة أيضاً للذين يصومون ويمنعون ويحظرون، ويظنون أنفسهم قديسين، ويذهبون ليكرزوا باسمك في الساحات، لأن هؤلاء لا يعرفون شريعتك التي تقول: «لو كنت أشهد لذاتي لما كانت شهادتي حقاً».

«الرحمة لهؤلاء الذين يهابون الموت، ويجهلون الممالك العديدة التي اجتازوها، والميتات العديدة التي ماتوها، والذين هم التعساء، لأنهم يعتبرون أن كل شيء مصيره إلى زوال. لكن الرحمة أيضاً لهؤلاء الذين عرفوا ميتاتهم العديدة، واعتبروا أنفسهم خالدين، لأنهم

يجهلون شريعتك التي تقول: «إن من لا يولد ثانية، لا يرى ملكوت الله».

«الرحمة لهؤلاء الذين يستبعدهم القيد الحريري للحب، ويعتبرون أنفسهم سادة على الآخرين، ويشعرون بالحسد، ويسممون أنفسهم، ويتعذبون، لأنهم لا يعرفون أن الحب يتغير كالريح وكل الأشياء. لكن الرحمة أيضاً لهؤلاء الذين يموتون خوفاً من الحب، ويرفضون الحب باسم الحب العظيم، لأنهم لا يعرفون شريعتك التي تقول: «من يشرب من هذا الماء فلن يعطش أبداً».

«الرحمة لهؤلاء الذين يختزلون الكون إلى تفسير، والله إلى وصفة سحرية، والإنسان إلى كائن ذي حاجات أساسية عليه إشباعها، لأن هؤلاء لن يسمعوا أبداً موسيقى الأجواء السماوية. لكن ترأف أيضاً بهؤلاء الذين يملكون إيماناً أعمى، ويحولون الزئبق في المختبرات ذهباً، ويحيطون أنفسهم بالكتب التي تكشف لهم أسرار التاروت وقدرة الأهرامات. لأن هؤلاء لا يعرفون شريعتك التي تقول: «الأطفال وحدهم يرثون ملكوت السموات».

«الرحمة لهؤلاء الذين لا يرون أحداً أعظم من أنفسهم، ولا يابهون للآخرين، ويعتبرونهم منظرًا غامضاً وبعيداً. هؤلاء الذين يعبرون الطريق بسياراتهم الليموزين، وينعزلون في مكاتبهم المكيفة في الطابق الأخير، وهم يتعذبون بصمت، بسبب وحدة قوتهم. لكن الرحمة أيضاً لهؤلاء الذين تظل أياديهم مبسوطة للإحسان والخير، ويريدون الانتصار على الشر بالحب وحده، لأنهم يجهلون شريعتك التي تقول: «من ليس له سيف، فليبع رداءه ويشتري سيفاً».

«الرحمة يا رب، رافة بنا، نحن الذين يفثشون ويجرؤون على الإمساك بالسيف الذي وعدت به، نحن الشعب القديس والخاصة المنتشر على وجه الأرض، لأننا لا نعرف ذواتنا حقاً. نخال أنفسنا مكتسين، فيما نحن عراة، نعتقد أننا نرتكب جريمة، فيما نحن، في الواقع، ننقذ نفساً من الهلاك. لا تنسنا من رافتك، نحن جميعاً،

الذين يستلون السيف من يد الملاك ومن يد الشيطان في آن، لأننا من العالم وفي العالم، ونحتاج إليك، نحتاج دوماً إلى شريعتك التي تقول: «وأنا أرسلكم، فلا تأخذوا معكم لا كيساً ولا مزوداً ولا حذاء، ولا ينقصكم شيء».

كف بتروس عن الكلام، وخيم الصمت طويلاً. كان يحدق إلى حقول القمح الممتدة حولنا.

\*\*\*



## الانتصار

**وصلنا** بعد الظهيرة، إلى خرائب قصر قديم يعود إلى جمعية فرسان الهيكل. جلسنا نرتاح. دخن بتروس سيجارته التقليدية، وشربت قليلاً من الخمر التي احتفظت بها من الغداء. نظرت إلى المشهد الذي يحيطني: البيوت القليلة التي يسكنها المزارعون، برج أحد القصور، تموجات الريف، الأرض المحروثة المعدة للبذار. وفوجئت، وأنا أنظر إلى يميني، برّاع قرب الأسوار المتهذبة، يعود من الحقول مع خرافه. كانت السماء حمراء والغبار، الذي تنثره حوافر الحيوانات، أضفى على المشهد منظراً غامضاً، أشبه بحلم أو برؤيا سحرية. رفع الراعي يده، وحيّانا، فرددنا التحية.

مزت الخراف قربنا وتابعت طريقها. نهض بتروس، وقد أثر فيه المشهد، قائلاً:

— هيا، لنذهب بسرعة.

— لماذا؟

— ألا ترى أننا قضينا وقتاً طويلاً على طريق ما يعقوب؟ لكن شيئاً ما كان يقول لي إن دعوته إلى الإسراع، مرتبطة بمشهد الراعي وخرافه.

بعد يومين، وبعد أن اجتزنا حقول القمح الهائلة ذات المنظر الرتيب، وصلنا إلى أسفل الجبال المرتفعة في الجنوب. وعلى الرغم

من بعض الربوات الطبيعية، فإن المكان كان موسوماً بالعلامات الصفراء التي تحنث بها الأب جوردي. ومع ذلك، فإن بتروس، ودون أن يدلي بأي تفسير، قد ابتعد شيئاً فشيئاً عن هذه العلامات، متجهاً إلى الشمال. سألته عن الأمر، فأجابني، بلهجة جافة، أنه مرشدي، ويعرف تماماً كيف يقودني.

بعد حوالي نصف ساعة من السير، سمعت ضجة أشبه بشلال. ولم يكن حولنا إلا الحقول التي أبيضتها الشمس. ورحت أفتش عن مصدر الصوت. كنّا كلّما تقدّمنا، ازداد الصخب قوة، إلى أن عرفنا مصدر الصوت، الذي لا يرقى إليه شك: إنه مسقط ماء. كانت هذه ظاهرة خارجة عن المألوف: نظرت من حولي، فلم أزل جبالاً، ولا مساقط مياه.

عند منعطف إحدى الأكمات، رأيتني، فجأة، أمام مشهد طبيعي غريب: ثمة طبقة مائية تنحدر إلى محور الأرض، تقع في منخفض أرضي يتسع لمبنى من خمسة طوابق، وتعلو ضفاف المنخفض الهائل، خضرة فياضة، مختلفة تماماً عن البقعة التي تحيط بمسقط الماء.

قال بتروس:

— سنجتاز المنحدر.

بدأنا بالانحدار. وفكرت بـ «جول فرن». كنّا كأننا نثجه إلى محور الأرض. كان الانحدار وعراً، وتوجب عليّ التشبث بالجنبات الشوكية والحجارة المسنونة، كي لا أهوي. وصلت إلى أسفل المنحدر وذراعاي وساقاي تكسوها الكلوم.

علّق بتروس، قائلاً:

— يا للمنظر الطبيعي الجميل.

شاركته شعوره: إنها واحة وسط الصحراء، تجلّى فيها اخضرار كثيف، في حين أن رذاذ الماء يرسم شكل قوس قزح. كان هذا المنظر برمته جميلاً، سواء شوهد من الأسفل أم من الأعلى.

وأصّر بتروس:

— هنا الطبيعة تُظهر عظمة قوتها.

وأردفت قائلاً:

— هنا صحيح.

— كذلك هي تسمح لنا بأن نثبت، نحن أيضاً، قوتنا. سنتسلّق

هذا المسقط: وسط المياه.

نظرْتُ من جديد إلى المشهد. فما عدت أرى الواحة الجميلة وهي إحدى النزوات المتكلفة للطبيعة. وجددتني أمام جدار يبلغ ارتفاعه خمسة عشر متراً. ومن علوه، يتساقط الماء بصخب كبير. لم يكن عمق البركة، التي يشكّلها تساقط الماء، يتجاوز قامة رجل، فيما كان النهر يجري بصخب عبر فتحة تنساب إلى أحشاء الأرض. لم يكن على الجدار أي نقطة يمكن التشبّث بها، كما أن البركة ليست بالعمق الكافي لتتحمل سقوطاً. فبلت لي المهمة مستحيلة.

تذكرت مشهداً حصل منذ خمس سنوات، خلال ممارسة أحد الطقوس الخطيرة التي جرى فيها تسلّق أحد الأماكن الشاهقة. تركني المعلم أقزر ما إذا كنت أريد المتابعة، أم لا. كنت أكثر فتوة، وكنت مسحوراً بقدراته، وبمعجزات الميراث، فقررت المضي قدماً، لأثبت شجاعتي وجرأتي.

بعد قرابة الساعة من التسلّق، وأمام العقبة الأكثر صعوبة من الصعود، عصفت ريح قوتها غير معهودة، وكان عليّ أن أتشبّث، بكل قواي، بالحرف الصغير الذي كنت مستنداً إليه، كي لا أهوي. أغمضت عيني منتظراً الأسوأ، وأظافري مغروزة في الصخر. وكم كانت دهشتي بالغة، عندما استنتجت لاحقاً أن أحدهم قد ساعدني على تثبيت موضع مريح وأكيد. فتحت عيني: كان

معلمي إلى جانبي يرسم في الهواء بعض الوجوه، وفجأة، توقفت الريح. وبرشاقة غريبة تشبه التمارين الخالصة التي تجعل الجسم ينطلق صعوداً بقوة الإرادة وحدها، هبط من جديد، ودعاني لأفعل مثله.

وصلت إلى الأسفل، وساقاي ترتجفان. سألته مستنكراً لا جعل الريح تتوقّف قبل أن يبلغني.

— لأنني أنا الذي جعل الريح تهب.

— لقتلي؟

— بل لإنقاذك. فأنت غير قادر على تسلّق هذا الجبل. وعندما سألتك: هل تريد الصعود؟ كنت أريد أن أمتحن حكمتك، لا قوتك.

ثم أضاف المعلم:

— لقد اختلقتُ أمراً لم أوج لك به. فلو أنك كنت تتقن التسلّق، لما كانت هناك مشكلة. لكنك أردت أن تكون شجاعاً، في الوقت الذي كان الأمر فيه يتطلب ذكاء لا شجاعة.

وحثّني في ذلك اليوم عن مجوس أصيبوا بالجنون، خلال مسار الإشراف، ولم يعودوا قادرين على تمييز قواهم من قوى تلاميذهم. وأنا، خلال مسيرة حياتي، تعزفت إلى رجال كبار في جمعية الميراث. وقابلت ثلاثة معلمين، بمن فيهم معلمي، قادرين على إيصال التحكّم الجسدي إلى مستويات تفوق تصور الإنسان. رأيت معجزات ونبوءات تحققت، وإعادة تجسّد. حثّني معلمي عن حرب المالوين قبل أن يغزو الأرجنتينون الجزر بشهرين. وضعها لي بالتفصيل، وشرح لي المشبّات الكوكبية لهذا الصراع.

ومنذ ذلك اليوم، اكتشفت أن بعض المجوس الذين، كما قال المعلم، أصبحوا مجانين خلال مسار الإشراف، كانوا شبّيهين بالمعلمين، حتى في قدراتهم. وقد رأيت أحدهم، بفضل تركيزه القوي، يجعل

بذرة تبرعم في خمس عشرة دقيقة. لكن هذا الرجل، وأمثاله، قادوا تلاميذ كثيرين إلى حافة الجنون واليأس. إذ انتهى بعضهم في مستشفى الأمراض النفسية، كما تم إثبات قضية انتحار. هؤلاء الرجال موجودون على اللائحة السوداء لجمعية الميراث، لكن كان يستحيل وضع رقابة عليهم. وما يزال عدد منهم يتابع نشاطاته إلى الآن.

كل هذه القصة عبرت فكري في أقل من ثانية، أمام منحدر الماء الذي يستحيل عبوره. فكرت بكل هذا الوقت الذي مشيناه أنا وبتروس معاً. تذكرت الكلب الذي هاجمني ولم أتسبب له بأذى. كما تذكرت افتقار بتروس إلى الانضباط مع الخادم في المطعم، وثمانه أثناء حفلة الزواج.

— بتروس، لا يمكنني أن أتسلق هذا الجدار. لسبب واحد: هو الاستحالة.

لم يجبني. جلس فوق العشب، وفعلت مثله. بقينا صامتين لربع ساعة. شعرت بأنني أعزل بسبب صمته، وأخذت المبادرة في الكلام من جديد.

— بتروس، لا أريد تسلق هذا الشلال، لأنني سأهوي معه. أعرف أنني لن أموت، لأنني حين رأيت وجه موتي، رأيت أيضاً اليوم الذي سيحدث فيه إذا كنت وفياً لطريقي. لكن سقوطي ممكن، وسيفضي إلى بقائي مشلولاً طوال حياتي.

— باولو، باولو...

نظر إليّ وابتسم. تغيرت ملامحه كلياً، وكان الحب الملتهم في صوته واللمعان في عينيه.

— هل ستقول إنني أخل بقسم الطاعة الذي أوليتك إياه قبل سلوك الطريق؟

— أنت لا تخل بأي قسم. لا تشعر بخوف أو بكسل. وبالطبع لا تفكر أنني أسألك أمراً غير مجب. أنت لا تريد تسلق الشلال، لأنك تفكر بالمجوس السود<sup>(١)</sup>.

إنَّ التحكم بالقدرة على اتخاذ القرار لا يعني الإخلال بالقسم، فهذه القدرة ليست عصية على الحجاج.

تأملت مسقط الماء، ثم استدرت ناحية بتروس. قذرت إمكانات التسلق وكانت معدومة.

ثم أضاف:

— انتبه، سأصعد قبلك دون أن أستعين بأي موهبة، وسأنجح. إذا نجحت، فهنا، فقط، لأنني أعرف أين أضع قدمي، وعليك أن تفعل مثلي. وهكذا، ألغي قدرتك على اتخاذ القرار. أما إذا رأيتني أتسلق جدار المسقط ورفضت، فهنا يعني أنك أخللت بالقسم.

خلع بتروس حذاءه. كان يكبرني بعشر سنوات على الأقل، فإذا نجح في التسلق، فسوف يبطل كل حجة لدي. نظرت إلى مسقط الماء، وشعرت بالبرد في معدتي.

لكنه لم يتحرك. خلع حذاءه، وبقي في مكانه. نظر إلى السماء ثم قال:

— على بعد كيلومترات من هنا، ظهرت العذراء على أحد الرعيان عام ١٥٠٢. اليوم يصادف عيدها، عيد عذراء الطريق، وأريد أن أكرس انتصاري لها. وأنصحك بأن تفعل مثلي، أي أن تكرس انتصارك لها. لا تقدّم إليها ألم قدميك ولا جراح يديك اللتين

(١) اسم يطلق في جمعية الميراث على المعلمين الذين فقدوا الاتصال السحري بتلاميذهم. كما يستعمل هذا التعبير للإشارة إلى المعلمين الذين أوقفوا مسار معارفهم، بعد أن هيمنوا على قوى الأرض فقط.



فزحتهما الحجارة. فالعالم أجمع لا يهديها إلا ألم توباته. لا شيء يضير في ذلك، لكنني أعتقد أنها ستكون سعيدة لو أن البشر يسلمونها، بالإضافة إلى عذاباتهم، أفراحهم أيضاً.

لم أكن مستعداً إطلاقاً للكلام. كنت أشك في قدرة بتروس على تسلق هذا الجدار. وقلت في نفسي إن كل هذا مجزد ملهاة، وإنه، في الواقع، يخدعني بكلمات جميلة ليجبرني لاحقاً على فعل ما لا أريد. ومع ذلك، أغمضت عيني، ورفعت صلاتي لعذراء الطريق، متعهداً أنني، إذا تمكنت من تسلق الجدار، فسأرجع يوماً إلى هذا المكان.

– «كل ما تعلمته حتى الآن لا معنى له، إلا إذا وجدت له تفسيراً. تذكر أن طريق مار يعقوب هي طريق الناس العاديين. قلت لك ذلك آلاف المرات. على الطريق، كما في الحياة، تغدو الحكمة بلا قيمة، إلا إذا ساعدت الإنسان على تخطي الحواجز.

«فلا غاية من وجود المطرقة ما لم يكن هناك مسامير لطرقها. لكن وجود المسامير ليس كافياً. ينبغي أن تكون المطرقة موجودة في يد المعلم، وأن يستخدمها تبعاً لوظيفتها.

تذكرت، عندئذ، قول المعلم في «إيتاسايا»: «من يملك سيفاً فليضعه دوماً قيد الاختبار، لنلا يصدأ في غمده».

ثم قال مرشدي، موضحاً:

– المسقط هو المكان الذي يجب أن تطبق من خلاله كل ما تعلمته إلى الآن. هناك أمر لصالحك. أنت تعرف تاريخ موتك، والخوف من الموت لن يشلك، عندما تحين اللحظة لتتخذ قراراً سريعاً بشأن الموضع الذي ستستند إليه للوصول بسلام. لكن تذكر أن عليك الاستعانة بالماء، لأنه هو الذي يمنحك ما تحتاج إليه. لا تنس أن تغرز ظفرك في إبهامك، إذا تملكك فكرة سيئة.

وينبغي لك، بشكل خاص، الاتكال، في كل لحظة من

الصعود، على الحب الملتهم. فهو الذي يقودك، ويبزر كل خطوة من خطواتك.

صمت بتروس. تعزى تماماً، وغطس في المياه الباردة للبركة الصغيرة، ثم رفع يديه إلى السماء. شعرث أنه كان سعيداً، مستمتعاً برشاش الماء المنعش، وأقواس القزح التي ترسمها نقاط الماء حولنا.

قال، قبل ولوجه ستار الشلال:

– «إن مسقط الماء هنا سيعلمك كيف تكون معلماً. ساصعد، لكن سيبقى حجاب الماء بيني وبينك، فلن تتمكن من رؤية موضع قدمي أو يدي.

«كذلك فإن التلميذ لا يستطيع أبداً تقليد خطوات مرشده. لكل طريقته في رؤية الحياة، وفي مواجهة المصاعب وتحقيق الانتصارات. التعليم هو أن تظهر للآخر ما هو قادر عليه، والتعلم هو جعل هذا ممكناً.

لم أعلق بكلمة واحدة. عبر تحت الشلال، وبدأ بالتسلق. تتبعت طيفه، كمن يرى أحداً عبر زجاج غير مصقول. تقدّم نحو الأعلى ببطء، ودونما تراجع. وكلما اقترب من القمة، أحسست بالخوف لاقتراب اللحظة التي ينبغي لي فيها أن أحذو حذوه. وأخيراً، دنت اللحظة الأكثر رعباً: الصمود في وجه الماء الذي يتدحرج، والصعود دوماً. كانت قوة الشلال قادرة على رميه إلى الأسفل. لكن رأس بتروس طفا، وألبسته المياه المتساقطة معطفاً فضياً. وفجأة، رفع جسده إلى الأعلى متشبثاً بكل قواه بالنجد لكن دائماً داخل الماء. واحتجب عن ناظري لبضع لحظات.

ثم ظهر على الضفة، وجسده مبلل ومغمور بنور الشمس. كان يبتسم.

هتف، وهو يشير إلي بيديه:

– هيا، حان الآن دورك.

حان دوري، وإلا وجب التخلي إلى الأبد عن سيفي.

خلعت ملابسي، وصليت من جديد لعذراء الطريق. ثم غطست رأسي في المياه. كانت مجلدة، فتشنج جسدي. لكن راودني، بعد قليل، إحساس لنيد. ودون تفكير، مشيت قدماً إلى مسقط الماء.

أكسبني تأثير الماء على رأسي الحس العبثي بالواقع. هذا الحس الذي يضعف الإنسان، حين يكون في أشد الحاجة إلى إيمانه وعزيمته. كان الشلال أكثر عنفاً مما تصورته، فإذا تلقيته بصدري فقد يقذف بي إلى الهاوية، حتى وإن كانت قدمي تستندان بعزم إلى قاع البركة. عبرت التيار، وبقيت بين الصخرة والماء. ركن الجسد إلى مسافة ضيقة ملتصقاً بالصخرة. بليت لي المهمة أسهل مما تصوّرت. أما الجدار الذي بدا مصقولاً من الخارج، فقد كانت تتخلله، في الواقع، نتوءات عذّة. جننت لفكرة أنني سأتحلّى عن سيفي خوفاً من صخرة ملساء، فيما الأمر يتعلق بنوع من الصخور تسلّقت عشرات المرات. بدا لي أنني أسمع صوت بتروس: «هل رأيت، ما إن تحل المشكلة، حتى تصبح بسيطة بسيطة مرعبة».

تسلّقت، ووجهي ملتصق بالصخرة الرطبة. اجتزت خلال عشر دقائق، أكثر من نصف الطريق. ولم يتبق لي إلا اجتياز قمة الشلال. وبدا لي أن الانتصار، الذي سآحققه خلال هذا التسلّق، لن يفيلني شيئاً إذا لم أتخطّ الجزء الصغير الذي يفصلني عن الهواء الطلق. هنا يكمن الخطر. وفضلاً عن ذلك، فإنني لم أستطع أن أتبين جيداً كيف تجاوزه بتروس. أخذت أصلي لعذراء الطريق التي لم أسمع بها من قبل، والتي بين يديها أضع الآن إيماني كله، وأملي كله بالظفر. وضعت شعري بحذر تحت الشلال الهادر.

غمرني الماء وشوش رؤيتي. شعرت بجبروته. وتشبّثت، بقوة، بالصخرة، وأنا خافض الرأس بشكل أستطيع معه تكوين جيب هواء يمكنني من خلاله التنفّس. وثقت تماماً بقدمي ويدي؛ يديّ اللتين أمسكتا بالسيف القديم، وقدمي اللتين اجتازتا طريق مار يعقوب. كانت أطرافي حليفتي الوفية، ولكن صوت الماء أصمّ أذني، وكنت أتنفّس بصعوبة. عندئذ، غمست رأسي في التيار. ولبضع لحظات، أضحي كلّ شيء سواناً من حولي. صارعت لأبقى متشبّثاً بالنتوءات، لكن بدا لي الصخب وكأنه يجزني إلى مكان غامض وبعيد، حيث لم يكن لأدنى شيء أي أهمية، وحيث أستطيع بلوغي، فقط لو استسلمت لهذه القوة. عندئذ، لن يعود الجهد الفائق الذي سابدله لأبقى ملتصقاً بالصخر، ضرورياً. ذلك أن كلّ شيء سيكون سلاماً وراحة.

ومع ذلك، قاومت يداي وقدماي إغواء الموت. بدا رأسي يطفو ببطء على حجاب الماء، كما دخل. شعرت بحب عميق لجسدي الذي ساعدني في هذه المغامرة المجنونة، مغامرة رجل يجتاز مسقط ماء، بحثاً عن سيفه.

عندئذ، رأيت الشمس تلمع فوق، وشهقت بعمق. أعطاني هذا الفوز دفعاً جليداً. نظرت من حولي، فرأيت على بعد سنتمترات النجد الذي اجتزناه، والذي يشير إلى نهاية السفر. أغراني كثيراً أن أهرع لأتشبّث به، لكنني لم أُلح أي دعامة تسمح لي بذلك، جزاء الماء المتساقط. كانت الوثبة الأخيرة عنيفة، لكن لم يحن بعد وقت الانتصار. وكان عليّ أن أتحرّك بخطواتي. كانت تلك اللحظة الحاسمة في مسيرة الصعود؛ المياه تضربني على صدري، وضغطها يهتد بقذفي نحو الأرض التي تجزأت على الخروج منها مدفوعاً بأحلامي.

لم يكن الوقت مناسباً لأفكر بمعلمي وأصدقائي. ولم أكن

أستطيع النظر جانباً، لرؤية ما إذا كان بتروس قادراً على إنقاذي في حال انزلاقي. فكّرت في أنه قام، حتماً، بهذا التسلق ملايين المرات، ولا بُدّ من أنه يعرف أنني أحتاج إلى المعونة بشكل مُلح، لكنه تخلّى عني، أو لعله لم يتخلّ عني، بل كان خلفي في وقت لا أستطيع فيه أن أدير رأسي، لأن ذلك يخلّ بتوازني، وعليّ، إذن، أن أحقق انتصاري بنفسِي.

ثبّت قدميّ وإحدى يديّ بالصخرة، فيما تحرّرت يدي الأخرى باحثة عن الانسجام مع الماء. لم يكن عليها أن تقاوم، لأنني استخدمت أقصى قوّتي. وأصبحت يدي سمكة طليقة تعرف أين عليها التوجه. تذكرت أفلام طفولتي، حيث تقفز أسماك السلمون في مساقط الماء، لأن عليها، هي أيضاً، بلوغ هدفها.

ارتفعت ذراعي ببطء، مستعينة بقوّة الماء. تحرّرت، وكما السلمون في أفلام طفولتي، غطست في الماء، بحثاً عن مكان تستند إليه من أجل القفزة النهائية. كانت الصخرة مصقولة بفعل قرون من التآكل. لكن لا بدّ أن هناك دعامة. وإذا كان بتروس قد نجح، فانا أيضاً بإمكانني ذلك. واجتاحني ألم فظيع؛ أنا الآن على خطوة من النهاية. وفي اللحظة التي تتعاضم فيها قوة الإنسان، فإنه لا يعود واثقاً بنفسه. سبق لي أن خسرت في اللحظة الأخيرة. اجتزت المحيط سباحة، وكنت أغرق لدى تدفق الأمواج على الشاطئ. لكنني الآن على طريق مار يعقوب، وليس بوسع هذه القصة أن تتكرّر إلى ما لا نهاية. يجب الانتصار هذه المرّة.

كانت يدي الحرة تنزلق على الصخرة الملساء، وضغط الماء يزداد قوّة. لم يعد بإمكان أعضائي الأخرى التحقّل أكثر. وكان من الممكن أن تصيبني التشنّجات في أيّ وقت. صفع الماء بعنف أعضائي التناسلية، وشعرت بألم حاد. وفجأة، وجدت يدي الحرة مثكاً في مكان خارج مسار التسلق. حفظت ذهنياً موقعه، لأسند



إليه يدي الأخرى التي قادتني نحو الخلاص: وجلت على بعد  
سنتمرات قليلة من المثكا الأول نقطة أخرى في انتظاري.

هنا الموقع الذي وجد فيه حجاج مار يعقوب مثكاً لهم منذ  
قرون. تشبثت بكل قواي، محزراً يدي الأخرى. في البداية، قذفتها  
قوة النهر إلى الوراء، فبلغت أول دعامة. وللحال، تبع جسدي الطريق  
التي افتتحتها ذراعاي، ووقفت على النجد.

آخر خطوة أنجزت. عبرت التيار. وفوجئت بأن السقوط لم  
يكن بالوحشية التي تخيلتها، بل مجزذ خيط ماء ساكن. رفعت  
جسدي، واستلقيت على الضفة مستسلماً لتعبي. أدفأت الشمس  
جسدي. لقد نجحت: لا زلت حياً كما كنت عند الأسفل في  
البركة. وبالرغم من صخب الماء، فإنني سمعت خطى بتروس، وهي  
تقترب.

أردت أن أنهض، أن أعتبر له عن فرحتي، لكن جسدي، الذي  
أنهكه التعب، لم يطاوعني.

— إبق هادئاً. استرخ، وحاول أن تتنفس ببطء.

هنا ما فعلته. وغرقت في نوم عميق بلا أحلام. عندما  
استيقظت، كانت الشمس قد انحدرت فوق الأفق. ارتدى بتروس  
ثيابه، وأعطاني ثيابي، قائلاً إنه علينا مواصلة المسير.

أجبت:

— أنا تعب جداً.

— لا تهتم، ساعلمك كيف تغترف الطاقة، مما يحيط بك.

وعلمني بتروس «نفس راح».

مارشت التمرين لمدة خمس دقائق، وشعرت بالتحسن. نهضت،  
ارتديت ثيابي، وحملت حقيبة ظهري.

قال لي بتروس:

— تعال من هنا.

مشيت حتى حافة النجد. كان الينبوع الصاخب يتدفق بغزارة  
تحت قدمي.

قلت:

— من هنا، يبدو الأمر أسهل مما يبدو من الأسفل.

— صحيح. لو أنني أظهرت لك هذا المشهد من قبل، لخنت نفسك،  
وقدّرت إمكاناتك بشكل سيء.

كنت لا أزال ضعيفاً. كزرت التمرين. وبعد قليل، شعرت  
بالانسجام تام بيني وبين الكون المحيط بي، وكأنّه اخترق قلبي.  
سألت بتروس لما لم يعلمني «نفس رام» من قبل، لأنني غالباً ما  
شعرت بالتعب والكسل، أثناء السير على طريق مار يعقوب.

أجابني، وهو يضحك:

— لأنك لم تقل لي شيئاً عن تعبك أو كسلك.

ثم سألني إن بقي معي بسكويت بالزبدة، كنت قد اشتريته  
في «أستورغا».

\*\*\*

## «نفس رام»

أزفر الهواء من رشتيك قدر ما تستطيع. ثم اشهق ببطء، وأنت ترفع  
ذراعيك. خلال الشهيق، ركّز لكي يخرق قلبك الحب والسلام والانسجام مع  
الوجود.

احتفظ بنفسك متوقفاً، وأنت ترفع ذراعيك أطول وقت ممكن، مستمتعاً  
بالانسجام الداخلي والخارجي، ثم أزفر بسرعة، وأنت تلفظ كلمة رام.  
كز هذا التمرين لمدة خمس دقائق.

## الجنون

**منذ** حوالى ثلاثة أيام، ونحن نقوم بسير حثيث. كان بتروس يوقظني قبل شروق الشمس لنبدأ السير. ولم نكن نتوقف إلا عند التاسعة مساءً. واقتصرت محطاتنا على وجبات الطعام. وقد ألغى مرشدي القيلولة خلال الساعات الأولى بعد الظهيرة. شعرت وكأنه يتبع برنامجاً غامضاً، تعذرت علي معرفته.

ثم إن طريقته في التصرف قد تغيرت تماماً. في البداية، عزوت السبب إلى الشكوك التي أظهرتها إبان فصل مسقط الماء، ثم أدركت أن الأمر ليس كذلك. فقد كان يظهر استياءه أمام الجميع، وينظر إلى ساعته مزات عدة في اليوم. ذكرته بكلماته: نحن نخلق بأنفسنا مفهوم الزمن.

فأجابني:

— أنت تزداد ذكاء كل يوم. سنرى إذا كنت ستستخدم هذا الذكاء فعلاً، عندما يتطلب الموقف ذلك.

بعد ظهيرة أحد الأيام، تعبت من الإيقاع المتسارع في المشي، لدرجة أنني فقدت القدرة على القيام بخطوة إضافية واحدة. أمرني بتروس بخلع قميصي، وإسناد عمودي الفقري إلى شجرة قريبة. بقيت بضع دقائق على هذا الوضع. وبعد قليل، أحسست أنني أفضل حالاً. بدأ بتروس يشرح لي منافع النباتات، ولا سيما الأشجار القديمة التي تقدر على نقل الانسجام الذي تحمله في طياتها إلى كل من يسند مركزه العصبي إلى جذعها. واسترسل، لساعات، في خطبة عن الخصائص المادية، والقدرات الهائلة والنشطة، للنباتات.

لم أهتم بتدوين الملاحظات، لأنني قرأت ذلك في مكان ما. لكن خطبة بتروس كانت تهدف إلى تبديد شعوري بأنه كان غاضباً مني. أجللت، عندئذ، صمته باحترام أكبر. وربّما جلس هو بقلقي، فحاول أن يظهر من الودّ حيالي، بقدر ما يسمح مزاجه السيء في الأيام الأخيرة.

ذات صباح، وصلنا إلى جسر هائل غير متناسق مع خيط الماء الرفيع الذي ينساب تحته. كان ذلك صباح الأحد، وكانت الحانات والبارات في البلدة المجاورة لا تزال مغلقة. جلسنا لتناول الإفطار. قلت، مفتحاً الكلام:

— للإنسان والطبيعة نزوات مشتركة. فنحن نبني جسوراً جميلة، وتتكفل الطبيعة بتحويل مجرى النهر! قال بتروس:

— إنه الجفاف. أسرع في تناول شطيرتك. علينا معاودة السير. قزرت، أخيراً، أن أسأله عن سبب هذه العجلة.

— قلت لك إن وقتاً طويلاً مضى، ونحن لا نزال على الطريق إلى مار يعقوب. لدي أشياء كثيرة عليّ إنجازها في إيطاليا، وينبغي لي العودة باكراً.

لم يقنعني هذا الجواب. لعلّه كان صحيحاً، لكنه، بالتأكيد، لم يكن الحافز الوحيد. ألحيت في السؤال، لكنه غيّر مجرى الحديث قائلاً:

— ماذا تعرف عن هذا الجسر؟

— لا شيء، حتى ولو أخذنا بالاعتبار مسألة الجفاف، فإن أبعاده تبقى غير متناسقة. أعتقد أن النهر قد غيّر مجراه فعلاً. قال:



— لا أملك أدنى فكرة، لكنه يُعرف باسم «ممر الشرف». وهذه الحقول المنتشرة حولنا كانت ميداناً لمعارك دامية بين الفيزيغوط<sup>(١)</sup> والشفابيين<sup>(٢)</sup>. وشهدت، لاحقاً، معارك بين جنود الفوننس الثالث والمغاربة. وإذا كان الجسر طويلاً بهذا الشكل، فلكني يستوعب الدماء التي تجري من تحته، دون أن تغرق المدينة.

كانت هذه دعابة سوداء. لم أضحك. أضاف بتروس، وقد اعتراه القليل من الاضطراب:

— ليست جيوش الفيزيغوط ولا صرخات نصر ألفوننس الثالث، هما اللتان أطلقنا الاسم على الجسر، بل قصة حب وموت:

«خلال عهود الحج الأولى على طريق مار يعقوب، كان يفد من كافة أنحاء أوروبا حجاج وكهنة ونبلاء، وحتى ملوك، أرادوا تكريم القديس. كما كان يأتي مهاجمون ولصوص وقطاع طرق. والتاريخ يتحنت عن حالات لا تحصى من سرقات قوافل بأكملها، وجرائم فظيعة ارتكبت بحق الحجاج الذين يسافرون منفردين.

قلت في نفسي: «التاريخ يعيد نفسه».

«وهكذا قرّر الفرسان النبلاء أن يحموا الحجاج. وتكفل كل منهم بحراسة جزء من الطريق. لكن، كما أن الأنهار تغير مجراها، فإن مثال الناس أيضاً يتغير. بدأ الفرسان، الذين ألقوا الذعر في نفوس اللصوص، يتخاصمون فيما بينهم، لمعرفة من هو الأقوى والأشجع على طريق مار يعقوب. أخذوا يتواجهون ويتبارزون، فيما اللصوص يقومون بأعمالهم على الطرقات دون عقاب.

«دام هذا طويلاً، إلى أن شغف أحد نبلاء مدينة ليون بامرأة عام

(١) الفيزيغوط، أو القوط الغربيون، الذين غزوا إسبانيا عام ٤٧٦، حيث أسسوا مملكة دامت حتى الفتح العربي عام ٧١١. اهتموا إلى المذهب الكاثوليكي نحو عام ٦٠٠.

(٢) الشفابيون: إثنية حول مدينة شتوتغارت، تقاتلت مع الفيزيغوط.

١٤٣٤. كان يدعى دون سويرو دو كينيونس، وهو ثري نافذ. حاول بكافة الوسائل أن يتزوج السيدة، لكن المرأة، التي لم يحتفظ التاريخ باسمها، لم تأبه إطلاقاً لشغفه الكبير، ورفضت طلبه.

تشوّقت لأعرف الصلة بين حب غير متبادل، والخصام بين الفرسان الجوالين. لاحظ بتروس اهتمامي، ووعدني أن يخبرني بقية القصة، شرط أن أنهي شطيرتي دون إبطاء، وأن نعاود المسير فوراً.

قلت:

— لكأنك أُمي، عندما كنت صغيراً.

لكنني التهمت بقية الخبز. ثم حملت حقيبة ظهري، وبدأنا باجتياز المدينة الصغيرة النائمة.

أكمل بتروس قصته:

«جرح فارسنا في عنفوانه الشخصي، وقرّر أن يفعل ما يفعله جميع الناس، عندما يشعرون أنهم منبوذون: الشروع في حرب خاصة. أقسم أنه سيقوم بمأثرة هامة جداً، بحيث لا تنسى الأنسة اسمه أبداً. أخذ يفتش، لمدة شهر، عن مثال يكزس من أجله هذا الحب المطعون. وذات مساء، سمعهم يتحنتون بالجرائم والصراعات الجارية على طريق مار يعقوب، فخطر له الفكرة.

«جمع عشرة من أصدقائه، وأقاموا في هذه البلدة التي نجتازها. أشاع بين الحجاج، الذين يمرون من هنا، أنه مستعد للبقاء ثلاثين يوماً، وتحطيم ثلاثمئة سيف، ليثبت أنه الأقوى والأشد بسالة بين كل فرسان الطريق. أقام مع أصدقائه مخيماً، وحشدوا الأعلام والرايات والخدم، وانتظروا أن يأتي الفرسان لتحديهم.

بدأت أتخيل الاحتفالات التي تقام: خنازير مشوية، نبيذ بحسب الطلب، موسيقى، قصص وألعاب. تراءى أمامي مشهد كامل.

وأضاف بتروس:

— «بدأت مبارزات الفروسية في ١٠ يوليو، عند وصول الفرسان الأوائل؛ كان كينيونس وأصدقائه يحاربون نهاراً، ويقيمون الاحتفالات الكبرى ليلاً. وكانت المبارزات تجري دوماً فوق الجسر، حتى لا يستطيع أحد الهرب. في فترة ما، ازداد عدد المقاتلين كثيراً، بحيث أن النيران كانت تبقى مشتعلة حتى الصباح. وأجبر الفرسان المهزومون على التعهد أنهم لن يتقاتلوا فيما بينهم، وأن تقتصر مهمتهم، من الآن فصاعداً، على تأمين الحماية للحجاج حتى يبلغوا كومبوستيلا.

«ما هي إلا أسابيع قليلة، حتى عمّت شهرة كينيونس في أرجاء أوروبا. وجاء لتحتيه، بالإضافة إلى فرسان الطريق، جنرالات وجنود ولصوص، كانوا يعرفون تماماً أن من يستطيع إلحاق الهزيمة بفارس ليون الشجاع، يصبح مشهوراً بين ليلة وضحاها. وفيما كان الآخرون يسعون خلف الشهرة، وضع كينيونس، نصب عينيه، هدفاً أنبل: حب امرأة. وهذا المثال جعله يخرج منتصراً من كل المعارك.

«في التاسع من شهر أغسطس، انتهت المبارزات، وتم تكريس دون سويرو واحداً من أشجع الفرسان، وأقواهم على الإطلاق. ومنذ ذلك اليوم، لم يجرؤ أحد على الشك في شجاعته الكبيرة. وعاد النبلاء إلى مواجهة عدوهم الوحيد المشترك: اللصوص الذين يهاجمون الحجاج على الطريق الكبيرة. وقد أنت هذه الملحمة، لاحقاً، إلى تشكيل الفرقة العسكرية لمار يعقوب، حامل السيف.

اجتازنا البلدة. أردت أن أقوم بنصف استدارة، لألقي نظرة على «ممر الشرف»، أي الجسر الذي جرت عليه هذه القصة، لكن بتروس قرّر أن نتابع المسير.

سألت:

— وماذا حصل لدون كينيونس؟

— ذهب إلى «سانتياغو دو كومبوستيلا»، ووضع في المذخر عقداً ذهبياً، يزين الآن عنق مار يعقوب الأكبر.

— أسأل إن كان تزوج السيدة أخيراً...

قال بتروس:

— آه، هذا أمر أجهله. في تلك الفترة، لم يكتب التاريخ إلا الرجال. ثم إنه، حيال مشاهد المعارك التي لا تحصى، من ذا الذي سيهتم بقصة حب؟!

قال مرشدي هذه الكلمات، ثم رجع إلى صمته المهدوء. ومشينا ليومين وأكثر بصمت، دون أن نتوقف تقريباً، أو نرتاح.

في اليوم الثالث، اعتمد بتروس، في مشيه، إيقاعاً بطيئاً، بشكل غير عادي. قال إنه كان تعباً، جزاء الجهد الذي بذله طوال أسبوع، وإن سنّه ولياقته البدنية لم تعودا تسمحان له باتباع الإيقاع السابق. مرة أخرى، كنت متيقناً أنه لا يقول الحقيقة. وكان وجهه، بالإضافة إلى الإرهاق، يعكس قلقاً عميقاً، وكان أمراً خطيراً على وشك أن يحدث.

بعد الظهيرة، وصلنا إلى «فونسبادون»، وهي بلدة كبيرة، لكن خربة تماماً. كانت البيوت حجرية، أما سفوفها، فمن الأردواز الذي دمره الزمن، في حين أن خشب العوارض قد تعفن. كانت البلدة تشرف، من إحدى الجهات، على هاوية سحيقة. وكان وراء التلة المائلة أمامنا أحد أقدس الأماكن على طريق مار يعقوب: صليب الحديد.

هذه المرة، أنا من كان متلهفاً لبلوغ هذا النصب الغريب، المؤلف من جذع يبلغ ارتفاعه مترين، ويعلوه صليب حديدي. أقيم الصليب أيام اجتياح قيصر، تكريماً للإله عطارد، بحسب التقليد الوثني. وجرت العادة أن يضع الحجاج هناك حجارة منقولة من مكان بعيد. فاستغللت كثرة الصخور في هذه المدينة المهجورة، وللمت عن الأرض قطعة أردواز.



وإذ، صممت على حث الخطي، لاحظت أن بتروس كان يتباطأ أكثر فأكثر في مشيته، متفخفاً البيوت الخربة، مفتشاً بين جذوع الأشجار الميتة وذخائر الكتب، إلى أن جلس وسط الساحة، حيث يرتفع صليب خشبي.

اقترح:

– فلنسترخ قليلاً.

كان الوقت لا يزال نهائياً. وحتى إن بقينا هنا ساعة، فسيكون لدينا الوقت للوصول إلى صليب الحديد قبل هبوط الليل. جلست قربه، وتأملت المنظر المقفر: الناس الذين يغيرون أمكنتهم، البيوت المتينة التي كانت مأهولة لوقت طويل قبل أن تتهدم.

كان المكان رائعاً تُضفي عليه الجبال في الخلف، والوادي في المقدمة، جمالاً ملحوظاً. وتساءلت عن السبب الذي ترك من أجله كل هؤلاء الناس مكاناً كهذا.

سألني بتروس:

– هل تعتقد أن دون سويرو كان مجنوناً؟

وكنيت قد نسيت من هو دون سويرو، وكان على بتروس أن يذكرني بممر الشرف.

أجبت:

– أجل، أعتقد أنه كذلك.

مع أنني كنت أشك في صحة جوابي.

– وهو كذلك، وأيضاً الراهب ألفونسو الذي التقيته، وأنا أيضاً، ذلك أنني أظهر هذا الجنون في الرسوم التي أنفذها. وحتى أنت، الذي يفتش عن سيفه. إننا جميعاً نملك في داخلنا شعلة الجنون المقدسة الحارقة، التي يغذيها الحب الإلهي.

ولا يحتاج ذلك إلى غزو أميركا، أو التحنن مع العصافير، كما

كان يفعل مار فرنسيس الأسيزي. إن بائع الخضار القابع على الناصية، بإمكانه أن يحترق بالشعلة المقدسة للجنون، إذا كان يحب عمله. فالحب الإلهي موجود بشكل يتخطى معه المفاهيم البشرية، وهو مُعَد، لأن الجميع متعطشون إليه.

ذكرني بتروس بأنني أستطيع إيقاظ الحب الإلهي، بفضل تمرين «الكرة الزرقاء»، لكن، لكي يفتح الحب الإلهي، لا ينبغي أن أخاف تغيير مجرى حياتي. إذا كنت أحب ما أفعله، فهذا ممتاز، وإلا فالوقت ملانم دوماً للتغيير. وإذا تركت التغيير يحدث، أتحوّل إلى أرض خصبة، تاركاً للخيال المبدع أن ينشر فيّ بذوره.

– إن كل ما علمتك إياه، بما فيه الحب الإلهي، لا معنى له، ما لم تكن راضياً عن نفسك. وإذا لم تكن راضياً، فإن التمارين، التي لقنتك إياها، تقودك إلى الرغبة في التغيير حتماً. ولكي لا ترتد التمارين عليك، ينبغي أن تفسح في المجال لحدوث التغيير في حياتك. إنها اللحظة الأصعب في حياة الإنسان: أن يعي أهمية «الجهاد الحسن». لكنه يشعر أنه عاجز عن خوضه، لأنه عاجز عن تغيير حياته. عندئذ، ترتد المعرفة على مالكةا.

نظرت إلى مدينة «فونسبادون». لعل هؤلاء الناس أحسوا بالرغبة الجماعية في التغيير. سألت بتروس هل اختار هذا المكان، عمداً، ليقول لي ذلك.

أجاب:

– لا أعرف ما حصل هنا بالضبط. فالناس يضطرون، دوماً، إلى تقبل التغيير الذي يفرضه القدر، لكني لا أتحدث بهذا، بل أتحدث بعمل إرادي، ورغبة حقيقية لمحاربة كل ما لا يرضيك في حياتك اليومية.

«خلال وجودنا، تواجهنا، دوماً، مشاكل صعبة: اجتياز شلال، مثلاً، دون أن تهوي... عندئذ، عليك أن تترك العنان لخيالك المبدع.



«في مثل حالتك، كانت هناك مسألة حياة أو موت. ولم يكن الوقت ملائماً للتردد؛ لقد أشار الحب الإلهي إلى الطريق الوحيدة.

«إلا أن ثقة مسائل تجبرنا على اختيار طريق من طريقين، وهي تتعلق بمشاكل تعترضنا كل يوم، كاتخاذ قرار مهني، أو قطيعة عاطفية، أو لقاء اجتماعي. إن كلاً من هذه القرارات الصغيرة يمكنه أن يعني خياراً، فيه مسألة موت أو حياة. عندما تخرج من بيتك صباحاً لتذهب إلى عملك، عليك أن تختار بين وسيلة نقل توصلك سليماً معافى إلى باب مكتبك، ووسيلة أخرى تعرض ركابها لحادث يتسبب بموتهم. أنظر كيف أن قراراً بسيطاً يمكن أن يتوقف عليه مصير إنسان.

جعلني كلام بتروس أفكر بقراري؛ لقد اخترت طريق مار يعقوب، بحثاً عن سيفي. إن سيفي هو هلفي الأهم، وعليّ العثور عليه، كيفما اتفق. كان عليّ، إذن، اختيار القرار الصحيح.

أفضيت إلى بتروس بالسز الذي كان يشغلني، فقال:

— إن الوسيلة الوحيدة لاتخاذ القرار الصحيح، هو الاعتراف بالقرار الخاطئ؛ تفحص ملياً الطريق الأخرى، دون خشية ولا اعتلال، ثم اختر.

عندئذ، علمني بتروس تمرين الظلال.

قال بتروس، بعد أن شرح لي التمرين:

— إن مشكلتك هي سيفك.

وافقته الرأي.

— فم، إذن، بهذا التمرين الآن. سأذهب للقيام بجولة. وعند رجوعي، سارك قد عثرت على الحل الصحيح. أعرف ذلك.

تذكرت عجلة بتروس في الأيام الأخيرة، وحوار المدينة المهجورة، وكأنه يفتش عن كسب الوقت، ليتخذ، هو أيضاً، القرار الصحيح.

## تمرين الظلال

استرخ لمدة خمس دقائق، وراقب، من حولك، ظلال الأشياء والكائنات. ثم حاول معرفة الجزء الذي انعكس من الأشياء أو الأشخاص.

تابع على هذا النحو، خلال الدقائق الخمس الأولى. لكن، في الوقت نفسه، احصر انتباهك بمشكلتك التي ترغب في حلها، وادرس كل الحلول غير اللائمة المتعلقة بها. وأخيراً، انظر، خمس دقائق، إلى الظلال، وادرس الحلول اللائمة التي بقيت. فننّها واحداً واحداً، حتى يبقى الحل الصحيح الوحيد لمشكلتك.

استعدت شجاعتي، ومارست التمرين.

مهّلت بالتمرين المتعلق بـ «نفس رام» لكي أضع نفسي في حالة انسجام مع ما يحيطني. ثم نظرت، ربع ساعة، إلى الظلال المترامية حولي: ظلال البيوت الخربة، الحجارة، الأخشاب، الصليب القديم المنتصب خلفي. عندما راقبت الظلال خلال الدقائق العشر الأولى، فهمت أن من الصعب معرفة أي جزء فيها كان معكوساً. فأنا لم أفكر بذلك من قبل. فقد تحولت بعض العوارض المستقيمة أشكالاً مقززة، واتخذت صخرة غير متناسقة شكلاً مستديرًا لدى انعكاسها. لم يصعب عليّ التركيز، لأن التمرين سحرني. عندئذٍ، درست الحلول غير المناسبة لإيجاد سيفي. عبرت خاطري أفكار لا تحصى: منذ فكرة استقلال الحافلة للذهاب إلى «كومبوستيلا» حتى فكرة الاتصال بزوجتي وممارسة ابتزاز عاطفي عليها لتدّني على المكان الذي وضغته فيه.

عندما رجع بتروس، ابتسمت.

— ماذا إذن؟

قلت، مماًزحاً:

— اكتشفت طريقة أغاتا كريستي في كتابة القصص البوليسية. كانت تحول الفرضية الأسوأ إلى فرضية صحيحة. كانت، حتماً، تعرف تمرين الظلال.

سألني بتروس، عن مكان سيفي.

— أريد، أولاً، أن أصف لك الفرضية غير الصحيحة التي كوّنتها وأنا أنظر إلى الظلال: السيف غير موجود على طريق مار يعقوب.

— أنت عبقرى!! اكتشفت أننا نمشي طوال هذا الوقت بحثاً عن سيفك! اعتقلت أنهم قالوا لك ذلك في البرازيل.

وتابعت:

— إنه محفوظ في مكان لا تستطيع زوجتي بلوغه، فاستنتجت

من ذلك أنه موجود في مكان علني، ولكن بطريقة لا يمكن معها رؤيته مباشرة.

لم يضحك بتروس هذه المرة. وأضفت:

— وبما أن من المحال أن يكون في مكان مزدحم بالناس، فهو، إذن، في مكان شبه مقفر. ولنألاً يلاحظ الأشخاص القليلون، الذين يرونه، الفرق بين سيفي وسيف إسباني نموذجي، فهو موجود، إذن، في مكان لا يعرف الناس فيه التمييز بين مختلف أنماط السيوف.

— هل تعتقد أنه هنا؟

— لا، ليس هنا. إنه لخطأ فادح القيام بهذا التمرين في المكان الذي يوجد فيه السيف. هذه الفرضية تخلّيت عنها في الحال. لكن لا بدّ أنه موجود في مدينة كهذه، لكن غير مهجورة، لأن سيفاً في مدينة مهجورة يجذب انتباه الحجاج والمتنزهين.

قال بتروس:

— جيد جداً.

ولاحظت أنه كان فخوراً بي، وبالتمرين الذي علّمني إياه.

قلت مصرّاً:

— شيء واحد بعد...

— ما هو؟

— المكان الأسوأ لوجود سيف أحد الإخوان، هو المكان الدنيوي. يجب أن يكون، إذن، في مكان مقدّس، في إحدى الكنائس مثلاً، حيث لا أحد يجازف بسرقة.

أقول باختصار، إن سيفي موجود في كنيسة صغيرة قرب سانتياغو، على مرأى من الجميع، ولكن بطريقة لا يلفت فيها الأنظار. من الآن فصاعداً، سأزور كل كنائس الطريق.

اعترض بتروس:

— لن يكون هذا ضرورياً. عندما يحين الوقت، ستعزف إليه.

لقد نجحت.

— اسمع بتروس، لم مشينا بهذه السرعة من قبل؟ ولم نتمهل الآن في مدينة مهجورة؟

— ما هو القرار الأسوأ برأيك؟

نظرت إلى الظلال بلمحة بصر. لقد كان على حق. فنحن لم نأت إلى هذا المكان مصادفة.

اختفت الشمس خلف الجبال، لكن ضياء حيويًا استمر حتى هبوط الليل. كانت أشعته تنعكس أيضاً على صليب الحديد، الصليب الذي أردت رؤيته، والذي يبعد، من هنا، بضع مئات من الأمتار. كنت أريد أن أعرف أسباب هذا الانتظار. مشينا بسرعة كبيرة طوال الأسبوع. ووجدت أن الدافع الوحيد لذلك هو الوصول إلى هنا، في هذا اليوم، وفي هذه الساعة تحليلاً.

حاولت أن أفتح الحوار لقضاء الوقت ليس إلا. ولكن بتروس كان متوتراً ومركّزاً. رأيته عدة مرات سيئ المزاج، لكن لم يسبق لي أن رأيته متوتراً. وفجأة، تذكرت أنه كان متوتراً ذات مرة حين كنا نتناول إفطارنا في قرية نسيت اسمها، قبل وقت قليل من اللقاء بـ ...

رفعت نظري. كان هنا... الكلب.

الكلب، العنيف الذي طرحني أرضاً. الكلب الجبان الذي انطلق مهرولاً في المرة الثانية. وعد بتروس بمساعدتي خلال لقائي المحتمل بالكلب. استدزّث نحوه. لم يكن قربي أحد.

ظلت عيناى مسفرتين في عيني الحيوان، فيما فتشت سريعاً عن وسيلة لمواجهة الوضع. لا أحد منا قام بأدنى حركة. وفكرت للحظة بمبارزات الوسترن في المدن الوحشة. لم يفكر أحد في تصوير مشهد مبارزة بين رجل وكلب، فهذا غير معقول! ومع

ذلك، بث، الآن، أعيش، في الواقع، ما بدا في الخيال غير معقول.

أمامي هنا جوقة الشياطين، إنهم كثير. وقرني بيت مهجور. فلو بدأت بالركض، فسوف أتمكن من تسلق السقف دون أن تتمكن جوقة الشياطين اللحاق بي، فهي سجينه جسد كلب، وإمكانياته.

تخلّيت عن الفكرة بسرعة، فيما ظلّت عيناى مسفرتين في عيني الكلب. لمزات عدة أثناء الطريق، أرعبتني هذه اللحظة، وها قد وافت. قبل العثور على سيفي، عليّ مقابلة عدوي والقضاء عليه، أو التعرّض للهزيمة. لم يتبق لي إلا مواجهته. فإذا هربت، في هذا الوقت، فسأقع في الفخ ولن يعود الكلب، وسوف يساورني الخوف حتى «سانتياغو دو كومبوستيلا»، كما سأعلم، لاحقاً، ليالي بأكملها بالكلب، خائفاً من ظهوره ثانية، لا بل لبقيت مرتعشاً من شدة الخوف طوال حياتي.

وفيما كنت أفكر، أقدم الكلب على حركة باتجاهي. عندها، ركّزت، وتهنّات للصراع الذي سيبدأ. هرب بتروس، وبقيت وحدي. خفت. ما إن خفت، حتى بدأ الكلب بالتوجه نحوي، قابلاً بصوت خافت. كان قباعه المضبوط أكثر تهويلاً بكثير من النباح القوي، فازداد خوفاً. خنس الكلب ضعفي في عيني، فارتدى فوقى.

كان كأنه صخرة لطمت صدري. فوقعت أرضاً. تذكرت، بشكل غامض، أنني كنت أعرف موتى، وأنه لن يوافقني بهذه الطريقة. لكن الخوف تعاظم لدي، ولم أنجح في السيطرة عليه. صارعت فقط، لأحمي وجهي وعنقي. ثمة ألم كبير في فخذي جعلني أنقبض، وأدركت أن لحمي قد نهش. رفعت يدي عن رأسي، ووضعتها على جرحي. استغل الكلب الظرف، منهيناً للهجوم على وجهي، فأمسكت بيدي حجراً، وضربت الحيوان بكل ما في اليأس من قوة.



ابتعد الكلب قليلاً، والذهول في عينيه يفوق آلام جرحه. نجحت في النهوض، وتراجع هو قليلاً، لكن الحجر الملطخ بالدم أمدني بالشجاعة. كان احترامي الغالي فيه لعدوي فخاً. لم يكن الحيوان أكثر شجاعة مني. ربّما كان أكثر خفة ورشاقة، لكنه ليس أكثر قوة، فانا أثقل وزناً، وأكبر حجماً منه. تضائل خوفي، بيد أنني فقدت السيطرة على نفسي، وبدأت أزعق، والحجر في يدي. تراجع الحيوان، ثم توقف فجأة.

كان كأّنه يقرأ أفكاري: ففي غمرة ياسي، أحسستني قوياً، ورأيت أن من المضحك التصارع مع كلب. اجتاحني إحساس مفاجيء بالقوة. وبدأت ربح ساخنة تعصف في هذه المدينة المقفرة. شعرت بسأم عظيم من مواصلة هذا الصراع. ففي النهاية، يكفي تسليد الحجر إلى رأس الكلب كي يهزم. أردت أن أضع حداً لهذه القصة، وأعني بجرح ساقي، وأنتهي من تجربة السيف العبثية هذه، وطريق مار يعقوب الغريبة.

كان هذا أيضاً فخاً آخر. قام الكلب بقفزة، وطرحني من جديد أرضاً. نجح هذه المرة في تجنب الحجر بمهارة، وعض يدي لكي أفلت الحجر. أخذت أوجه له الضربات بيدي الفارغة، لكن دون أن أسبب له أذى جسدياً. وراح يمزق بمخالبه المسنونة ملابسي وذراعي، وفهمت أن المسألة مسألة وقت ليس إلا؛ قليلاً، ويهيمن عليّ كلياً.

وفجأة، سمعت صوتاً في داخلي يقول إن سماحي له بالهيمنة عليّ سيوقف الصراع، وسأخرج منه سليماً؛ مهزوماً، لكن حياً. كانت ساقي تؤلّني، بل جسدي كلّهُ الذي أصابته الخدوش المحرقة. أصرّ عليّ الصوت بأن أتخلّى عن الصراع، فعرفته. إنه صوت أستران «رسولي». توقف الكلب قليلاً، وكأنه، هو أيضاً، سمع الصوت. ومرة أخرى، رغبت في التخلّي عن كلّ شيء؛ ذلك أن أستران قال لي إن أناساً كثيرين في هذه الحياة لا يجدون سيفهم.

ما الفرق إذن؟ ما أردته هو الرجوع إلى بيتي، ولقاء زوجتي، وإنجاب الأولاد، والقيام بالعمل الذي أحب. فلاكفّ عن هذه السخافات كلّها، وعن هذه المواجهات مع الكلاب، وتسلق مساقط المياه! هذه هي المرة الثانية التي أستشعر فيها ذلك. لكن الرغبة الآن، أقوى، ولديّ يقين بأنني سأستسلم في الدقيقة المقبلة.

لفتت ضجة على الطريق انتباه الحيوان. كان أحد الرعيان يسوق قطيعه إلى الحقول. وتذكّرت أنني رأيت هذا المشهد من قبل، قرب خرائب قصر قديم. عندما لاحظ الكلب الخراف، انفصل عني، وتحضّر للهجوم عليها. كان هذا خلاصي.

بدأ الراعي بالصراخ، وتفرّق القطيع مهرولاً. وقبل أن يبتعد الكلب، قاومت أكثر، لكي أترك للبهايم الوقت لتَهزّب، وأمسكت بإحدى قدمي الكلب. كان يحدوني أمل جنوني بأن يأتي الراعي إلى نجلتي واستعدت، للحظة، الثقة بسيّفي، وبقدرة «رام».

حاول الكلب أن يتحرّر من قبضتي. لم أعُد ذلك العدو، بل غدوت المزعج الذي يمنعه من بلوغ ما يريد، وهو الخراف. تشبّثت بقدم الحيوان، منتظراً راعياً لا يأتي، وخرافاً لا تهرب.

لقد أنقذتني هذه اللحظة، إذ انبثقت قوة هائلة فيّ، ولم يكن وهم القوة هو الذي يسبّب السأم أو الرغبة في الاستسلام. تمتع أستران من جديد؛ عليّ دوماً مواجهة العالم بالأسلحة ذاتها التي تتحنّاني، ولا يمكنني أن أواجه كلباً، إلا إذا صرت كلباً مثله.

كان هنا هو الجنون الذي حلّثني عنه بتروس في ذلك اليوم. أظهرت أنيابي، وقبعت بصوت خافت، وحقدي ينفجر من خلال الأصوات التي أطلقها. وبللمحة بصر، رأيت وجه الراعي المذعور، والخراف التي تخشاني قدر خشيتها الكلب.

فهمت جوقه الشياطين هنا وخافت. عندئذ، أجهزت على

خصمي. كانت هذه المرة الأولى منذ بدء المعركة. لقد هاجمت بأنيابي وأظافري، محاولاً أن أنهش الكلب في رقبتة، تماماً كما خشيت أن يفعل بي من قبل؛ حلتني رغبة عظيمة في داخلي للظفر، ولم يعد لكل ما عداه أهمية. ارتميت على الحيوان، ورميته أرضاً. تخبّط ليتحرر مني، وانغرزت أظافره في لحمي، لكنني غرزت، أنا أيضاً، أظافري في لحمه، وعضضته.

نظر إليّ الكلب برعب. فالآن، صرّث أنا الكلب، وتحول هو إنساناً. واعتمل في داخله خوف يشبه خوفاي القديم، لدرجة أنني، بعد أن تحرر مني، استطعت اللحاق به، وسجنه في بيت مهجور، خلف جدار صغير من الأردواز، حيث الهاوية، وحيث لا وسيلة للهرب. كان الكلب إنساناً ذاهباً ليلتقي وجه موته.

وفجأة، أدركت أن شيئاً ما لا يسير على ما يرام. كنت قوياً إلى حد بعيد صار معه تفكيري غائماً؛ رأيت وجه غجري، وصوراً غامضة تحيط بهذا الوجه. صرّث أنا نفسي جوقة من الشياطين. وهنا تكمن قدرتي. تركت الجوقة هذا الكلب المسكين المذعور الذي سيرتمي، بين لحظة وأخرى، في الهاوية، ودخلت في. شعرت برغبة جامحة في تقطيع الحيوان الأعزل إرباً.

تمتم أستران: «أنت الأمير، وهم جوقة الشياطين. لكنني لم أشأ أن أكون أميراً. كذلك سمعت، من بعيد، صوت معلّمي يقول لي بإلحاح إن لديّ سيفاً، ويجب العثور عليه. يجدر بي أن أقاوم أكثر، وألا أقتل هذا الكلب.

أكلت نظرة الراعي ما كنت أفكر فيه. كان خائفاً مني أكثر من الكلب. شعرت بالدوار، وبالمشهد يترنّج أمامي. لا يجدر بي أن يغمي علي، وإلا انتصرت جوقة الشياطين. عليّ إيجاد حل. فأننا لم أعد أتصارع مع الحيوان، لكن القوة تملككني. شعرت بساقيّ تصطكان، استندت إلى حائط، فانهار تحت ثقلي، وسقطت وسط الحجارة وقطع الأخشاب، وقد التصق وجهي بالأرض.

أجل، الأرض. صارت جوقة الشياطين هي الأرض وثمار الأرض، الصالحة منها والفاسدة، لا فرق؛ كانت الأرض منزل الجوقة التي تحكم العالم، أو تخضع له، لا فرق. تفجّر الحب الإلهي في داخلي، وغرزت أظافري في التراب بكل ما أوتيت من قوة. أطلقت صرخة تشبه تلك التي سمعتها، حين التقيت الكلب لأول مرة. شعرت أن جوقة الشياطين تخترق جسدي، وتخرج منه منحدره إلى التراب، لأن الحب الإلهي كان في داخلي، ولأن الشياطين لم تُخلق لتفنى في الحب الملتهم. كانت هذه إرادتي، الإرادة التي جعلتني أصارع الإغماء، إرادة الحب الإلهي المثلث في نفسي، المقاوم. وارتجف كل جسدي.

أخذت أتقيأ، لكنني أحسست أن الحب الإلهي كان يكبر فيّ، ويخرج من كل مسامي. واصل جسدي ارتجافه حتى اللحظة التي عرفت فيها أن جوقة الشياطين عادت إلى مملكتها.

جلست أرضاً، جريحاً منسحقاً. رأيت أمامي مشهداً غريباً: كلباً مدّمى يهزّ ذنبه، وراعياً مذعوراً ينظر إليّ.

قال الراعي، وقد رفض تصديق ما يراه:

— لا بدّ أنك أكلت شيئاً. الآن وقد تقيأت، فسوف تترتاح.

أومات برأسي موافقاً. شكرني، لأنني سيطرت على «كلبي»، وتابع طريقه برفقة خرافه.

اقترب مني بتروس صامتاً. اقتطع خرقه من قميصه، لفّها حول ساقي التي تنزف بقوة. طلب مني أن أحرك أعضائي وجسدي، واستنتج أن جراحي لم تكن بهذه الجسامة.

قال مبتسماً:

— منظر مخيف.

رجع إليه مزاجه الجيد النادر، وقال:

— إن الذهاب لزيارة صليب الحديد مستحيل اليوم، في مثل هذه الظروف. قد يكون هناك سباح، وسوف تخيفهم بمنظرك.

لم أقم برزة فعل. نهضت. نفضت الغبار عن ملابسي، ملاحظاً أن  
في مستطاعي المشي. اقترح علي بتروس أن أقوم قليلاً بالتمرين  
المتعلق بـ «نفس رام». وحمل حقيبتني. استعدت الانسجام مع العالم  
بفضل التمرين. بعد نصف ساعة، ساصل إلى صليب الحديد.  
وذاث يوم، ستنبعث «فونسبادون» من خرابها، فجوقة الشياطين  
تركت فيها الكثير من قدرتها.

\*\*\*

## الأمر والطاعة

**وصلت** إلى الصليب الحديدي، مستنداً إلى بتروس، لأن ساقني  
الجريحة لا تسمح لي بالمشي وحدي. عندما استنتج مرشدي بتروس  
فداحة الأذى الذي ألحقه الكلب بي، فزر أن أخلد للراحة، حتى  
أسترد قواي، بشكل يؤهلني متابعة طريق مار يعقوب. قريباً من  
المكان، كانت هناك ضيعة تشكّل ملجأ للحجاج الذين ناهمهم  
الليل. ووجد بتروس غرفتين، عند حناد، فأقمنا فيهما.

كان لشقتي شرفة، وبناء الشرفة ثورة هندسية انطلقت من  
هذه القرية وعمت جميع أنحاء إسبانيا في القرن الثامن. لمحت  
سلسلة الجبال التي عليّ تسلقها عاجلاً أم آجلاً، قبل الوصول إلى مار  
يعقوب. تهاويت فوق سريري، ولم أستيقظ إلا في صباح اليوم التالي،  
محموماً، لكن طيب المزاج.

ذهب بتروس لإحضار الماء من سبيل يدعو ساكنو القرية:  
«البئر التي لا مقر لها»، ونظف جراحي. بعد الظهر، رجع بصحبة  
امرأة عجوز تسكن في الجوار. فوضعا أعشاباً مختلفة فوق الخدوش،  
وأجبرتني العجوز أن أشرب مغلياً مزاً.

كل يوم، وحتى تختم الجروح، أجبرني بتروس على لعقها.  
كنت أشعر دائماً بطعم الدم المشبع بحلاوة يخالطها مذاق معدني  
كان يثير غثياني. لكن مرشدي أكد أن الريق هو أقوى مطهر،  
وأن هذا سيساعدني على محاربة أي التهاب مُحتمل.

في اليوم الثاني، عاودتني الحمى، وأجبرني بتروس والعجوز على



شرب المغلي من جديد، وغطى الجراح بمرهم جديد للأعشاب. لكن حرارة جسمي، مع أنها لم تكن مرتفعة، لم تنخفض. عندئذ توجه مرشدي إلى قاعدة عسكرية في الجوار، ليأتي بضمادات، لأنه لم يجد في القرية كلها شاشاً، ولا لصقة مشمعة، لتضميد الجرح.

بعد انقضاء بضع ساعات، رجع مع الضمادات، يصحبه طبيب عسكري شاب، كان يريد أن يعرف مكان الحيوان الذي عَضني.

قال الطبيب العسكري، بلهجة رصينة:

— إذا تفحصنا الجرح، فسوف يتبين لنا أن الكلب مسعور.

أجبت:

— لا، إطلاقاً. كان الأمر مجرد لعبة تخطت الحدود. فانا أعرف الحيوان منذ وقت طويل.

لم يكن الطبيب مقتنعاً. أراد أن يحققني بلقاح مضاد لداء الكلب. ورأيتني مجبراً على قبول ذلك، تحت طائلة نقلي إلى مستشفى القاعدة. ثم سألني، مرة أخرى، عن مكان الحيوان الذي نهشني.

أجبت:

— في «فونسبادون».

وقال بلهجة الإنسان العارف، الذي يكتشف الكذب سريعاً:

— «فونسبادون» مدينة متهمة. ولا كلاب شاردة فيها.

بدأت أطلق بعض التأوهات المصطنعة. وقاد بتروس الطبيب إلى خارج الغرفة، بعد أن ترك لنا كل ما نحتاج إليه من ضمادات نظيفة ولصقات مشمعة ومرهم لختم الجروح.

لم يستعمل بتروس ولا العجوز المرهم. ضمنا الجروح بالشاش المضفخ بالأعشاب. كنْتُ سعيداً جداً، لأنني لم أعد ملزماً بلعق جروحي. في الليل، كانا يركعان حول سريري، ويبسطان أيديهما فوق جسدي، ويبدآن بالصلاة بصوت عالٍ. سألت بتروس عن الأمر،

فأشار، بطريقة غامضة، إلى أن الأمر يتعلق بالخطوات، وبطريق روما. أصررت على معرفة الموضوع، لكنه بقي صامتاً.

بعد يومين، وكنت قد شفيت تماماً، رأيت من نافذتي جنوداً يقومون بالتحريات في المدينة والتلال المجاورة، فسألت أحدهم عن السبب.

أجابني:

— هناك كلب مسعور يرتاد الجوار.

بعد الظهر، جاء الحناد، مالكُ الغرف، يطلب مني مغادرة المدينة حين يصبح في مقدوري السير. انتشرت القصة بين ساكني الضيعة، وخافوا أن ينتقل داء الكلب إليهم. حاول بتروس والعجوز التحاور مع الرجل، لكنه لم يتراجع عن آرائه. ووصل به الأمر إلى التأكيد أمامنا أنه رأى خيطاً من الزبد يسيل من شقوق شفتي أثناء النوم.

لم تقنعه الحجة القائلة إن جميع الناس قد تطرأ عليهم تلك الظاهرة أثناء النوم. هذه الليلة، راحت العجوز ومرشدي يصلّيان بحرارة، ولوقت طويل، وأيديهما مبسوطتان فوق جسدي.

في اليوم التالي، كنت أعرج قليلاً، لكنني تابعت السير على طريق مار يعقوب. سألت بتروس عما إذا كان قلقاً بشأن شفائي.

أجابني:

— على طريق مار يعقوب، قاعدة لم أحنك بها، تقول: ما إن نياشر بالسفر، حتى يصبح العذر الوحيد لمقاطعة السفر هو المرض. فإذا لم تعد قادراً على مقاومة جراحك، وإذا استمرت الحمى، فهذا يعني أن رحلتنا يجب أن تتوقف هنا.

ثم أضاف، بفخر:

— لكن صلواتنا استجيبَت.

وتيقنت أن هذه الشجاعة كانت ضرورية له، بمقدار ما هي

ضرورية لي. كانت الطريق كلها تنحدر، ونَبَّهني بتروس إلى أن ذلك سوف يستمر يومين أيضاً. استعلننا إيقاع سيرنا المعهود الذي توقفه قيلولة بعد الظهيرة، حين يشتد حَزُّ الهاجرة. كان بتروس يحمل حقيبة ظهري، بسبب ضمانات يدي. ولم يعد هناك ما يدعو إلى العجلة، فالمواجهة الأشد خطورة قد مزت بسلام.

تحسّنت حالتي خلال ساعات قليلة، وكنت فخوراً بنفسي، بما فيه الكفاية. تسلّقت مسقط الماء، وضلّلت شيطان الطريق. والآن، بقيت لديّ المهمة الأجلّ: العثور على سيفي، وقد قلت ذلك لبتروس. — كان النصر جميلاً، لكن فاتك الأهم.

سَمَرَتني كلماته في مكاني.

— ماذا يعني ذلك؟

— فاتك التعزف إلى اللحظة الفعلية لبدء القتال. فانا أسرغث الخطى ومشيت حثيثاً، فيما كان كل ما يشغلك هو البحث عن سيفك. بَمَ يفيد السيف رجلاً يجهل أين سيلتقي عدوه؟ أجبته:

— سيفي أداة قوتي.

— أنت شديد الاعتداد بقدرتك. فقد أنساك مسقط الماء وتمارين رام، ومحاوراتك مع «رسولك» أن هناك عدوّاً يجب القضاء عليه، وأنك كنت على موعد معه. قبل أن توجه اليد السيف، عليها أن تحدد موقع العدو، وتعرف كيف تواجهه. فالسيف يقوم بالضربة فقط، لكن اليد هي المنتصرة أو الخاسرة، قبل المباشرة بهذه الضربة.

نجحت في دُخْرِ الشياطين من دون سيفك. وظلّ سزّ يكمن وراء سعيك، سزّ لم تكتشفه. لكنك، من دونه لن تعثر عمّا تبحث عنه.

بقيت صامتاً، ففي كل مزة أعتقد فيها أنني أقرب حقاً من

هَدفي، يصنّني بتروس في شعوري هذا، ويرند أنني مجرد حاج بسيط ينقصه دوماً شيء أساسي للوصول إلى هدفه. وهكذا اختفى شعوري بالسعادة، بعد لحظات من هذا الحوار.

مرة أخرى، وجدّنتني في بداية طريق «سانتياغو»، فأشعرني ذلك بالإحباط. لقد غبّر هذه الطريق، التي تدوسها قدمائي، ملايين الحجاج على مدى اثني عشر قرناً؛ ناهبين إلى «سانتياغو دو كومبوستيلا»، وعائدين منها. كانوا يرون في الوصول إلى المكان المحذّر مسألة وقت، ليس إلّا. لكن، في مثل وضعي، كانت الأفخاخ، التي ينصبها «الميراث»، تضع دوماً حاجزاً جليداً على طريقي يجب تجاوزه، وتفرض خياراً يجب تبنيه.

قلت لبتروس إنني أشعر بالتعب وجلسنا في ظل المنحدر، حيث كانت الصلبان الخشبية الكبيرة تحفّ بالطريق. وألقى بتروس الحقيبتين أرضاً.

وأضاف:

— يمثل العدو، دائماً، جانبنا الأضعف، الذي قد يتجلى عبر الخوف من الألم الجسدي، أو الشعور المسبق بالنصر، أو الرغبة في ترك المعركة، قائلين إن الأمر لا يستحقّ العناء. إن عدوّنا لا يقوم بالصراع، إلا أنه يعرف أنه قادر أن ينال منّا، وبالتحديد في النقطة التي تصوّر لنا كبريائنا فيها أننا لا نقهر. ونسعى خلال الصراع إلى الدفاع عن جانبنا الأضعف، فيما العدو يضرب الجانب الأقلّ حماية، الجانب الذي نثق به تماماً، فنهزم، في النهاية، لأن ما حدث يجب ألا يحدث، تركنا للعدو اختيار طريقة القتال.

كان كل ما تحدّث عنه بتروس قد حصل لي خلال عراكي مع الكلب، لأنني رفضت، أثناء ذلك، فكرة أنني أواجه عدوّاً، وأنني مضطر إلى صراعه. عندما ألح بتروس إلى «الجهاد الحسن»، لم يكن اعتقادي إلّا بأن الأمر يتعلّق بالصراع من أجل الحياة.

قال، عندما شاطرته شكوكي:

– أنت على حق، لكن «الجهاد الحسن» لا يقتصر على ذلك، فشَن الحرب ليس خطيئة، بل إنه فعلٌ حَب. ذلك أن العدو يعطينا دوماً فرصة التقدم، وتحقيق ذواتنا، وهنا ما فعله الكلب معك.

– ومع ذلك، فإنك لا تبدو أبداً راضياً. هناك دائماً شيء ناقص. والآن حدثني عن سر سيفي.

أجاب بتروس أن هذا السر كان علي معرفته، قبل الشروع في السفر. وتابع يتحدث عن العدو.

– يمثل العدو شرارةً من الحب الإلهي. وما كان إلا ليجذب يدنا وإرادتنا، والطريقة التي نستعمل بها سيفنا. ثمة غاية من وجوده في حياتنا، ووجودنا في حياته. وهذه الغاية يجب أن تتم. وهكذا يكون الهروب من المعركة أسوأ ما يمكن أن يحصل لنا، أسوأ من أن نخسر الصراع، لأن الهزيمة تعلمنا دوماً شيئاً ما، لكن الهرب لا يخولنا إلا الاعتراف بنصر عدونا.

فوجئت لدى سماعي بتروس يتحدث بهذه اللهجة العنيفة، وهو الذي بدا شديد التعلق بيسوع المسيح، وقد قلت له ذلك.

قال:

– فكّر بضرورة يهوذا ليسوع، الذي كان عليه اختيار عدو، وإلا فإن نضاله على الأرض، لن يكتب له المجد.

كانت الصليبان الخشبية، المنتشرة على الطريق، تُظهر أن هذا المجد قد سُيّد بالدم والخيانة والنكران. نهضت، وأعلنت استعدادي لمتابعة السفر.

أثناء الطريق، سألت بتروس عن نقطة الارتكاز الأقوى التي يستطيع الإنسان الاعتماد عليها، أثناء الصراع لهزم العدو.

– إنها حاضره. فالإنسان يعتمد، أكثر ما يعتمد، على ما يفعله الآن، لأن فيه مكن الحب الإلهي، الذي يمدّه بالحماس للانتصار.

أريد أن يكون هذا واضحاً لديك. نادراً ما يمثل العدو الشر. فالعدو هنا، لأن السيف، الذي لا يُستخدم، يصدأ في غمده.

عدت بالذاكرة إلى الفترة التي كنّا نبني فيها بيتاً في الريف.

فيومها، قزرت زوجتي، فجأة، أن تغيّر موقع إحدى الغرف. وكانت تُلقي على كاهلي المهمة الصعبة، وهي أن أنقل إلى البناء رغبتها في هذا التغيير. كان البناء رجلاً ستينياً. وعندما عبرت له عن رغبتني، نظر من حوله، ثم فكّر، واقترح حلاً أفضل بكثير، يسمح باستعمال الحائط الذي باشر برفعه. ووجدت زوجتي الفكرة رائعة.

لعلّ بتروس ينوي محادثتي عن ذلك بكلمات صعبة: استخدام القوة، التي نحن بصدد ممارستها، من أجل الانتصار على العدو. وأخبرته قضية البناء.

ختم قائلاً:

– تعلمنا الحياة، على الدوام، أكثر مما تعلمنا طريق «سانتياغو»، لكن المشكلة أننا لا نملك إيماناً قوياً بتعاليم الحياة.

كانت تفصل، بين الصليب والآخر من الصليبان المنتشرة على طريق مار يعقوب، مسافة ثلاثين متراً. لا بد أن حاجاً، يملك قوة تفوق قدرة البشر، قد صنعها. لأن وحده من أوتي هذه القوة، يستطيع رفع هذا الخشب المتين الصليب.

سألت بتروس عن معناها، فقال:

– أداة تعذيب قديمة تجاوزها الزمن.

– لكن ماذا تفعل هنا؟

– لعلّ أحدهم وفي نذراً. كيف لي أن أعرف؟

توقفنا أمام أحد الصليبان المحطمة.

قلت:

– لعلّ خشبه تعفّن، فهوى.

– إنه مصنوع من الخشب نفسه الذي صنعت منه الصليبان الأخرى، لكنّ أيّاً منها لم يتعفن.



– إذا لم يُغرز بقوة كافية في الأرض.

نظر بتروس من حوله، رمى حقيبته أرضاً، وجلس.

لم أفهم تصرفه: كنا قد استرحنا قبل ذلك بضع دقائق.  
وبحركة غريزية، نظرت من حولي مفتشاً عن الكلب.

قال، وكأنه يتحدث أفكاراً:

– هزمت الكلب، فلا تخف من شبح الموتى.

– لماذا توقفتنا إذن؟

أشار علي بتروس بالسكوت. وظل بضع دقائق صامتاً. شعرت  
بالخوف القديم من الكلب يعاودني. وقررت النهوض، منتظراً أن  
يقزر الكلام.

سأل، بعد فترة من الوقت غير وجيزة:

– ماذا تسمع؟

– لا شيء. الصمت فقط.

– «لينا كنا على درجة عالية من الحكمة، بحيث نسمع  
الصمت! لكننا بشر، ولا نعرف حتى أن نسمع ثرثرتنا. لم تسألني  
قط كيف حدثت وصول جوقة الشياطين. الآن، سأقول لك: عن  
طريق السمع. بدأ الصوت قبل أيام، عندما كنا في «استورغا»  
وانطلاقاً من هناك، رحلت أمشي بخطى حثيثة أكثر، لأن كل  
شيء كان يؤكد أن طرقاتنا ستلتقي في «فونسادون». وسمعت  
الصوت نفسه، لكنك لم تصغ.

«كل شيء مكتوب في الأصوات: ماضي الإنسان، حاضره  
ومستقبله، إن الإنسان، الذي لا يعرف أن يصغي، لا يمكنه سماع  
النصائح التي تُغدها الحياة في كل لحظة. وحده ذلك الذي يسمع  
صوت الحاضر يمكنه اتخاذ القرار الصحيح».

طلب مني بتروس أن أجلس، وأنسى أمر الكلب. ثم علّمني  
إحدى ممارسات «رام»، الأسهل والأهم على طريق مار يعقوب.

وهكذا شرح لي بتروس «تمرين الإصغاء».

## تمرين الإصغاء

استرخ، وانغمض عينيك.

حاول، لبضع دقائق، أن تحصر تفكيرك بالأصوات المحيطة بك، وكأن  
الأمر يتعلق بأوركسترا يعزف فيها جميع الموسيقيين.

حاول أن تميز، تدريجاً، الأصوات. فنذ الأصوات كلها، الواحد تلو الآخر،  
وكانك تستمع إلى آلة تعزف بمفردها، وانس الباقي.

إذا مارست هذا التمرين بشكل يومي، فسوف تسمع أصواتاً تنصّورها  
للهلة الأولى ثمرة خيالك، ثم تكتشف أنها أصوات أشخاص. أصوات ماضية، أو  
حاضرة، أو مستقبلية، تشكل جزءاً من ذاكرة الزمن.

ولا يمكنك ممارسة هذا التمرين، إلا إذا كنت تعرف، أنفأ، صوت  
«رسولك».

أما الحد الأدنى لمدة ممارسته، فهي عشر دقائق.

قال بتروس:

— مارس التمرين في الحال.

وشرع في التمرين. سمعت صوت الريح، وصوتاً نسانياً في البعيد، وصوت غصن يتكسر في وقت ما. لم يكن التمرين صعباً، وقد فتنتني سهولته. ألصقت أذني بالأرض، واستمعت إلى الصوت الصاخب للأرض. وتدرجاً، أخذت أميز الأصوات: صوت الأوراق الجامدة، صوت في البعيد، خفقات أجنحة، قباع حيوان لم أتمكن من تحديده. ومزت الدقائق الخمس عشرة للتمرين سريعاً.

قال بتروس، دون أن يسألني عن الأصوات التي سمعتها:

— مع الوقت، ستري أن هذا التمرين سوف يساعدك على اتخاذ القرار الصحيح. إنَّ الحب الإلهي يُعبر عن نفسه من خلال «الكرة الزرقاء»، لكنه يعبر، أيضاً، من خلال النظر واللمس والشم والقلب والسمع. ستبدأ بسماع الأصوات خلال أسبوع، كحد أقصى. بدايةً، ستكون الأصوات خجولة، لكنها، تدريجاً، ستكشف لك أسراراً هامة. انتبه فقط «لرسولك» فقد يحاول خداعك. وما دمت تعرف صوته، فلن يشكلك تهديداً.

سألني بتروس ليعرف ما إذا كنت قد سمعت النداء الفرح لأحد الأعداء، أو دعوة امرأة، أو سر سفي.

أجبت:

— سمعت، فقط، صوتاً نسانياً في البعيد، لكنه صوت فلاحه تنادي ابنها.

— أنظر، إذن، إلى هذا الصليب المائل أمامك، واجعله ينتصب بقوة فكرك وحده.

سأله عن هذا التمرين.

— إنه الإيمان بالفكر.

جلست، أرضاً، في وضعية رجل يمارس اليوغا. عرفت أنني، بعد

كل ما أنجزته: الكلب، مسقط الماء، سأنجح في هذا أيضاً. حذقت إلى الصليب. تخيلت نفسي خارجاً من جسدي، ممسكاً بفروعه، ورافعاً إياه بفضل جسدي الكوكبي. أثناء سيري على نهج «الميراث»، أنجزت بعض هذه المعجزات الصغيرة، وتمكنت من تحطيم أقنح وتمانيل من البورسلين، ونقل أشياء من موضعها على الطاولة. كانت هذه الطريقة سهلة، ولم تكن مرادفاً للقدرة، لكنها تساعد كثيراً على إقناع «الكفار». لم أمارسها، من قبل، مع شيء بهذا الحجم وبهذا الوزن، كمثل الصليب. لكن، إذا كان بتروس قد أمر بذلك، فهذا يعني أنني سأتمكن من النجاح.

حاولت كل ما في وسعي لمدة نصف ساعة. استخدمت السفر الكوكبي والإيحاء. تذكرت كيف أن المعلم كان يسيطر على قوة الجاذبية، وحاولت أن أتذكر الكلمات التي كان، دائماً، يتلفظها في مثل هذه الظروف. لم يحدث شيء. بذلت كل جهد، وركزت على إنجاز المهمة، لكن الصليب ظل ساكناً. استدعيت أستران الذي ظهر بين أعمدة النار. لكن، عندما حثته عن الصليب، قال إنه يكره هذا الشيء.

وأخيراً، هزني بتروس، وأخرجني من رعلتي:

— هيا. الأمر بات مزعجاً. إذا كنت لا تستطيع رفع الصليب بواسطة الفكر، فاجعله ينتصب، إذن، بمساعدة يديك.

— بمساعدة يدي؟

— أطع!

انتفضت. وجلتني فجأة أمام رجل قاسٍ يختلف تماماً عن ذلك الذي اعتنى بتضميد جروحي. لم أعرف ما علي أن أقول أو أفعل.

— أطع! هذا أمر!

كنت مضطد الذراعين واليدين منذ صراعي مع الكلب؛ لم

أصنق ما سمعته أنناي. أريته ضماداتي دون أن أنبس بكلمة. لكنه ظلّ ينظر إليّ ببرودة ودون تأثر. كان ينتظر أن أطيع. إن هذا المرشد والصديق الذي رافقني طوال الوقت، وعلمني ممارسات «رام»، وروى لي القصص الجميلة عن طريق «سانتياغو»، قد اختفى ليظهر مكانه رجل ينظر إليّ وكأنني عبد له، ويأمرني أن أقوم بعمل أخرق.

كّرر:

— ماذا تنتظر؟

تذكرت مسقط الماء، وتذكرت أن الشكوك، ذلك النهار، قد خامرتني بصدد بتروس، وأنه كان شهماً حيالي، وأنه أظهر لي حبه ومنعني من التخلي عن سيفي. لم أكن أفهم كيف أن رجلاً سخياً مثله يصبح، فجأة، بهذه القسوة، ويجسد كل ما يحاول الجنس البشري جاهداً التخلص منه، ألا وهو اضطهاد الإنسان لأخيه الإنسان.

— بتروس، أنا...

— أطف، وإلا انتهى أمر طريق «سانتياغو».

عاودني الخوف. كنت خائفاً من بتروس خوفاً يفوق ما شعرت به أمام مسقط الماء، ويفوق خوفي من الكلب الذي قض عليّ مضجعي وقتاً طويلاً جداً. توصلت يائساً إلى الطبيعة، لكي تظهر لي آية تتيح لي رؤية أو سماع ما يبزر هذا الأمر الأخرق الذي أملاه عليّ بتروس. لكن كل شيء بقي، من حولي، ساكناً. كان عليّ إطاعة الأمر، أو نسيان سيفي. مرة أخرى، رفعت، في وجه بتروس، ذراعي المضمّلتين، لكنه بقي جالساً على الأرض، منتظراً تنفيذ الأمر.

فقررت، عندئذ، الطاعة.

مشيت حتى الصليب، وحاولت أن أدفعه بقدمي لأروز ثقله. ولم أتمكن من تحريكه. لو كانت يدي طليقتين، لشعرت بصعوبة كبرى في رفعه، ولكن، بيديّ المضمّلتين، ستكون المهمة شبه مستحيلة. لكنني سأطيع. ساموت هنا، لو لزم الأمر، وسأعرق دماً، كما عرق يسوع دماً، عندما حمل صليبه الثقيل. لكن بتروس سيكتشف كرامة نفسي. أو لعلّ هذا سيؤثر في عاطفته، ويعتقني من هذا الاختبار.

كان الصليب محطماً عند قاعدته، لكنه ظلّ معلقاً ببعض ألياف الخشب. لم يكن لدي سكين لأقطعها. تخطيت الألم، وأمسكته، محاولاً اقتلاعه من قاعدته المحطمة، دون أن أستعمل يديّ. احتكّت جروح ذراعي بالخشب، وزعقت ألماً. نظرت إلى بتروس الذي بقي بارداً. وفزرت أن أبتلع صراخي، وأدفنه في قلبي.

استنتجت أن الصعوبة المباشرة لا تقتصر على نقل الصليب من مكانه، بل على تحريره من قاعدته، ثم تشكيل حفرة في التراب ودفعه إليها. اخترت حجراً مسنوناً. تخطيت ألي، ورحت أضرب ألياف الخشب وأبردها.

كان الألم يتزايد في كل لحظة، والألياف تستجيب ببطء. عليّ الانتهاء بسرعة، قبل أن تنفتح جروحي، فيصبح الأمر غير محتمل. لكنني قررت إنجاز العمل ببطء أكبر، حتى أنتهي منه قبل أن ينال الألم مني. انتزعت قميصي ولففتها حول يدي، وبدأت العمل بحماية أفضل. كانت هذه فكرة جيدة: قطع أول ألياف الخشب، ثم الثاني. جمعت حجارة مسنونة، واستعملتها الواحدة تلو الأخرى، حتى تخفّف سخونة يدي من تأثير الألم. تحطمت كل ألياف الخشب تقريباً، فيما صمد الليف الرئيسي. وبدأت أعمل، بشكل محموم، لأنني كنت أعرف أنني سأصل قريباً إلى النقطة التي يصبح فيها الألم غير محتمل. المسألة مسألة وقت، وعليّ أن أسيطر على نفسي. كنت أضغط وأضرب، وأنا أشعر أن بين الجلد والضمادة مادة



لزجة تحذ من سهولة حركاتي. قلت في نفسي: لا بد أنه دم، لكنني تجنبت التفكير في ذلك. وفجأة بدا أن الليف المركزي قد انصاع أخيراً لضرباتي. كنت منفعلاً بعصبية، إذ نهضت متوثباً ومستجمعاً كل قواي، وانهلت بضربة عنيفة من قدمي على الجذع. سقط الصليب على جانبه سقطاً صاخبة، متحرراً من قاعدته.

لم تدم فرحتي إلا ثواني قليلة. بدأت يداي ترتجفان بقوة، وأنا لا زلت في بداية عملي. نظرت إلى بتروس، فرأيتة نائماً. فكّرت، لوهلة، بوسيلة لرفع الصليب دون أن ينتبه إلى الأمر. لكن هذا بالضبط ما أراده مني: أن أرفع الصليب. لم أكن أملك أي وسيلة لخداعه، لأن المهمة متعلقة بي وحدي.

نظرت إلى التراب، التراب الأصفر اليابس. من جليد، كانت الحجارة منفذي الوحيد. لم أعد أستطيع استخدام يدي اليمنى التي استشرى فيها الألم، واستمرت تفرز تلك المادة اللزجة التي تثير قلقي بشكل فظيع. انتزعت ببطء القيمص التي لففتها حول ضماداتي؛ كان الدم يبقع الشاش، ولكن الجرح لا يزال شبه مختوم. إن بتروس لتوحش.

ذهبت لأفتش عن حجر أكثر ثقلًا. لففت القميص حول يدي اليسرى، وبدأت أضرب وأحفر الأرض عند أسفل الصليب. تقدّمت بسرعة في سعيي، لكنني ما لبثت أن اصطدمت بالتراب القاسي والجاف. تابعت الحفر، لكنّ صلابة التراب جعلت عملية الحفر شاقة. وقررت ألا أوسع الحفرة كثيراً، حتى أتمكن من إدخال الصليب فيها دون أن يرتخي عند القاعدة. وقد ضاعف ذلك من صعوبة انتشار التراب في العمق. كفت يدي اليمنى عن إيلامي، لكن الدم المتجمّد أشعرني بالغثيان. ثمّ أن الحجارة كانت تنزلق من بين أصابعي كل لحظة، لأنني لم آلف العمل بيدي اليسرى.

حفرت وقتاً لا متناهياً. وكنت، كلّما ضربت الأرض بالحجارة، وأدخلت يدي في الحفرة لأنتشل التراب، أفكر ببتروس. نظرت إلى

نومه الساكن، وكرهته من أعماق قلبي. لا الضخّة ولا حقدني يؤثّران فيه، على ما يبدو. فكّرت أن بتروس لديه أسبابه، لكنني لم أفهم سبباً لهذا الاستعباد، وللطريقة التي يذلني بها. عندئذ، أضحي التراب أمام وجهه، فضربتة بالحجر، يعبّئني الغضب المسعور الذي كان يحفزني على الحفر أعمق فأعمق. عاجلاً أم آجلاً، سأنجح.

كنت مسترسلاً في هذه الفكرة، عندما اصطدمت الحجارة بشيء صلب، وأفلتت مني مرة أخرى. حصل ما كنت أخشاه؛ لقد حفرت طوال هذا الوقت لأصطدم بصخرة عريضة، تمنعني من الذهاب بعيداً في مساعي.

نهضت، مسحت العرق عن وجهي، وفكّرت. لم تكن لديّ القوة الكافية لنقل صليبي، ولا يمكنني أن أعاود كلّ شيء، لأن يدي اليسرى، وبعد أن توقّفت، بدأت تسري فيها إشارات توحى بالخطر الكامل. كان هذا أسوأ من الألم، وقد أثار قلقي. نظرت إلى أصابعي، حرّكتها، فاستجابت، لكن غريزتي أشارت عليّ بوجود ألا أحمل يدي أكثر مما تحتمل.

تأمّلت الحفرة. لم تكن عميقة كفاية لتحمل قاعدة الصليب.

«إن الحل الأسوأ يعلمك الأحسن». تذكرت تمرين الظلال، وجملة بتروس. كان يقول، دائماً وبإلحاح، إن تعاليم «رام» لا معنى لها، ما لم أطبقها لمواجهة تحديات الحياة اليومية. لا بدّ أن تعاليم «رام» تفيد في شيء، حتى في وضع مستحيل كهذا.

«إن الحل الأسوأ يرشدك إلى الأحسن». والحل المستحيل يعتمد على نقل الصليب، في حين أنني لا أملك القوة على فعل ذلك. كما أن الحل المستحيل يتمثّل، أيضاً، بالاسترسال في حفر التراب عميقاً. إذا

كانت الوسيلة السيئة تقوم على التوغل عميقاً في التراب، فإن الوسيلة الملائمة، هي رفع مستوى الأرض. ولكن كيف؟  
وفجأة، عاد إليّ كل حبي لبتروس. لقد كان على حق. فأنا أستطيع رفع مستوى الأرض.

بدأت أجمع كل الحجارة المتوافرة أمامي، وأضعها حول الثغرة، وأمزجها بالتراب الذي انتشلتته. وبعد جهد كبير، رفعت قليلاً أسفل الصليب، وثبته بالحجارة، بحيث يبدو أعلى. بعد مضي نصف ساعة، كان التراب مرفوعاً، والحفرة عميقة بما يكفي.

لم يتبق لي، والحالة هذه، إلا أن أجذب الصليب وأدفعه إلى داخل الحفرة. إنه جهد أخير. وكان لا بدّ من النجاح. كانت إحدى يديّ مخدرة وبالثانية ألم، وتعلو ظهري بعض الخدوش. ولم يكن أمامي إلا أن أتمند تحت الصليب وأنهض تدريجاً، لأتمكن من دفعه إلى الداخل.

تمندت على التراب، وملأ الغبار فمي وعيني. كانت يديّ مخدرة. لكن، بانتفاضة أخيرة، رفعت الصليب قليلاً، وانزلت تحتة. تدبرت أمري بحذر، ساعياً أن يحاذي الصليب عمودي الفقري. توقعت مرات عدة أن ينزلق الصليب، لكنني عملت ببطء شديد، متحاشياً قدر الإمكان اختلال التوازن، ومصححاً وضعية جسدي باستمرار. وأخيراً، اتخذت الوضعية الجنينية: جعلت ركبتني إلى الأمام، وحملته متوازناً فوق ظهري. للوهلة الأولى، تدرج أسفل الصليب فوق تلة الحجارة، لكنه ما لبث أن عاد إلى مكانه.

فكرت، وأنا أكاد أنسحق تحت ثقل الصليب وكل ما يمثله: بأن كل ما كان ينقصني هو إنقاذ الكون. اجتاحني شعور بالورع العميق. تذكرت أن أحداً ما قبلي حمل الصليب فوق ظهره، وأن يديه الجريحتين، كيديّ، لم تكونا قادرتين على تجنب الألم

والخشب. كان شعوراً دينياً ممزوجاً بالعذاب، طردته فوراً من روحي، لأن الصليب فوق ظهري قد عاود ترنحه.

عندئذ، نهضت ببطء، وفكرت بالولادة من جديد. فأنا لا أستطيع النظر إلى الوراء ولم تكن من وسيلة لتوجيهي سوى الأصوات. منذ قليل، تعلّمت أن أصغي إلى أصوات العالم، وكان بتروس حدس أنني سأحتاج إلى هذا النوع من المعرفة. شعرت أن ثقل الصليب قد خفّ قليلاً، وأن الحجارة عادت إلى أمكنتها. سيرتفع الصليب ببطء، ويعتقني من هذا الاختبار، ويرجع، كما كان، مجزّد زينة لطريق مار يعقوب.

لم يتبق، إذن، إلا الجهد الأخير: فعندما أجلس على كاحلي، سينزلق الصليب في الحفرة. تحرك حجر أو اثنان، لكن الصليب كان يساعدي آنذاك، لأنه لم يبتعد كثيراً عن المكان الذي رفعت فيه التراب. وأخيراً، أنباني ارتجاج في ظهري أن القاعدة قد تحررت. إنها اللحظة الحاسمة، وهي أشبه بتلك اللحظة التي عبرت فيها الشلال، اللحظة الأصعب، لأننا نخاف الخسارة، ونفضل التخلي عنها قبل حصولها. شعرت، مرة أخرى، بسخافة مهمتي التي تقوم على رفع الصليب، في حين أن رغبتني كانت أن أعثر على سيفي، وأقلب كل الصلبان، حتى يُبعث المسيح الفادي. لا شيء من ذلك كان مهماً. قمت بحركة عنيفة، وانزلق الصليب عن ظهري، وأنا على يقين بأن القدر هو الذي قاد عملي.

كنت أنتظر أن يهوي الصليب من الناحية الأخرى، جارفاً معه كل الحجارة التي جمعتها. خشيت أن تكون وثبتي غير كافية، وأن يقع الصليب فوقي من جديد. لكنني سمعت، فقط، الصوت الصاخب الناجم عن ارتطام شيء ما بالأرض.

استدرت بهدوء. كان الصليب منتصباً، ومترنحاً قليلاً تحت وطأة الدفع. تدرجت بعض الحجارة عن التلة، لكن الصليب لم يسقط. قمت بسرعة، وأرجعت الحجارة إلى أمكنتها، وأحطته

بذراعي، ليوقف تمايله. أحسسته حياً ودافئاً وواثقاً وصديقاً، طوال فترة عملي.

## «الميراث»

كنت أفضل لو أنني رفعت شجرة... عندما حملت هذا الصليب فوق ظهري، قلْتُ في نفسي إن السعي وراء الحكمة يحمل للناس طعم التضحية.

في المكان الذي أمثل فيه الآن، بليت، كلماتي وكأنها مجرّدة من أي معنى. وبدا لي فصل الصليب حدثاً بعيداً لم يحصل البارحة، بل قبل ذلك بوقت طويل. وهو لا يتلاءم إطلاقاً مع غرفة الاستحمام برخامها الأسود، أو مع الماء الفاتر في مغطس التدليك المائي، أو مع كأس الكريستال وما تحويه من نبيذ «ريوخا»، الذي احتسيته على مهل.

كان بتروس بعيداً عن دائرة نظري، في غرفة الفندق الفخم الذي حللنا به.

قلت بإصرار:

— لِمَ الصليب؟

هتف مرشدي من غرفته:

— تعذبت كثيراً لأقنع البواب القابع عند المدخل أنك لست متسولاً.

لقد غيّر بتروس الحديث. وبت أعرف، بالخبرة أن من غير المجدي الإصرار أو المعاندة. نهضت. لبست بنطالاً وقميصاً نظيفة، وأعدت تضميد جراحي. أبعدت الرباط بحذر، متوقعاً أن أجد

نظرت معجباً إلى ما قمت به، لكن عاودني ألم جراحي. كان بتروس لا يزال نائماً. اقتربت منه، وركلته بقدمي. استفاق فجأة، ونظر إلى الصليب: علق قائلاً: — هذا ممتاز. في «بونفزاندا»، نغير كل ضماناتك.

\*\*\*

www.rewity.com  
By Dalyia



جروحاً، لكن قطعة متخثرة من الدم قشرت، تاركة قليلاً من الدم. ختم جرح جديد، وأحسستني متعافياً، أتمتع بصحة جيدة.

جلسنا لتناول العشاء في مطعم الفندق. وأمر بتروس بإحضار الطبق الخاص بالمدينة، وهو «السمكية»<sup>(\*)</sup> على الطريقة الفالانسية، تناولناه بصمت، ونحن نحتسي نبيذ «ريوخا» اللذيذ. عند نهاية العشاء، دعاني بتروس للقيام بجولة.

خرجنا من الفندق، واتجهنا إلى محطة سكة الحديد. استعاد بتروس سكوته المعهود، وبقي صامتاً طوال النزهة. بلغنا مخزن الحافلات، الذي كان وسخاً، وتنبعث منه رائحة الزيت. جلس بتروس على مرقاة إحدى الحافلات الكبيرة.

قال:

– لنسترخ.

لم أكن أريد أن يتسخ بنطالي ببقع الزيت، وفضلت البقاء واقفاً. سألته ما إذا كان من الأفضل أن نمشي حتى الساحة الرئيسية لـ «بونفرادا».

قال مرشدي:

– طريق مار يعقوب شارفت الانتهاء. وبما أن حقيقتنا أقرب إلى هذه الحافلات التي تنبعث منها رائحة الزيت أكثر منها إلى الخلوات الرعوية التي صادفناها في طريقنا، فمن الأفضل، إذن، أن ينتهي حديثنا اليوم، هنا، في هذا المكان.

طلب مني أن أنزع حذائي وقميصي، ثم أرخى ضمادات ذراعي، ليجعلها أكثر ليونة. لكنه أبقى على ضمادات يدي.

وقال:

– لا تحزن. لن تكون في حاجة إلى يدك الآن، ولن تُضطر إلى الإمساك بأي شيء.

(\*) السمكية، طعام إسباني مكون من أرز ولحم وخضر وأنواع مختلفة من الأسماك.

كان جدياً أكثر من العادة، فأغضبتني نبرة صوته. فثمة حدث جلل على وشك الوقوع.

عاود بتروس الجلوس، ونظر إلي وقتاً طويلاً. ثم أضاف:

– «لن أقول لك شيئاً عن فصل البارحة. ستكتشف بنفسك معناه، ولن تتوصل، إلا إذا قررت يوماً أن تعبر طريق روما، التي تمثل طريق الخطوات والعجائب. سأقول لك شيئاً فقط: إن، الناس الذين يعتبرون أنفسهم حكماء، يقعون في الحيرة لحظة صدور الأمر، وفي العصيان، لحظة الطاعة. يعتقدون أن من المخجل إعطاء الأوامر، ومن المعيب تلقيها. لا تتصرف هكذا البتة.

«منذ قليل، عندما كنت في الغرفة، قلت إن طريق الحكمة تقود إلى التضحية، وهذا خطأ. إن تدربك لم ينتهِ البارحة. يجب أن تعثر على سيفك، وعلى السز الذي يحتويه. إن ممارسات «رام» تقود الإنسان إلى خوض «الجهاد الحسن»، وتوفير المزيد من الحظوظ له كي ينتصر في الحياة. وما التجربة التي قمت بها إلا اختبار طريق، تحضيراً لطريق روما إذا شئت، ويحزنني أن تعتقدها كذلك.

كان صوته ينطوي على حزن حقيقي. وكنت قد لاحظت أن الشكوك في ما علمني إياه كانت تساورني طوال الفترة التي قضيناها معاً. لم أكن، مثل كاستانيدا، وضعياً وقوياً حيال تعاليم دون خوان، ولكني كنت رجلاً متكبراً وعاصياً حيال البساطة المدهشة لممارسات «رام». كنت أريد أن أقول له ذلك، لكن الوقت كان قد تأخر.

قال بتروس:

– أغمض عينيك. وقم بـ «نفس رام»، وحاول أن تضع نفسك بانسجام مع هذا الحديد، مع هذه الآلات ورائحة الزيت هذه. ذلك هو عالمنا. لا تفتح عينيك، إلا بعد أن أنهى حديثي، وألقنك تمريناً جديداً.

حصرت تفكيري بالنفس. أغمضت جفني، واسترخى جسدي تدريجاً. سمعت ضجة المدينة، والكلاب تنبح في البعيد، وأصوات أناس يتبادلون الحديث قريباً من المكان. وفجأة، سمعت بتروس يردد أغنية إيطالية، لاقت رواجاً في فترة مراهقتي، أنشدها ببينودي كابرّي. لم أكن أفهم كلمات الأغنية، لكن اللحن أعادني إلى ذكريات جميلة، وأتاح لي أن أعيش حالة صفاء مذهلة.

قال بتروس، بعد أن كفّ عن الغناء:

— منذ بعض الوقت، وفيما كنت أحضر مشروعاً توجب علي تقديمه إلى بلدية ميلانو، تلقّيت رسالة من معلّمي، فحوّاه أن أحدهم تبع نهج الميراث إلى أقصى حدوده، ولم ينل سيفه، مع ذلك. وكان عليّ أن أرشده إلى طريق مار يعقوب.

لم يفاجئني الحدث. كنت أتوقع دعوة من هذا النوع في كل وقت، لأنني لم أنجز مهمتي بعد؛ إرشاد حاج على طريق المجزة، كما أرشدني هو يوماً. لكن ذلك جعلني عصبياً، لأنها كانت المرة الأولى والوحيدة التي تُسند إليّ هذه المهمة، ولم أكن أعرف كيف سأنجزها.

فاجأتني كلمات بتروس. كنت أعتقد أنه قام بمهمة الإرشاد عشرات المرات.

— جنّت فارشدك. أعترف أن الأمر كان صعباً في البداية، لأنك كنت مهتماً بالجانب الفكري من التعاليم، أكثر من اهتمامك بالمعنى الحقيقي للطريق التي هي طريق الناس العاديين. بعد لقاء ألفونسو، صارت علاقتي بك أقوى وأشدّ، واعتقدت أنني سأجعلك تكتشف سز سيفك. لكن هنا لم يحدث. والآن، ينبغي أن تعتمد على نفسك، خلال الوقت القليل المتبقي لك.

جعلتني هذه الكلمات عصبياً. وفقدت التركيز على نفس رام. لا بد أن بتروس أدرك ذلك، لأنه عاد يردد الأغنية القديمة، ولم يتوقّف إلا عندما استرخيت من جديد.

— إذا اكتشفت السر، وعثرت على سيفك، فسوف تكتشف أيضاً وجه رام، وستكون سيّد القدرة. لكن ليس هذا كلّ شيء. فلنكي تبلغ الحكمة، عليك أيضاً اجتياز الطرقات الأخرى، بما فيها الطريق السرية التي لن تكشف حتى لمن سلكها. أقول لك ذلك، لأننا لن نلتقي إلا مرة واحدة بعد اليوم.

خفق قلبي في صدري بطريقة لا إرادية. وفتحت عيني من جديد. كان وجه بتروس يلتصق بهذا النور الذي لم أعده، إلا عند معلّمي.

— أغمض عينيك.

أغمضتهما في الحال، لكن قلبي كان منقبضاً، ولم أتمكن من التركيز. عاد مرشدي ينشد الأغنية الإيطالية، ولم أسترخ من جديد إلا بعد وقت طويل.

— غداً ستتلقّى رسالة ترشدك إلى مكاني. وسيكون ذلك طقساً إسرارياً جماعياً، طقساً على شرف جمعية الميراث. لقد ساهم الرجال والنساء، على مرّ العصور، في تغذية شعلة الحكمة والجهاد الحسن، والحب الإلهي. ولن يكون بمقدورك التحنّث إليّ. فالمكان، الذي سنلتقي فيه، مقدس ومغسول بدم الفرسان الذين سلكوا نهج الميراث، والذين، بالرغم من سيوفهم المسنونة، لم يقدرُوا أن ينتصروا على الظلمات. لكن تضحيتهم لم تذهب سدى. والبرهان أنه، بعد قرون لاحقة، سلك أناس طرقاً مختلفة لتكريمهم. هنا أمر هام، وعليك ألا تنسى هنا أبداً: حتى وإن أصبحت معلماً. أعلم أن طريقك ليست إلا إحدى الطرق العديدة التي تقودك إلى الله. قال يسوع ذات مرة: «إن في بيت أبي منازل كثيرة».

وأضاف بتروس أنني، ابتداءً من بعد غد، لن أراه مجدداً.

— ذات يوم، ستتلقّى رسالة منّي، أطلب إليك فيها أن ترشد حاجاً

على طريق مار يعقوب، كما أرشدتك. عندئذٍ، يمكنك أن تعيش السر الكبير لهذه الرحلة، وهو سرّ أستطيع أن أكشفه لك الآن، ولكن بالكلمات فقط، لأنه في حاجة أن يُعاش ليفهم.

وخيم صمت طويل. اعتقدت أنه غيّر رأيه، ورحل. وشعرت برغبة جارفة أن أفتح عيني، وأرى ما يجري، وقمت بجهد، لأركّز على «نفس رام».

وقال بتروس، أخيراً:

— السرّ هو أنك لا تستطيع أن تتعلّم إلا حين تُعلّم. لقد اجتزنا معاً الطريق الغربية لمار يعقوب. كن أنت تتعلّم الممارسات، وأنا أكتشف معناها. حين علّمتك، تعلّمك فعلاً. وحين أتيت دور المرشد، استطعت إيجاد طريقي، أنا بالذات.

إذا عثرت على سيفك، فينبغي أن تعلّم الطريق للآخرين. عندئذٍ، أي حين تقبل دور المعلم، ستكتشف كل الأجوبة في قلبك. نحن جميعاً نعرف كلّ الأشياء، قبل أن يكلمنا أحد بها. فالحياة تعلّم في كل لحظة، وليس هناك إلا سر واحد؛ إدراك حقيقة أننا قادرون، ضمن عالنا اليومي، أن نكون حكماء كسليمان، وأقوياء كالإسكندر الكبير. ولكننا لا نعي ذلك فعلاً، إلا حين نضطر إلى تعليم الآخر، والمشاركة في مغامرات غريبة كهذه.

كنت أعيش، في هذه اللحظة، إحدى تجارب الفراق غير المتوقعة إطلافاً في حياتي. فمن ربطتني به علاقة لا مثيل لقوتها، وتوقعت أن يقودني حتى بلوغ هدفي، يتركني في منتصف الطريق، في محطة حديدية، تنبعث منها رائحة الزيت، ويأمرني بأن أحتفظ بعيني مغمضتين.

أضاف بتروس:

— لا أحب أن أقول لك وداعاً. أنا إيطالي وانفعالي. وتقضي الشريعة بأن تجد سيفك بنفسك. هذه هي الطريق الوحيدة لكي تؤمن بقدرتك الخاصة. كل ما أريد أن أنقله إليك، نقلته. ولم يتبق إلا تمرين الرقص، الذي ساعلمك إياه الآن، وعليك أن تمارسه غداً، خلال الاحتفال الطقسي.

بقي صامتاً لبعض الوقت، ثم قال:

— هنا الذي يفتخر، فليكن فخره مستمناً من مجد الرب. تستطيع أن تفتح عينيك.

كان بتروس جالساً على مربوط العربة. لم تكن لدي رغبة في الكلام، لأنني برازيلي، وبالتالي انفعالي أيضاً. أخذ مصباح الزئبق، الذي كان ينيرنا، يومض، وأطلق قطار في البعيد، صفرة تعلن وصوله الوشيك.

وهكذا، علّمني بتروس تمرين الرقص.

قال بتروس، وهو ينظر إليّ من أعماق عينيه:

— هناك شيء آخر. عندما رجعت من الحجّ، رسمت لوحة كبيرة تكشف عن كلّما حصل لي. كانت تلك طريق الناس العاديين، وتستطيع أنت أن تفعل مثلي، إذا شئت. إذا لم تكن تحسن الرسم، فاكتب، أو اخترع رقصة. وهكذا يستطيع الناس، حيثما وجدوا، أن يعبروا طريق مار يعقوب، والمجرّة، والدرب الغربية لـ «سانتياغو».

دخل القطار، الذي كان يُصفر، المحطة. أشار بتروس بيده، وامتطى إحدى الحافلات. بقيت، وسط ضجة الكوابح التي تصطك عند احتكاكها بقضبان الفولاذ، محاولاً أن أقرأ الرموز الغريبة للمجرّة المائلة فوق رأسي، ونجومها التي قادتنني إلى هنا، وقادت، في صمتها، عزلة الناس ومصيرهم.



في اليوم التالي، لم أجد إلا ورقة في خزانة غرفتي، تحمل  
الملاحظة التالية:

السابعة مساءً في قصر «فرسان الهيكل».

## تمرين الرقص

استرخ، واغمض عينيك.

تذكر الأغنيات الأولى التي سمعتها، عندما كنت طفلاً. أنشدها، بصمت،  
في قرارة نفسك. ثم، تدريجاً، أترك جزءاً من جسدك، قدميك أو بطنك، أو  
رأسك... جزءاً فقط، يرقص على إيقاع اللحن الذي تنشده.

بعد خمس دقائق، توقف عن الغناء، واسمع الأصوات التي تحيط بك. ألف  
معها لحناً، وارقص بكل جسدك، ولا تفكر بشيء خاص. حاول فقط أن  
تتذكر الصور التي تظهر لك تلقائياً.

إن الرقص هو أحد أكثر الأشكال كمالاً للاتصال بالروح اللامتناهية، أي  
بالله. أما مدة التمرين، فتبلغ خمس عشرة دقيقة.

قضيت فترة ما بعد الظهر، وأنا أتسكع على أبواب المدينة.  
اجتازت، أكثر من ثلاث مزارع، مدينة «بونفرد»، الصغيرة، ناظراً في  
البعيد إلى القصر المتهكئ على إحدى الربوات، والذي ينبغي لي أن  
أقصده عند غياب النهار. كان الفرسان يلهبون خيالي دوماً. ولم  
يكن قصر بونفرد الأثر الوحيد المتبقي من «جمعية فرسان  
الهيكل» على طريق مار يعقوب. فالجمعية أنشأها تسعة فرسان  
قزروا عدم الرجوع من الحروب الصليبية. وقد بسط هؤلاء الفرسان،  
بقليل من الوقت، نفوذهم في كل أوروبا، محدثين ثورة كبرى  
في العادات، مع بداية هذه الألفية. وفيما كان القسم الأكبر من  
النبلاء يفكرون بجني الثروات من عمل الرقيق في النظام  
الإقطاعي، كان «فرسان الهيكل» يركزون حياتهم وثرواتهم  
وسيوفهم لقضية واحدة: حماية الحجاج على طريق أورشليم،  
مكتشفين نمطاً للحياة الروحية، يساعدتهم في سعيهم إلى  
الحكمة.

عام ١١١٨، اجتمع هوغو دوبان وثمانية فرسان في باحة أحد  
القصور القديمة المهجورة، ورفعوا محبة البشر شعاراً لهم. وبعد  
قرنين، نشأت لهم خمسة آلاف جمعية موزعة في العالم المعروف  
آنذاك، هدفها مصالحة نشاطين بدوا، حتى ذلك التاريخ، متعارضين  
فيما بينهما: الحياة العسكرية والحياة الدينية. وأتاحت هبات  
الأعضاء المنتسبين إليها، وهبات آلاف الحجاج المنتسبين إلى جمعية  
«فرسان الهيكل»، أن تجمع، في وقت وجيز للغاية، ثروة لا تحصى،  
استخدمت مزارع عذبة فدية لتحرير شخصيات مسيحية من أسر

المسلمين. كانت استقامة الفرسان ونزاهتهم على مستوى رفيع جداً، بحيث أن ملوكاً ونبلاء عهدوا بثرواتهم إلى «فرسان الهيكل» الذين لم يكونوا يسافرون إلا وهم يحملون وثيقة تثبت وجود هذه الثروات. وكان يمكن تبادل الوثيقة في أي قصر تابع لجمعية «فرسان الهيكل»، لقاء مبلغ يعادلها. وهذا ما يُعتبر عنه، بلغة اليوم، «الكمبيالات».

وأتاحت الغيرة الدينية لـ «فرسان الهيكل» إدراك الحقيقة التي ذُكر بها بتروس في الليلة السابقة، والتي تقول: «إن في بيت أبي منازل عديدة. بدأ الفرسان يسعون، آنذاك، إلى وضع حدٍّ لحروب الجهاد الدينية، وإلى انصهار الديانات الوحلانية الثلاث: المسيحية واليهودية والإسلام. وهكذا شيدوا كنائس قببها مستديرة، مثل هيكل سليمان، وجدرانها مثمّنة الأضلاع كالجوامع العربية، وأجنحتها تتسم بطابع الكنائس المسيحية.

ومع ذلك، وعلى غرار كل دعوة سابقة لعصرها، فإن الفرسان أخذوا يثيرون الريبة والحذر. كما أيقظ نفوذهم الكبير مطامع الملوك. وأصبح انفتاحهم الديني يُعدّ تهديداً للكنيسة. وفي نهار الجمعة ١٣ أكتوبر عام ١٣٠٧، نظّم الفاتيكان والدول الأوروبية الرئيسية إحدى أضخم العمليات البوليسية في القرون الوسطى: أوقف «فرسان الهيكل» الرئيسيون في قصورهم، واقتيدوا إلى السجن. اتهموا بممارسة احتفالات سزية تتضمن عبادة الشيطان وتجذف على يسوع المسيح، كما اتهموا بإقامة طقوس عريضة، وممارسة اللواط مع الفرسان الجدد. وبعد التعذيب العنيف والارتدادات والخيانات، أمحى تنظيمهم عن خارطة التاريخ القروسطي، وصودرت ثرواته، وتشتت أعضاؤه في أنحاء العالم. وأحرق آخر معلّم في الجمعية جاك دو مولي حياً وسط باريس، مع أحد مرافقيه. كان طلبه الأخير، قبل الموت، أن يموت ناظراً إلى أبراج كاتدرائية «نوتردام».

إلا أن إسبانيا، المنخرطة في إعادة فتح شبه الجزيرة الإيبيرية، ارتأت أن من المستحسن استقبال الفرسان الهاربين من أوروبا، واستيعابهم، بغية مساعدة الملوك في الحرب الدائرة مع المغاربة. وهكذا انضم الفرسان إلى الجمعيات الإسبانية، ومن بينها منظمة «مار يعقوب حامل السيف»، والمسؤول عن حماية الطريق.

كل ذلك عبر في ذهني، عندما كنت في تمام السابعة مساءً، اجتاز الباب الرئيسي للهيكل في «بونفزاذا»، حيث كنت على موعد مع جمعية «الميراث».

لم يكن هناك أحد. انتظرت نصف ساعة، أدخن سيجارة تلو سيجارة، متخيلاً الأسوأ: ماذا لو أقيم الطقس في السابعة صباحاً! وعندما صممت على الرحيل، دخلت فتاتان تحملان علم البلدان المنخفضة، وخيطت فوق ثيابهن الضفّة، رمز طريق مار يعقوب. جاءتا إلّى، وتبادلنا بعض الكلمات، وتوصلنا إلى الاستنتاج بأننا ننتظر الشيء نفسه. قلت في نفسي إن البطاقة التي تلقيتها لم تكن مخطئة، وشعرت بالعزاء.

كان الوافدون يصلون كل ربع ساعة: أوسترالي وخمسة إسبان وهولندي. علّا بعض الأسئلة المتعلقة بالمواعيد، والتي شكّلت قاسماً مشتركاً لشكوكنا، لم نكد نتبادل الكلام. جلسنا معاً في إحدى غرف القصر التي كانت تستعمل قديماً مستودعاً للمؤن، وقزّرنا انتظاراً أن يحدث شيء ما، حتى لو اقتضى الأمر انتظار نهار وليلة إضافيين.

طال الانتظار. رحنا نتحدّث أخيراً بالدوافع التي ساقتنا إلى هنا. عرفت، عندئذ، أن طريق مار يعقوب كانت تسلكها جمعيات مختلفة تتصل، في غالبيتها، بجمعية «الميراث» الكبرى؛ وأن الناس، الذين تحدثت إليهم، قد مروا بتجارب ومسارات عدّة. لكن هذه



التجارب عرفتھا منذ وقت طويل في البرازيل. وحدنا أنا والأوسترالي، كنا نسعى إلى نيل الرتبة الأعلى لـ «الطريق الأولى». وأدركت، دون أن أدخل في التفاصيل، أن مسعى الأوسترالي مختلف تماماً عن ممارسات «رام».

في حوالي الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والأربعين، وفيما كنا على أهبة التحنث بحياتنا الشخصية، دوى جرس. كان الصوت صادراً عن الكنيسة القديمة للقصر، فتوجهنا إليها جميعاً.

كان المشهد مؤثراً: الكنيسة، أو ما بقي منها لأن القسم الأكبر كان مدمراً، أضيئت بالمشاعل. وهناك، حيث كان المذبح مقاماً ذات يوم، توالى سبع قامات ترتدي الألبسة القديمة لـ «فرسان الهيكل»: القلنسوة والخوذة الفولاذية والزررد والسيف والترس. تقطعت أنفاسي؛ لكان الزمن قام بقفزة إلى الوراء. كان الشيء الوحيد الذي يذكر بالواقع هو ملابسنا: سراويل الجينز والقمصان المزينة بالأصناف.

وعلى الرغم من ضوء المشاعل الخافت، فإنني قد استطعت أن أميز أن أحد الفرسان، كان بتروس.

قال الأكبر سنّاً بينهم:

— اقتربوا من معلّميكم. حذقوا في أعينهم. انزعوا ملابسكم، لتتلقوا الملابس الجديدة.

اتجهت إلى بتروس. كان في حالة تقارب الرعدة، ولم يبدُ عليه أنه يعرفني. لكنني لاحظت، في عينيه، حزناً ما، الحزن الذي تجلّى في صوته الليلة الماضية. نزعنا كل ملابسنا، وألبسنا بتروس رداء أسود معطراً انهدل على جسدي. لاحظت أن أحد المعلّمين كان لديه أكثر من تلميذ، ولكنني لم أستطع تمييزه، لأن عينيّ كانتا تحدّقان إلى بتروس.

قادنا الكاهن الأعلى إلى وسط الكنيسة، وراح فارسان يرسمان دائرة حولنا، ويكزسانها قائلين:

— ترينيتاس، سوثر، ميسياس، إيمانويل، ساباهو، أدوناي أتاناتوس، بيزو...<sup>(١)</sup>.

رُسمت الدائرة، وهي تمثل الحماية الضرورية للموجودين داخلها. لاحظت أن أربعة من هؤلاء الأشخاص كانوا يلبسون رداء أبيض، وهذا يعني نذر العفة المطلقة.

تابع الكاهن الأعلى، قائلاً:

«أمينس، ثيودونياس، أنيثورا باستحقاقات الملائكة يا رب، أرتدي رداء الخلاص، عسى كل شيء أتمناه يصبح حقيقة بمعونتك. أنت يا أدوناي المقدس الذي سيدوم ملكوته إلى أبد الأبد، آمين».

ولبس الكاهن الأكبر سنّاً، فوق الزرد، الرداء الأبيض الذي طُرز في وسطه صليب الهيكل. وهكذا فعل الفرسان أيضاً.

كانت الساعة تشير إلى التاسعة مساءً، وهي ساعة «الرسول مركور». وجلتني من جديد وسط «دائرة الميراث» وقد فاحت في الكنيسة رائحة بخور النعناع والحبق والعنبر.

وتلا الفرسان الصلاة العظمى:

— يا أيها الملك العظيم النفوذ «ن»، أنت الذي بقدره الرب «إيل» السامية تهيمن على كل الأرواح العليا والسفلى، ولا سيّما على النظام الجهنمي لقطاع الشرق، أبتهل إليك... لكي أستطيع تحقيق رغبتني أيّا تكن، ما دامت متعلّقة بعملك وبقدرة الرب «إيل»، الذي خلق

(١) بما أن الأمر يتعلق بطقس طويل جداً، لا يستطيع فهمه إلا أتباع جمعية «الميراث»، اخترت أن أختصر الكلمات المستخدمة. وهذا لن يؤثر بشيء على الكتاب، لأن تنفيذ الطقس لا يستهدف إلا التقاء القدامى، وتقديم الاحترام المتوجب إليهم. أما الأمر الأساسي في هذا الجزء من طريق مار يعقوب، فيتعلّق بتمرين الرقص، وقد شرح بشكل وافٍ.



كل شيء: السماوات والهواء والأرض والجحيم، ويتصرف بها كما يشاء.

خيّم صمت ثقيل علينا. وشعرنا بحضور الاسم الذي ابتهل إليه دون أن نراه. كان هذا تكريس الطقس. سبق لي أن شاركت في منات الطقوس المماثلة، وحدث أن توصلت إلى نتائج أكثر إثارة للدهشة، عندما تحين هذه اللحظة بالذات. لكنّ قصر فرسان الهيكل، حرك خيالي؛ رأيت في الجزء الأيسر من الكنيسة عصفوراً لامعاً، لم أر مثله من قبل، يخلق هناك.

رشنا الكاهن الأكبر بالماء من خارج الدائرة. ثم كتب على الأرض، بالحبر المقدس، الأسماء السبعين التي تطلق على الله في الميراث. بدأنا جميعاً، حجاجاً وفرساناً، بتلاوة الأسماء المقدسة. تأججت النار في المشاعل، وهذه علامة أن الروح المبتهل إليه قد استجاب.

حان وقت الرقص، أدركتُ لما علّمني بتروس الرقص ليلة البارحة، وكان رقصاً مختلفاً عن ذلك الذي تعودت ممارسته في هذه المرحلة من الطقس.

لم ينبهنا أحد إلى القاعدة، لكننا نعرفها جميعاً؛ يجب الإبقاء على الأقدام داخل الدائرة، لأننا لا نلبس رداء الحماية الذي ارتداه هؤلاء الفرسان فوق زردتهم. عاينت حجم الدائرة، وقمت، تحديداً بما لقّنتني إياه بتروس.

بدأت أفكر بطفولتي. وثمة صوت، صوت امرأة، بعيد في داخلي، أنشد أغنية دؤارة. حبوت على ركبتني، وتقوّعت في وضع البذرة. وحده صدري بدأ بالرقص. شعرت أنني في حالة جيدة، تخمرني النشوة التي تحدثها هذه الطقوس. وتدرجاً، تحوّلت الموسيقى في داخلي، وأصبحت الحركات عنيفة، ودخلت في نشوة

كبرى. كان كل شيء قاتماً، ولم يعد لجسدي وزن في هذه الظلمة. عندئذ، تنزهت في حقول «أغاثا، الزهرة، والتقيت هناك جدي وعمي اللذين طبعاً طفولتي بطابعهما. أحسست باهتزاز الزمن في شبكته، حيث تمتزج، حتى التماهي، مختلف الطرق. في وقت ما، رأيت الأوسترالي يعبر بسرعة كبيرة، وعلى جسده بريق أحمر.

كانت الصورة التالية، التي رأيتها تمثل كاساً وصينية<sup>(١)</sup>، وكان هذه الصورة تريد أن تقول لي شيئاً. حاولت تفسير لغزها ولم أستطع، مع أنني كنت متيقناً أن له علاقة بسيّفي. ثم خلّفتني أرى وجه «رام، ينبثق من عمق الظلمة التي تشكّلت، عند اختفاء الكأس والصينية. لكن عندما اقترب الوجه، تبين أن وجهه نـ، الروح المبتهل إليه. لم نقم بأي اتصال خاص، وتبدد وجهه في الظلمة التي كانت تغيب، ثم تعود إلى الظهور.

لا أعرف كم من الوقت مضى علينا، ونحن نرقص. وفجأة، سمعت صوتاً يقول: «يهوى، تتراغراماتون...، أغاظني هذا الأمر، لأنني كنت حينئذ متصلاً، ولا أنوي الرجوع، لكن المعلم أصرّ.

رجعت إلى الأرض على أعقابني، وقد خابت مساعي. رأيتني من جديد داخل الدائرة السحرية، في الجو السلفي لقصر فرسان الهيكل.

نظرنا، نحن الحجاج، واحدنا إلى الآخر. بدأ وكان القطيعة لم تعجبني شيئاً منّا. شعرت برغبة جارفة لأتكلم مع الأوسترالي، عما رأيته. عندما نظرت إليه، فهمت أن الكلمات غير مجدية؛ لقد رأيته هو أيضاً.

تحلّق الفرسان حولنا. بدأوا يضربون تروسهم بالسيوف، مثيرين ضجة تصم الآذان، إلى أن قال الكاهن الأعلى:

(١) طبق دائري من الذهب، إجمالاً، يستعمله الكاهن خلال القنّس، ليضع عليه القربان المكسّر.

– يا روح ن\*، بما أنك استجبت لطلباتنا بسرعة فسوف ندعك ترحل بجلال، دون أن تؤذي إنساناً أو حيواناً. أقول لك: إذهب، وكن مستعناً وراغباً في العودة، معزماً دوماً بفضل الطقوس المقدسة لجمعية «الميراث». أمرك أن ترحل بسلام وسكون، وليعم سلام الله بينك وبينني. آمين.

بعد أن خرجنا من الدائرة، جئنا أرضاً، مخفضين رؤوسنا. صلى أحد الفرسان سبع مرات «أبانا»، وسبع مرات «السلام». ثم تلا الكاهن الأعلى سبع مرات: «نؤمن به» واحد أب ضابط الكل... مؤكداً أن عذراء «ميليغوريه»، التي تمت تجلياتها في يوغوسلافيا، قد أوصت بذلك. وبدأنا طقساً مسيحياً...

أمر الكاهن الأعلى:

– أندرو، انهض، وتعال إلى هنا.

توجه الأوسترالي إلى المذبح الذي تحلق أمامه الفرسان السبعة.

وقال فارس آخر لا بد أنه كان مرشده:

– يا أخي، هل ترغب أن تقبل في شركة الكنيسة؟

– أجل، أجاب الأوسترالي.

وعزفت أن الطقس المسيحي، الذي نشارك فيه، يتعلق بمسألة فارس من «فرسان الهيكل».

– هل تعرف الواجبات الصارمة للكنيسة، والأوامر الإحسانية المتعلقة بها؟

أجاب الأوسترالي:

– أنا مستعد لتحمل كل شيء بمعونة الله. وأرغب أن أكون خادماً وعبد الكنيسة، الآن وكل أيام حياتي.

ثم جاءت سلسلة من الأسئلة الطقسية التي لم يعد لبعض منها

أي معنى اليوم، ويتعلق بعضها الآخر بالتفاني والحب. وأجاب أندرو عليها جميعاً، وهو محني الرأس.

قال مرشده:

– أيها الأخ المميز، إنك تطلب مني الشيء الكثير، لأنك لا ترى من ديننا إلا القشرة الخارجية: الشعر الجميل والثياب الجميلة. أنت لا تعرف الوصايا الصارمة التي يتصفن بها هذا الدين. في الواقع، يصعب عليك أن تصبح، أنت سيد نفسك، خادماً للآخرين، لأنك نادراً ما تفعل ما تريد. إذا كنت تريد أن تكون هنا، فسوف نرسلك إلى الجانب الآخر من البحر. وإذا أردت أن تكون في عكا، فسنرسلك إلى طرابلس أو إنطاكية أو أرمينيا. وإذا أردت النوم، توجب عليك السهر. وإذا أردت البقاء ساهراً، أرسلناك لتستريح فوق سريرك.

أجاب الأوسترالي:

– أريد دخول بيت الله.

بدأ وكان «فرسان الهيكل» القدامى، الذين سكنوا ذات يوم هذا القصر، يشاهدون هذا الاحتفال المسازي، برضى. وتأججت نار المشاعل بحدة.

ثم جاءت إنارات عذة. وأجاب الأوسترالي أنه يتقبلها جميعاً، لأنه راغب في دخول بيت الله. وأخيراً، اتجه مرشده إلى الكاهن الأعلى، مرتداً كل الأجوبة التي قالها الأوسترالي. سأل الكاهن الأكبر الأوسترالي، بجلال، عما إذا كان مستعناً لقبول القواعد كلها التي يقتضيها دخول بيت الله.

– أجل، يا معلم، إن شاء الله. أتيت أمام الله وأمامكم أيها الإخوة، أنضرع إليكم، وأسألكم، باسم الله وباسم العذراء، أن تقبلوني في شركتكم، وفي محاسن بيت الله، على الصعيدين الروحي والزماني، بصفتي خادماً لهذا البيت وعبده، الآن وكل أيام حياتي.

قال الكاهن الأعلى:

– حباً بالله، دعوه يأتي إلى هنا.

عندئذ، أخرج كل الفرسان سيوفهم من أغمدتها، وصوبوها نحو السماء. ثم أخفضوا أسلحتهم، وصنعوا منها تاجاً فولادياً حول رأس أندرو. عكست النار على النصول لوناً ذهبياً، مضيئة على المشهد طابعاً مقدساً.

اقترب معلمه بمهابة، وسلّمه السيف.

## «السبريرو»

سألت الفتاة الصغيرة، وهي الكائن الحي الوحيد الذي كان يعبر «فيلافرانكا ديل بويرثو»، بعد هذه الظهيرة الشديدة القيظ.

— هل أنت حاج؟

نظرت إليها دون أن أجيب. كانت في حوالى الثامنة من عمرها، وكانت ترتدي ملابس رثة. هرعت إلى سبيل الماء، حيث جلست لأرتاح قليلاً.

كان شاغلي الوحيد أن أصل سريعاً إلى «سانتياغو دو كومبوستيلا»، وأحسم أمري مع هذه المغامرة المجنونة. لم أستطع التوصل إلى نسيان صوت بتروس الحزين في مستودع الحافلات، ولا نظرت البعيدة، حين التقت عيناه عينيّ خلال طقس «الميراث». بدا الأمر كما لو أن كل جهوده لمساعدتي لم تؤدّ إلى شيء. عندما استدعني الأوسترالي إلى المذبح، كان بتروس، حتماً، راغباً في استدعائي أنا أيضاً، وأنا متأكد من ذلك. وكان ممكناً أن يُخبأ سيفي في هذا القصر الحافل بالخرافات وبحكمة الأقدمين، خصوصاً وأن أوصاف المكان تتطابق تماماً مع كل الاستنتاجات التي توصلت إليها: مقفر، ويزوره بعض الحجاج الذين يحترمون ذخائر «جمعية فرسان الهيكل»، بالإضافة إلى أنه مكان مقدس.

لكن وحده الأوسترالي تمّ استدعاؤه من بيننا. لا بدّ أن بتروس شعر بالإهانة، لأنه لم يكن مرشداً قادراً على هدايتي إلى مكان سيفي.

قرع أحدهم جرساً دوى صده في القصر القديم إلى ما لا نهاية. أخفضنا، جميعاً، رؤوسنا واختفى الفرسان عن ناظرنا. عندما رفعنا وجوهنا لم نكن إلا عشرة، لأن الأوسترالي خرج برفقتهم من أجل المأدبة الطقسية.

بدلنا ملابسنا، وافترقنا دون إجراءات شكلية. كانت الرقصة قد استغرقت وقتاً طويلاً، لأن النهار قد طلع. واجتاحني شعور هائل بالوحدة.

كنت أشعر بالحسد من الأوسترالي الذي عثر على سيفه وتسلمه في نهاية سعيه. كنت وحيداً لا مرشد لي، لأن جمعية «الميراث»، في بلاد بعيدة من أميركا الجنوبية، قد طردتني دون أن تعلمني طريق الرجوع. كان لزاماً عليّ اجتياز الطريق الغريبة لـ «سانتياغو»، التي شارفت، الآن، نهايتها، ولم أعرف سز سيفي، ولا الطريقة التي تخولني العثور عليه.

كان الجرس يقرع باستمرار. عندما خرجت من القصر، عرفت أنه جرس الكنيسة المجاورة يدعو المؤمنين لأول قنّاس. استيقظت المدينة لتواصل ساعات العمل، وقصص الحب التعيسة، والأحلام البعيدة، والضرائب التي تتوجب تأديتها. لا هذا الجرس ولا هذه المدينة يعرفان أن طقساً سلفياً قد أنجز في الليلة الماضية. وما اعتبرناه ميتاً، منذ قرون، يستمر في التجدد، مظهراً قدرته المتعظمة.

\*\*\*



من جهة أخرى، أيقظ في طقس «الميراث» مجدداً شغفي بمعرفة الخفي الذي تعلمت أن أنساه، فيما كنت أسلك درب مار يعقوب، درب الناس العاديين. كانت التضزعات، والتحكم شبه المطلق بالمادة، والاتصال بالعوالم الأخرى... أهم بكثير من ممارسات «رام». لعل تطبيق الممارسات بات أكثر موضوعية في حياتي، ولعلني تغيرت كثيراً منذ شرعت في سلوك الطريق. اكتشفت، بفضل بتروس، أن المعرفة المكتسبة تستطيع أن تجعلني أتجاوز مساقط المياه، وأهزم الأعداء، وأتجاوز مع «الرسول» بشأن مسائل عملية. عرفت وجه موتي والكرة الزرقاء للحب الملتهم، الذي يغمر العالم أجمع. كما أظهرت استعداداً لأن أخوض «الجهاد الحسن»، وأن أصنع من الحياة نسيج انتصارات.

في أي حال، فإن هناك جزءاً خفياً مني لا يزال يتحسر على الحلقات السرية، والعبارات الاستعلانية، والبخور، والخبر المقدس. كان ما يدعوه بتروس «تكريم الأقدمين» يمثل لي اتصالاً حاناً ونوستالجياً بالدروس القديمة المنسية. ثم إن فكرة عدم بلوغ هذا العالم كانت تحرمني حافظ الذهاب أبعد في سعيي. أثناء العودة إلى الفندق بعد طقس «الميراث»، وجدت «دليل الحاج»، إلى جانب مفاتيحي، وهو كتاب استعان به بتروس عندما لم تكن العلامات الصفراء واضحة كما يجب. وقد سمح لنا الدليل بتقدير المسافة بين مدينة وأخرى. تركت «بونفرادا» في الصباح نفسه، دون أن أخلد للنوم، وتابع الطريق. اكتشفت، بعد ظهيرة ذلك اليوم، أن الخارطة لم تكن موجودة، واضطرت إلى قضاء ليلة في العراء، في ظل صخرة.

وهنا، راجعت كل ما حدث لي منذ لقائي السيدة سافان. وفكرت في ما قاله لي بتروس بالحاج، ليفهمني أن النتائج، خلافاً لما تعلمناه، هي وحدها التي تتسم بالأهمية. الجهد خلاصي وضروري، لكن، إذا لم يفض إلى نتيجة، فهو لا يعني شيئاً. لا أستطيع أن أتوقع من نفسي، ومن كل ما حصل معي، إلا نتيجة

واحدة: العثور على سيفي. وهنا ما لم يحصل بعد. لم يتبق لي إلا مسيرة أيام قليلة، وأصل إلى «سانتياغو».

قالت الفتاة التي كانت تقف قرب سبيل الماء في «فيلافرانكا» ديل بويرثو، بإصرار:

— إذا كنت حاجباً، أستطيع مرافقتك حتى «بوابة الغفران». من يعبر هذه البوابة لا يعود محتاجاً للذهاب إلى مار يعقوب. قدّمت إليها بعض قطع البيزيتا لكي ترحل سريعاً، وتدعني بسلام. لكنّها راحت تلهو بماء السبيل، وترش حقيبتني وسروالي. كزّرت: — هيا يا سيد، لنذهب.

في هذه اللحظة، فكرت بعبارات كان يقولها بتروس، وهي مستوحاة من إحدى رسائل القديس بولس: «ينبغي للحارث أن يحرث على الرجاء، وللدارس على رجاء أن يكون شريكاً في الغلة». كان عليّ أن أصمد قليلاً بعد، أن أتابع البحث دون أن أخاف الهزيمة، وأن أحتفظ بالأمل في العثور على سيفي واكتشاف سرّه. لكن، من يدري؟ ثرى هل تحاول هذه الفتاة أن تقول لي شيئاً لم أكن راغباً في فهمه؟ إذا كان، لبوابة الغفران الموجودة في إحدى الكنائس، الأثر الروحي نفسه المترتب على زيارة ضريح مار يعقوب، فما الذي يمنع إذن أن يكون سيفي موجوداً هناك؟

أجابت الفتاة:

— هيا، لنذهب!

نظرت إلى الجبل الذي انحدرت منه لتؤي. كان عليّ العودة إلى الورا، وتسأل جزء منه مجدداً. كنت قد مررت ببوابة الغفران، دون أن تعتريني أدنى رغبة في زيارتها، لأن هدفاً واحداً وضعته

نصب عيني، هو: الوصول إلى مار يعقوب. لكن، أمامي فتاة صغيرة، وهي الكائن الحي الوحيد الذي صادفته بعد الظهيرة الحازة هذه، وهي تصر أن أعود على أعقابني، وأقصد مكاناً لم أوله اهتماماً. لعلني، بسبب من عجلتي وإحباطي، غفلت عن هدف كان موجوداً على طريقي. ثم لماذا لم ترحل هذه الفتاة، بعد أن أعطيتها المال؟

كان بتروس يقول لي، دوماً، إنني أحب أن أروي لنفسي القصص، متوهماً أشياء كثيرة. لكن ماذا لو كان مخطئاً!

تبعث الفتاة، وتذكرت قصة بوابة الغفران: لقد أرادت الكنيسة أن تتوصل إلى «تدبير، يشمل الحجاج المرضى، لا سيما وأن الطريق تصبح، ابتداءً من هذا المكان وحتى الوصول إلى «كومبوستيلا»، وعرة وجبلية. لذا، أعلن أحد البابوات، في القرن الثاني عشر، أنه يكفي اجتياز بوابة الغفران لكل من فقد القدرة على متابعة الدرب، وهو ينال الغفرانات نفسها، التي يحظى بها الحجاج الذين بلغوا نهاية الطريق. وهكذا، قدم هذا البابا الحل لبعض الحجاج، وأعاد إنعاش الحج المقدس.

تسلقنا المكان الذي مررت به سابقاً، طرقاً متعرجة ومنزلقة ووعرة. كانت الفتاة تتقدم سريعة كالبرق. واضطرت، في مرات عدة، أن أطلب منها الإبطاء في سيرها. كانت تطيع لحظة، ثم تعاود الركض. وبعد نصف ساعة، وإثر اعتراضات عدة من جانبي، وصلنا إلى بوابة الغفران.

قالت:

— أملك مفتاح الكنيسة. سأدخل وأفتح البوابة، لتجتازها.

دخلت الفتاة من الباب الرئيسي، وبقيت أنتظرها في الخارج. كانت الكنيسة صغيرة تتجه فتحة بوابتها إلى الشمال، وقد زينت

كلياً بأصناف وشاهد من حياة القديس يعقوب. وفيما كنت أصغي إلى صوت المفتاح في القفل، ظهر أمامي كلب راع لا أعرف من أين أتى، ووقف بيني وبين البوابة. تأهبت لقتاله.

وفكرت: «ألن تنتهي هذه القصة؟ أيضاً وأيضاً، تجارب وصراعات وإهانات. كل ذلك لم يرشدني إلى مكان!»

ومع ذلك، وفي هذه اللحظة، فإن بوابة الغفران فتحت، وظهرت الفتاة الصغيرة. عندما رأت الكلب الذي ينفرس بي — في الحقيقة أنا الذي كان يتفرس به — تلفظت بكلمات لطيفة لتدجين الحيوان. ابتعد الكلب، وهو يهز ذنبه، حتى جاوز آخر الكنيسة.

لعل بتروس على حق. ولعلني أعشق رواية القصص لنفسي، وأتوهم أشياء وأشياء تحول كلب راع صغير إلى حيوان متوعد خارق القدرات. إن هذه علامة سيئة، علامة التعب الذي يفضي إلى الهزيمة.

لكن بقي هناك أمل. دعنتي الفتاة الصغيرة للدخول. اجرت بوابة الغفران، وأنا أعلن النفس. وتلقيت الغفرانات ذاتها، التي يحظى بها زوار مار يعقوب.

جلت بنظري في أرجاء المعبد المقدس، وأنا شبه مجرد من التصورات. أسعى فقط وراء الشيء الوحيد الذي استولى على تفكيري.

قالت الفتاة، وكانت تؤذي دور الدليل السياحي:

— هنا تتخذ تيجان العمود شكل صدفة، رمز الطريق. وهنا القديسة أغاتا... من القرن الـ ...

سرعان ما فهمت أن لا جدوى من القيام بهذه الرحلة إلى هذا المكان.

— وهنا هو مار يعقوب شاهراً سيفه، والمغاربة تحت حصانه. إنه تمثال يعود إلى القرن الـ ...



أجل، هنا يوجد سيف مار يعقوب، لكن سيفي ليس هنا. أعطيت الفتاة قطعاً من البيزيتا، فرفضتها، وطلبت مني الخروج، وكأنها شعرت بالهانة. وتوقفت عن تقديم الإرشادات.

انحدرت من الجبل مجدداً، وعاودت السير باتجاه «كومبوستيلا». وعندما كنت أعبر، للمرة الثانية، «فيلافرانكا ديل ببيرو»، ظهر رجل يقول إنه يدعى أنجل. وسألني عما إذا كنت أودّ زيارة كنيسة مار يوسف النجار. رغم السحر الذي يتجلى به اسم هذا الرجل، فقد قلت، في نفسي، إنني خارج لتؤي من خيبة، وإن بتروس على حق، أنا واثق بذلك، وهو عارف تماماً بأسرار النفس البشرية. لدينا، دوماً، ميل إلى رؤية أشياء لا وجود لها، ونرفض رؤية الأمور البديهية الأوضح من النهار.

لكنني أحببت أن أتأكد من جديد. وتركت لأنجل أن يقودني إلى الكنيسة الأخرى. كانت مقفلة، ولم يكن المفتاح بحوزته. نظرت إلى تمثال القديس يوسف، وهو يحمل أدوات النجارة، ثم شكرت الرجل، وأعطيته بعض المال. لكنّه رفض أخذها، وتركني وسط الشارع.

قال:

– نحن فخورون بمدينتنا. لا نفعل هذا من أجل المال.

تابعت طريقي لمدة ربع ساعة، وتركت ورائي «فيلافرانكا ديل ببيرو»، بأبوابها وشوارعها ومرشديها الغامضين، الذين لا يطلبون شيئاً مقابل إرشادهم.

اجتزت، لفترة غير وجيزة من الوقت، قطاعاً جبلياً، وأنا أبذل جهداً كبيراً، وأتقدّم بصعوبة. في البداية، لم أفكر إلا بمشاغلي السابقة: الوحدة، العار، لأنني خيبت أمل بتروس، سيفي وسره. لكن صورتي الفتاة وأنجل كانتا تتراءيان، أمامي، في كل لحظة. كانت عيناوي موجهتين فقط إلى نيل المكافأة، فيما كانا يعطينني أفضل ما لديهما: حبهما لهذه المدينة، دون مقابل. تولدت،

في أعماقي، فكرة غامضة، فكرة تربط بين كل هذه العناصر. وكان بتروس يصز، دوماً، على ضرورة السعي إلى المكافأة، إذا أردنا نيل الظفر. كلّمنا نسييت أمور العالم ولم يعد يشغلني شاغل إلا سيفي، يعيدني بتروس إلى الواقع من خلال مساح أليمة. وقد تكرر هذا التصرف مراراً، على طول الطريق.

كان هذا مقصوداً، وهنا يكمن سر سيفي. إن ما دفن في أعماقي بدأ يعتمل في نفسي، ويتسرب نور طفيف منه إليّ. لم أعرف، حتى الآن، ما هو نزوع نفسي بالضبط، لكن شيئاً ما في داخلي كان يقول لي إنني أسير في الاتجاه الصحيح.

كنت ممثناً لالتقائي أنجل والفتاة الصغيرة. كان هناك حب ملتهم يظهر من طريقتهم في الكلام عن الكنائس. وقد جعلاني أجتاز مرتين الطريق التي خططت لعبورها خلال بعد الظهر. ومن جديد، نسييت الانبهار الذي أحدثه فيّ طقس «الميراث» ورجعت إلى أراضي إسبانيا.

تذكرت أن بتروس قد أعلن لي، ذات يوم بعيد جداً الآن، أننا اجتزنا مزات عذّة الطريق نفسها في البيرنيه. وتحسّرت على ذلك النهار. كان بداية جيدة. ومن يدري: هل يشكّل تكرار الحدث نفسه علامة نهاية سعيدة؟

وصلت مساءً إلى إحدى القرى، ووجدت مأوى لدى امرأة عجوز، طلبت مني مبلغاً زهيداً من المال لقاء الغرفة والطعام. تحنّنا قليلاً، وأسزت لي إيمانها بقلب يسوع، وقلقها بشأن غلال الزيتون في هذه السنة التي تميزت بالجفاف. شربت الخمر الجيدة، وتناولت الحساء، ثم خللت للنوم في ساعة مبكرة.

أحسستني أكثر اطمئناناً، بسبب هذه الفكرة التي كنت أكوّنها في داخلي، والتي ستنفجر عما قريب. صليت، وأنجزت بعض التمارين التي علّمني إياها بتروس، ثم استدعيت أستران. كان عليّ التحدث معه عن صراعي مع الكلب، لا سيما وأنه فعل ذلك النهار كل ما في وسعه لإلحاق الأذى بي، كما أعلن رفضه



مساعدتي خلال فصل الصيف. بعد كل الذي فعله معي، صفت، فعلاً، على إبعاده من حياتي وإلى الأبد، فلو لم أتعزف إلى صوته، لاستسلمت للتجارب التي اعترضتني إبان المعركة.

قلت:

— فعلت كل ما في وسعك لتساعد جوقة الشياطين على الانتصار.

احتج أستران، قائلاً:

— لا أحارب إخوتي.

توقعت هذا الجواب. لقد أخطرتُ بذلك. وكان سخيلاً أن أغضب من «الرسول» لأنه يطاوع طبيعته بالذات. كان عليّ أن أفتش فيه عن الرفيق الذي يساعدني في اللحظات الماثلة، فتلك وظيفته الوحيدة. وضعت حقدِي جانباً، وبدأنا نتحدث بأمور الطريق وبتروس وسز السيف الذي شعرت أنه موجود في داخلي. لم يقل لي شيئاً مهماً، عدا أن هذه الأسرار ممتنعة عليه. على الأقل، وجدت من أتحدث إليه، بعد أن قضيت فترة بعد الظهر صامتاً. تحدثنا، حتى وقت متأخر، إلى أن قرعت العجوز بابي، مشيرة إليّ أنني أتحدث أثناء نومي.

نهضت على أفضل وجه، وتابعت السير في الصباح. وقذرت أنني سأصل بعد الظهيرة إلى أراضي «غاليسيا»، حيث توجد «سانتياغو دو كومبوستيلا». كانت الطريق تتجه صعداً دون توقف. وتوجب عليّ مضاعفة جهودي لمدة ربع ساعة تقريباً، لأحافظ على إيقاع السير الذي فرضته على نفسي. ومشيت آملاً، في كل لحظة، أن تنحدر بي الطريق عند المنعطف المقبل. لكن هذا لم يحدث إطلاقاً، وفقدت الأمل، في النهاية، للتقدم سريعاً هذا الصباح. في البعيد، لمحت جبلاً أكثر ارتفاعاً، وتذكرت، في كل لحظة أن اجتيازها مفروض عليّ، عاجلاً أم آجلاً. ومع ذلك، فإن الجهد الجسدي قد علّق تفكيري، تماماً، وشعرتني أكثر لطفاً مع نفسي.

قلت في نفسي: تباً! كم من الناس في هذا العالم يمكنهم أن يأخذوا على محمل الجد رجلاً يترك كل شيء، ليبحث عن سيف؟ وماذا يعني ذلك حقاً في حياتي إن لم أنجح في العثور عليه؟ كنت قد تعلمت ممارسات «رام». والتقيت «رسولي»، وتصارعت مع كلب، ونظرت إلى وجه موتي. وأنا أحاول أن أقنع نفسي بما تمثله طريق مار يعقوب الآن من أهمية لي. إن السيف لم يكن إلا نتيجة. وكنت أود أن أعثر عليه، لكنني كنت أود أكثر أن أعرف ماذا أفعل به. لأنه كان يلزماني استخدام عملي له، تماماً كما استخدمت التمارين التي علمني إياها بتروس.

توقفت فجأة. فالفكرة، التي كانت تعتمل حتى الآن في كياني، انفجرت، وبات كل شيء من حولي واضحاً، وانحسرت في داخلي موجة عارمة من الحب الإلهي. رغبت، بحدة، أن يكون بتروس هنا، لأروي له ما كان يريد معرفته عني، الأمر الوحيد الذي كان ينتظر في الواقع أن أكتشفه، ويتوج هذه الحقبة الطويلة من التعاليم على الطريق الغربية لمار يعقوب، ألا وهو سز سيفي.

وسز سيفي، كسز كل انتصار يبحث الإنسان عن تحقيقه في هذه الحياة، هو أمر سهل للغاية: ما العمل به؟

لم أفكر في هذا من قبل. فكل ما رغبت في معرفته، أثناء الطريق، هو المكان الذي خُبئ فيه. لم أتساءل قطّ لما كنت أريد العثور عليه، أو لما كنت أحتاج إليه. وجهت كل طاقتي نحو المكافأة، ولم أدرك أنه، عندما يرغب أحدنا في شيء، فعليه أن يعرف الغاية الواضحة من هذه الرغبة. هذا هو الدافع الوحيد الذي يجدر بنا أن نفتش من أجله عن مكافأة. وهذا هو سز سيفي.

كنت أريد أن يعرف بتروس أنني قمت بهذا الاكتشاف، لكنني

بث متيقناً بعدم تمكّني من رؤيته مجدداً. لقد انتظر طويلاً أن يأتي هذا النهار الذي أكتشف فيه ذلك، لكنه، الآن، غائب، ولن أستطيع أن أقول له ذلك.

عندئذٍ، وبصمت، جثوت على ركبتي، وتناولت ورقة من مفكرة ملاحظاتي، وكتبت ما أنوي فعله بسيفي. ثم طويت الورقة بعناية، ووضعتها تحت حجر. في أي حال فإن الحجر قد ذكرني باسم «بتروس» وبصداقته. أعرف أن الزمن سيدمر هذه الورقة سريعاً، لكنني سلّمتها إلى بتروس بطريقة رمزية.

إنه يعرف، مسبقاً، ما علي فعله بسيفي، وأن مهمتي معه قد اكتملت.

تسلّقت، قدماً، الجبل. كان الحب الإلهي يسيل مني، ويوزد كل شيء من حولي. الآن، وقد اكتشفت السر، عليّ اكتشاف الشيء الذي أبحث عنه. استولى إيمان ويقين لا يتزعزع على كياني كلّهُ. وأخذت أندن لحن الأغنية الإيطالية التي أنشدها بتروس في مخزن الحافلات. وبما أنني لم أكن أعرف كلماتها، فقد اخترعت كلمات لها. لم يكن هناك أحد في جوارِي. اجتزت غابة كثيفة، وجعلتني عزلتي أغني بصوت أعلى. ثم شعرت أن الكلمات التي اخترعتها، تتخذ معنى غامضاً في رأسي. كانت وسيلة اتصال بالعالم الذي يتسنّى لي وحدي معرفته، لأن العالم كان يعلمني.

سبق لي أن قمت بهذه التجربة، ولكن بطريقة مختلفة، خلال أول لقاء لي بجوقة الشياطين. في ذلك اليوم، تجلّت فيّ موهبة اللغات. كنت، عندئذٍ، خادم «الروح» الذي استعملني لأنقذ امرأة، وأجد عدوّاً، وأتعلّم الشكل الوحشي لـ «الجهاد الحسن». الآن، اختلف الأمر. كنت سيّد نفسي، وكنت أتعلّم الكلام مع الكون.

ورحت أكلّم كلّ ما يظهر في طريقي: جذوع الأشجار، برك

الماء، الأوراق الميتة، النباتات الجميلة المعزّشة. كان ذلك تمرين الناس العاديين الذي يتعلّمه الأطفال، وينساه الكبار. كانت الأشياء تجيبني بشكل خفي، وكأنها تفهم ما أقول، وتغمرنني، بالمقابل، بالحب الملتهم. دخلت في حالة من الرعدة، وخفت. لكنني كنت مستعداً لمتابعة اللعبة، حتى النهاية.

مزة أخرى، كان بتروس محقّقاً، أعلم نفسي، فاصير معلماً.

دنت ساعة الغداء، لكنني لم أتوقّف لتناول الطعام. وفيما كنت أجتاز النواحي الصغيرة، رحت أتكلم بصوت أكثر انخفاضاً، وأضحك وحدي. وإذا أثار منظري اهتمام بعض الناس، فما من ضير في أن يستنتجوا أن الحجاج، في أيامنا هذه، يصلون، وهم في حالة جنون، إلى كاتدرائية مار يعقوب. لكن ليس لذلك أهمية تذكر. فأنا أحتفل بالحياة من حولي، وأعرف ما علي فعله بسيفي، حالاً أعثر عليه.

مشيت ما تبقى من فترة بعد الظهر، وأنا أرتعد، مدركاً المكان الذي أقصده، متمثلاً حالة وعي تام للحياة المحيطة بي، والتي تعكس لي الحب الإلهي. للمرة الأولى، بدأت غيوم ثقيلة تتكوّن في السماء. تمنّيت أن تمطر، لأن المطر، بعد كل هذا السير وسط الجفاف، يبدو تجربة جديدة ومثيرة. في الساعة الثالثة بعد الظهر، وطننت قدماي أراضي غاليسيا. ورأيت على خارطتي أن جبلاً واحداً يفصلني عن نهاية الرحلة. فزرت أن أتسلّق، وأنام في أول مكان ماهول على طريق النزول: في «تريكاستيلا»، حيث حلم ألفونس الحادي عشر، أحد كبار الملوك، بتأسيس مدينة كانت، قبل قرون، قرية في الريف.

تابعت غنائِي، وتكلّمت، باللغة التي اخترعتها، إلى ما صادفته من عناصر. وشرعت في تسلّق آخر جبل «السبريرو». كان اسمه يُطلق على قرية قديمة رومانية، ويبدو أنه يشير إلى شهر فبراير، الذي حصل فيه حادث هام. كان هذا الجبل يعتبر، قديماً، المعبر



الأصعب لطريق مار يعقوب. ولكن، اليوم، تغيرت الأشياء بالطبع. صحيح أن التسلق لا يزال وعراً، لكن أقيم على الجبل المجاور هوائي تلفزيوني هائل ليرشد الحجاج إلى الطريق، ويمنعهم من الضلال، الشيء الذي كان شائعاً ومحتملاً في الأزمنة الغابرة.

كانت الغيوم تنخفض أكثر فأكثر. وكنت على وشك اختراق الضباب. كان عليّ للوصول إلى «تريكاستيلا» أن أتبع بحذر العلامات الصفراء، لأن هوائي التلفزيون حجب الضباب. إذا تهت، فساكون مضطراً إلى قضاء ليلة إضافية في العراء، وفي هذا اليوم، ومع المطر الذي ينذر بالهطول، لن تكون التجربة مغرية. كنت أشعر بنقاط المطر تسيل على وجهي، كذلك ملأني شعور بالاكتمال والحرية والحياة. لكن أن أقضي الليلة في مكان رحب مع كأس نبيذ، وأن أضطجع في سرير مريح تحسباً لرحلة الغد، شيء، وأن أنام في الوحل مستسلماً للأرق، يترصدني التهاب الركبة بسبب الضمادات المبللة، شيء آخر. عليّ الاختيار بسرعة: إما المتابعة قدماً واختراق الضباب ما دام هناك نور، وإما الرجوع إلى القرية الصغيرة التي مررت بها قبل ساعات لأبيت فيها ليلتي، وإرجاء تسلق جبل «السبريرو» إلى الغد.

ما إن فهمت ضرورة اتخاذ قرار فوري، حتى لاحظت أن شيئاً غريباً قد حدث لي: دفعني اليقين، بأنني اكتشفت سز سيفي، إلى الأمام قدماً، باتجاه الضباب الذي سيغمرنني. كان هذا شعوراً مختلفاً عن الشعور الذي حثني لأتبع الفتاة إلى بوابة الغفران، أو الرجل الذي قادني إلى كنيسة مار يوسف النجار.

تذكرت أنني، في المرات القليلة التي ألقيت فيها محاضرات في البرازيل، كنت، على الدوام، أقارن التجربة الصوفية بتجربة نعرفها جميعاً: التدرب على الدزاجة. في المرة الأولى، نصعد على الدراجة،

ونعطي دفعاً للدواسة فنسقط. نتقدم ونسقط. نتقدم ونسقط. ومع ذلك، فإن التوازن الكامل يتحقق فجأة، ونتوصل إلى التحكم بالآلة. لا يعود ذلك إلى تراكم التجارب، بل إن الأمر أشبه بمعجزة: تقودنا الدراجة، فنوافق على اتباع خلل الدولابين، ونستعمل حركة السقوط لنجعل منها منحني، أو اندفاعاً جديداً.

خلال تسلقي جبل «السبريرو» في الساعة الرابعة بعد الظهر، تبين لي أن المعجزة قد تحققت: فبعد أن سرت طويلاً على طريق مار يعقوب، بدأت هي «تسيرني». كنت أتبع ما يدعو الناس «الحس». وبسبب الحب الملتهم الذي خبرته طوال النهار، وبسبب سز سيفي الذي اكتشفته، وبالنظر إلى أن الإنسان في أوقات الأزمة يتخذ دوماً القرار المناسب، فقد اتجهت دون خشية نحو الضباب.

قلْتُ هي نفسي، وأنا أحاول جاهداً العثور على العلامات الصفراء فوق الصخور وأشجار الطريق: «لا بد أن لهذه الغيمة نهاية». منذ حوالي الساعة، وأنا أمشي ضمن رؤية ضعيفة جداً، متابعاً الغناء، لأبعد عني الخوف، ومنتظراً أن يحدث شيء خارق. وقد نظرت إلى طريق مار يعقوب، والضباب يحاصرني وحيداً في هذا الجو الوهمي، وكأني أمثل فيلماً يجرؤ فيه البطل على القيام بأشياء لم يسبقه إليها أحد من قبل، فيما المتفرجون في الصالة يعتقدون أن هذه الأشياء لا تحدث إلا في السينما. لكنني كنت أنا البطل، وكنت أعيش هذه الحالة بالذات في الحياة الواقعية. ازدادت الغابة سكوناً، وأخذ الضباب ينجلي بشكل واضح. لعلني سأصل إلى منتهى الطريق، لكن هذا النور يشوش عليّ الرؤية، ويرسم المنظر بالوان غامضة ومرعبة.

كان الصمت شبه تام. أصغت السمع، وخلتني أسمع صوت امرأة يصدر عن يساري. توقفت على الفور. انتظرت أن يتكرر الصوت،



لكن لم يكن هناك إلا الصمت، الصمت المطبق: حتى الأصوات، التي نسمعها عادة في الغابة: أصوات الجنادب والحشرات والحيوانات التي تطأ الأوراق اليابسة، اختفت. نظرت إلى ساعتني: إنها السابعة والرابع. قُتِرَت المسافة الباقية، لأصل إلى توريستريللا، بحوالى أربعة كيلومترات تقريباً. وكان لديّ الوقت الكافي لاجتيازها في ضوء النهار.

حين رفعت نظري عن الساعة، سمعت من جديد صوت المرأة، ساعيش ابتداءً من هذه اللحظة إحدى التجارب الأهم في حياتي كلها.

لم يكن الصوت صادراً عن أي مكان، بل كان منبعثاً من داخلي. استطعت سماعه بوضوح وجلاء، وجعله حدسي أقوى حضوراً. لم أكن سيد هذا الصوت، كذلك لم يكن أستران. لم يقل لي الصوت إلا أن أتابع المسير، وأطعت دونما تردد. كان الأمر كما لو أن بتروس قد عاد ليعلمني الأمر والطاعة، أو كأئنني، في هذه اللحظة، أداة الطريق التي «تقودني». كان الضباب ينقشع، وقد بدا على وشك الاضمحلال. كانت قربي أشجار مبعثرة، وأرض رطبة زلقة، ومنحدر وعر اجتازه منذ فترة طويلة.

فجأة، وبسحر ساحر، انجلى الضباب تماماً، ورأيت أمامي صليبا مرتفعاً بمهابة فوق قمة الجبل.

نظرت حولي، فرأيت بحر الغيوم الذي خرجت منه، وبحر غيوم آخر فوق رأسي. وبين هذين المحيطين انتصبت رؤوس الجبال الشاهقة وقمة «السبريرو». استولت عليّ رغبة عميقة في الصلاة، بدا كل ما عداها غير مهم، حتى لو اضطررتني ذلك إلى التخلي عن طريق توريستريللا. عزممت على ارتقاء الجبل حتى القمة، وتأدية صلواتي وتأملاتي عند أسفل الصليب. استغرق الصعود أربعين دقيقة،

وسط الصمت الخارجي والداخلي. أما اللغة التي كنت اخترعتها فقد فارقت روحي، ولم تعد تساعدني على الاتصال لا بالبشر ولا بالله. كانت طريق مار يعقوب هي التي «تقودني»، وهي التي ترشدني إلى مكان السيف. مرة أخرى، كان بتروس محقاً.

عند القمة، رأيت رجلاً يجلس قرب الصليب، وهو منصرف إلى الكتابة. لوهلة، اعتقدت أنه «رسول»، أو أنني أشاهد رؤيا خارقة. لكن حدسي قال لي: لا. ورأيت الضفّة قد حيكت فوق ملابسه. كان حاجباً. نظر إليّ وقتاً طويلاً، ثم رحل، وقد أزعجه حضوري. لعلّه كان ينتظر أمراً خارقاً كما كنت أنتظر: ملاكاً مثلاً؟ ثم اكتشفنا، معاً، أن من ينتظرنا رجل، وليس ملاكاً على طريق الناس العاديين.

وعلى الرغم من الرغبة التي دفعتني إلى الصلاة، كنت عاجزاً عن قول أي شيء. بقيت، لوقت طويل، أمام الصليب، أراقب الجبال والغيوم التي تحجب السماء والأرض، فلا يشقّ الضباب إلا رؤوس القمم الشاهقة. على بعد مئة متر في الأسفل، أضيئت الأنوار في ضيعة تحوي خمسة عشر بيتاً وكنيسة صغيرة. على الأقل، لديّ مكان أستطيع قضاء الليل فيه عندما تقزّر الطريق. لا أعرف متى سيحدث هذا بالضبط، لكن، رغم غياب بتروس، كان لديّ مرشدي، ولم أحرم منه: الطريق التي «تقودني».

تسلّق حمل تائه الجبل، وانتصب بين الصليب وبينني. نظر إليّ وفي عينيه شيء من الذعر. بقيت وقتاً طويلاً أتأمل السماء شبه السوداء، والصليب، والحمل الأبيض في أسفل الصليب، وأحسست، فجأة، بوطأة هذه المرحلة الطويلة من التجارب والصراعات والتعاليم والمسير، وهي تلقي بثقلها على كاهلي. انتابني ألم فظيع في المعدة، وامتدّ حتى حلقي، متحوّلاً إلى شهقات جافة دون بكاء، أمام هذا الحمل، وهذا الصليب الهائل المتوحد الذي يُظهر المصير الذي لم يخرتها الإنسان لإلهه، بل لنفسه. واسترجعت كلّ تعاليم طريق مار يعقوب وعبرها في ذهني، وأنا أشهق أمام هذا الحمل الوحيد.

قلت، وقد تمكنت أخيراً من الصلاة:

— يا رب، لست مسمراً على هذا الصليب، ولا أراك مسمراً أنت أيضاً. هذا الصليب فارغ، ويجب أن يبقى كذلك إلى الأبد، لأن زمن الموت ولّى وانقضى. وها إن إلهاً يُخلق في الآن. هذا الصليب هو رمز القدرة اللامتناهية التي نملكها جميعاً، لتسمير الإنسان وبعثه إلى الهلاك. أما الآن، فهذه القدرة تُوظف من أجل الحياة. فالعالم أنقذ، وأنا قادر على إنجاز معجزاتك، لأنني عبرت طريق الناس العاديين، وفيهم وجئت سرك. وأنت أيضاً عبزت طريق الناس العاديين. جئت لتعلمنا ما نحن قادرون عليه، ورفضنا تقبله. برهنت لنا أن القدرة والمجد هما في متناول الجميع، وأن هذه الرؤية المفاجئة لقدراتنا كانت أكبر من أن نحتملها. صلبناك ليس لأننا ناكروا الجميل حيال ابن الله، بل لأننا كنا نخاف أن نتقبل قدراتنا، نحن بالذات. صلبناك، لأننا خفنا أن نصير آلهة. ومع مرور الزمن وتعودنا ما نحن فيه، رجعت ألوهة بعيدة، ورجعنا إلى مصيرنا كبشر.

ليس خطيئة أن نكون سعداء. فتمارين قليلة وإنصات يقظ يكفيان لكي يحقق الإنسان أحلامه المستحيلة. كنت فخوراً بحكمتي، فجعلتني أعبر الطريق التي يستطيع الكل عبورها، وأكتشف ما يستطيع جميع الناس اكتشافه، لو أولوا الحياة قليلاً من الاهتمام. لقد أريتني أن السعي وراء السعادة أمر شخصي وأن لا وجود لنموذج نستطيع نقله إلى الآخرين. قبل أن أكتشف مكان سيقي، كان علي أن أكتشف سزه، وهو بسيط للغاية: يكفيني أن أعرف ماذا أفعل به، وبالسعادة التي يمثلها لي.

اجتزت كل هذه الكيلومترات، لأكتشف أشياء أعرفها من قبل، ونعرفها جميعاً، ولكن يصعب علينا تقبلها. أي شيء يا رب أصعب على الإنسان من اكتشاف أنه قادر على بلوغ القدرة؟ هذا الألم، الذي أشعر به الآن في صدري، والذي يجعلني أشفق وأخيف الحمل أمامي، رافق الإنسان منذ وجوده. قليلون هم الذين تقبلوا

جمل النصر، ذلك أن أغلب الناس قد تخلوا عن أحلامهم، عندما صارت ممكنة، وامتنعوا عن خوض «الجهاد الحسن»، لأنهم لا يعرفون ما يفعلونه بسعادتهم الخاصة. كانوا أسرى أشياء الوجود، تماماً، مثلي أنا الذي يرغب في العثور على سيفه ولا يعرف ما يفعله به.

استيقظ في داخلي إله نائم، وصار الألم أكثر حدة. شعرت بحضور معلّمي. ونجحت، للمرة الأولى، في تحويل الدموع إلى شهقات. بكيت عرفاناً لأجله، هو الذي دفعني لأبحث عن سيقي على طريق مار يعقوب. وبكيت عرفاناً لأجل بتروس الذي علّمني، دون أن يقول شيئاً، أنني سأحقق أحلامي، متى اكتشفت ما علي فعله بها. رأيت الصليب عارياً. ورأيت الحمل أمامه حزاً في التنزه، حيثما يشاء على هذا الجبل، وفي تأمل الغيوم.

نهضت الحمل وتبعته. كنت أعرف إلى أين يقودني. ورغم الغيوم، فإن العالم قد أصبح شفافاً بالنسبة لي. لا أرى المجزة في السماء، لكن لديّ اليقين الكامل بأنها موجودة، وأنها ترشدني إلى طريق مار يعقوب. اتجه الحمل ناحية القرية التي تحمل اسم «السبريرو»، كجبلها. هنا، ذات يوم، على هذا الجبل، حصلت معجزة، وتحول ما نفعله إلى ما نؤمن به: سز سيقي والطريق الغريبة لمار يعقوب.

فيما كنت أنحدر من الجبل، تذكرت هذه القصة: صعد أحد المزارعين، في يوم عاصف جداً لسمع قنأساً على جبل «السبريرو». كان هذا القنأس قد أقامه راهب قليل الإيمان، ويحتقر في داخله تقوى المزارع وتضحيته. لكن، في لحظة التكريس، تحول القربان جسد المسيح، والخمر دمه فعلاً. ولا تزال الذخائر موجودة ومحفوظة في هذه الكنيسة الصغيرة، وهنا كنز يفوق كنوز الفاتيكان قاطبة.

توقف الحمل عند مدخل القرية التي تقود طريق واحدة فيها إلى الكنيسة. عندئذ تملكني الرعب، وأخذت أرذد دون توقف: «يا رب لست مستحقاً أن أدخل بيتك. لكن الحمل نظر إليّ نظرة اخترقتني كسهم. كان يقول لي أن أنسى إلى الأبد عدم استحقاقي هذا، لأن القدرة بُعثت فيّ، كما يمكن أن تبعث في جميع الناس الذين يجعلون من الحياة «جهاداً حسناً». قالت عينا الحمل إنه سيأتي يوم ويرجع الإنسان من جديد فخوراً بنفسه. وعندئذ، ستحتفل الطبيعة بأكملها بيقظة الله الذي بهجج فيه.

كان الحمل مرشدي على طريق مار يعقوب. في وقت ما، أصبح كل شيء مظلماً، ورأيت أمامي مشاهد تشبه، إلى حد بعيد، تلك التي قرأت عنها في رؤيا القديس يوحنا: الحمل الأكبر جالس على عرشه، والناس يغسلون ثيابهم، ويظهرونها بدم الحمل. كانت هذه يقظة الإله الهاجع في كل واحد منا. رأيت، أيضاً، معارك واضطرابات وكوارث تهز الأرض هزاً في السنوات المقبلة. لكن كل شيء سوف ينتهي بانتصار الحمل، وكل كائن بشري، على وجه الأرض، سيوقظ، بكل قدرته، الإله الهاجع فيه.

تبعث الحمل إلى الكنيسة الصغيرة التي شيدها المزارع، والراهب، الذي بدأ يؤمن بما يفعل. لا أحد يعرف شيئاً عنهما. وهناك حجراً ضريح مجهولان، في المقبرة المجاورة، يشيران إلى الموقع الذي دفنت فيه عظام الميتين. لكن من المستحيل تمييز قبر الراهب من قبر المزارع، ذلك أن حصول المعجزة يتطلب أن تتحد القوتان لتخوضا «الجهاد الحسن».

كانت الكنيسة مضاءة عندما وصلت إلى الباب. أجل، كنت أستحق الدخول، لأنني أحوز سيفاً، وأعرف ما أفعل به. لم تكن بوابة الغفران، فقد غُفر لي وغسلت ثيابي بدم الحمل. ولا أريد، الآن، إلا أن أضع يديّ على سيفي، وأذهب لخوض «الجهاد الحسن».

في المبنى الصغير، لم يكن هناك صليب، بل كان على المذبح ذخائر المعجزة: الكأس والصينية اللتان رأيتهما أثناء الرقصة، ومذخر من الفضة يحوي جسد المسيح ودمه. عدت إلى الإيمان بالمعجزات التي يستطيع الإنسان تحقيقها كل يوم. وبلت القمم العالية المحيطة بي، وكأنها تقول إنها ليست هنا، إلا لتتحدي الإنسان، وإن الإنسان لم يوجد إلا ليتقبل شرف هذا التحدي.

توارى الحمل وراء أحد المقاعد. نظرت أمامي: عند المذبح، وقف معلّم مبتسماً، وقد اطمأنت نفسه، حاملاً سيفي في يده.

توقفت. اقترب مني، ثم تجاوزني، وخرج. لحقته إلى أن وقف أمام الكنيسة: نظر إلى السماء القاتمة، ثم استلّ السيف من غمده، وطلب مني أن أشاركه خمله معه. شهر النصل، وهو يتلو المزمور المقدس الخاص بهؤلاء الذين يسافرون ويصارعون بحثاً عن الظفر:

«تسقط عن جانبك الألوف وعن يمينك الزنوبات

ويقترب السوء إليك

لا يصيبك شرّ، ولا تلذو ضربة من خبائك

لأنه يوصي ملائكته بك ليحفظوك في جميع طرقك.

عندئذ جنّوت راكعاً، وضرب العلم بنصل السيف كتفّي الواحدة تلو الأخرى، وهو يقول:

«تطأ الأسود الأفعى

تدوس الشبل والتنين».

ما إن أنهى تلاوة هذه الكلمات حتى بدأ المطر بالهطول. كانت تمطر، والمطر يخصب الأرض. وهذه المياه لن ترجع إلى السماء قبل أن يولد برعم، وتنمو شجرة، وتفتح زهرة. كانت تمطر بغزارة شديدة، وأبقيت رأسي مستقيماً: أستقبل، للمرة الأولى على طريق



مار يعقوب، الأمطار الهاطلة من السموات. أتيتُ من الحقول المتصخرة، وأنا سعيد، لأن هذه الليلة ستفيض فيها الحقول ماء. تذكرت صخور ليون، وحقول القمح في «نافارا»، والقحط، في كاستيليا، وكروم «ريوخا» التي ترتوي اليوم من المطر الهاطل بغزارة، مقطراً قوة السموات. تذكرت أنني أنهضت صليباً ستوقعه العاصفة من جديد، لكي يتمكن حاج آخر تعلم الأمر والطاعة بواسطته. فكرت بمسقط الماء الذي يهدر الآن بقوة أكبر، لأن ماء المطر يغنيه. وفكرت بـ «فونسبادون»، حيث تركت الكثير من القدرة لإخصاب التراب من جديد. فكرت بكل المياه التي شربتها من سبل كثيرة، وقد استعادت الآن ما فقدته. كنت جديراً بسيفي، لأنني أعرف ماذا أفعل به.

قدّم المعلم السيف إلي فأخنته. بحثت عن الحمل، لكنه كان قد اختفى. ومع ذلك، ليس لهذا أهمية تذكر: كانت الأمطار الحية تهطل من السموات، وتجعل نصل سيفي بزاقاً.

\*\*\*

## خاتمة

### سانتياغو دو كومبوستيلا

من نافذة الفندق، حيث نزلت، أبصر كاتدرائية مار يعقوب وبضعة سنيح أمام البوابة الرئيسية. كان هناك طلاب يتنزهون وسط الحشد، وهم يرتدون ملابس قاتمة قروسطية، وبائعو التذكارات يبدأون وضع تخشيباتهم. كنت في وقت مبكر من الصباح. وكانت هذه السطور، باستثناء بعض الملاحظات، أول سطور كتبتها على طريق مار يعقوب.

وصلتُ إلى المدينة البارحة، بعد أن أفلتني الحافلة التي تؤمن الاتصال بين «بدرافيتا»، القريبة من «السبريرو»، وكومبوستيلا. لقد أمكن في أربع ساعات، اجتياز المئة والخمسين كيلومتراً التي تفصل بين المدينتين. وعدت بالذاكرة إلى مسيرتي مع بتروس، حيث كان يلزمنا أسبوعان لنجتاز مثل هذه المسافة. بعد قليل، سأخرج وأضع على قبر مار يعقوب صورة سيدة «أباريسيدا» المزدانة بالأصناف. وبعدها، إذا كان الأمر ممكناً، ستقلني طائرة لأرجع إلى البرازيل، حيث تنتظرني أعمال كثيرة. تذكرت أقوال بتروس، عندما أخبرني أنه اختصر كل تجربته في لوحة. عبرت ذهني فكرة تأليف كتاب عما عشته، لكن هذا أيضاً لا يزال مشروعاً بعيداً، ولديّ أشياء كثيرة يتوجب عليّ فعلها الآن، وقد استعدت سيفي.

يبقى سز سيفي لي وحدي، ولن أعلن عنه أبداً. لقد كتبت

وتركته تحت حجر. لكن المطر، الذي هطل، أتلّف الورقة بالطبع.  
وهذا أفضل. أما بتروس، فليس في حاجة إلى معرفته.

سالت معلّمي كيف عرف التاريخ الذي سأصل فيه، وهل كان  
وصل قبلي بوقت طويل. فضحك قائلاً، إنه وصل صباح البارحة،  
وإنه سيرحل غداً، حتى لو لم آت. كنتُ مصرّاً أن أعرف كيف  
يمكن حدوث ذلك، فلم يجبني. وعندما افترقنا، وفيما كان  
يتخذ مكاناً في السيارة التي ستقلّه إلى مدريد، أعطاني شعاراً  
صغيراً من منظمة «مار يعقوب حامل السيف»، وقال لي إن أمراً  
عظيماً قد تجلّى لي عندما نظرتُ إلى عيني الحمل. لكن، لعلني  
سأتوضّل، يوماً ما، إلى أن أفهم أن الناس يصلون دوماً في الوقت  
المناسب، إلى حيث ننتظرهم.



www.rewity.com  
By Dalyia